صفحات من التاريخ المطمور

نسيم مجلى

المحتويات :

1- مكتبة الأسكندرية ومدارسها العلمية 4

2- مكتبة الأسكندرية المحترقة 21

3- صورة كليوباترا عند ثلاثة شعراء..... . 30

4- ابن مماتى صاحب كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش 35

5- عصر الأقطاع... والعقلية الأقطاعية..... 45

6- نوستراداموس 55

7- الحب عند الفرنسيين 71

8-أغرب قصص الحب والجنس فى التاريخ..... 87

9- العلاقة بين العلم والدين..... ..100

10- البيزنطيون والبربر فى شمال أفريقيا 105

11-هذا العصر وثقافته..... 110

12-المحاور اللولبى مفيد فوزى..... 113

13– هل هى حالة ردة فكرية ؟.....122

14- اللامعقول فى التعديلات الدستورية 127

15- فهمى هويدى ومجتمع المادة الثانية 133

16- شاعر يبكى الغربة والنفى 8 13

- 17- الكتابة عمل إنقلابى 146

مكتبة الإسكندرية ومدارسها العلمية

يقول جستوس شيفرس إن تاريخ العالم يقتفي أحيانا مسار الإمبراطوريات، ففتوحات الإسكندر الأكبر نقلت مركز العالم الإغريقي من أثينا الى الإسكندرية. فقد فتح الإسكندر الأكبر مصر عام 332 قبل الميلاد، وبنى الإسكندرية في نفس العام. وبعد وفاته انقسمت الإمبراطورية بين قواده، وكانت مصر من نصيب القائد المقدوني بطليموس الذي أقام دولة البطالمة التي استمرت ذهاء ثلاثة قرون من الزمان، ثم سقطت وانتهت بموت كليوباترا في 30 ق.م.

ازدهرت الإسكندرية في عهد البطالمة وأصبحت مركز العلم والفكر في العالم كله. وكان ذلك أمرا طبيعيا لما تنفرد به هذه المدينة من مزايا عديدة إذ كانت ميناء بحريا ومركزا تجاريا عالميا يسيطر على طرق المواصلات، ويمكنه الوصول إلى ثروة الشرق وثقافته، وظلت هذه المدينة موضع رعاية عظيمة من حكام البطالمة وخصوصا القادرين والمثقفين منهم.

لقد أحاط بطليموس الأول نفسه بجمهرة من الفلاسفة ورجال الادب استقدمهم من كل أنحاء اليونان وأتاح لهم كل ألوان التشجيع الممكنة، فأنشأ المتحف كأكاديمية لتدريس الفنون والعلوم (واعتبره مقرا لربات الفن والشعر) وقد ضم المتحف مكتبة زاخرة هي أروع مكتبات العالم القديم. وأخذ الباحثون يتوافدون على الإسكندرية من كل ألأقطار والأجناس من بابليين ورومان ويهود، كانوا يأتون زرافات ووحدانا ليدرسوا على أساتذة المتحف ويطلعوا على ما في المكتبة من أثار فكرية وعلمية، ويمعنوا النظر فيها.

وهكذا أشرقت شمس الإسكندرية كمدرسة فريدة للفلسفة والعلوم. وقد ظهرت الى جانب هذه المدرسة مدارس أخرى منافسة مثل مدرسة بيرجامون ومدرسة

رودس، لكن الخصومة كانت على أشدها بين مدرسة الإسكندرية ومدرسة برجامون. وفي سبيل محاصرة تاثير هذه المدرسة, أصدر البطالمة قرارا يحظر تصدير ورق البردي الى أهل بيرجامون؛ لحرمانهم من مادة الورق اللازمة للكتابة. وقد دفعهم هذا الحظر إلى استخدام جلود الحيوانات التي استخدمها قبلهم كثير من شعوب آسيا في أغراض الكتابة ايضا.

وقد نجح هؤلاء البرجاميون في تطوير نوع خاص من رقائق الجلد سمي جلد بيرجامون التي اشتقت منها كلمة (Parchment رقائق الجلد او ورق البرشام) لكن لم تنجح أي منافسة في التاثير على مكتبة الإسكندرية؛ إذ عقد لها لواء السيادة وظل تاثيرها مسيطرا على سماء الفكر الإغريقي قرونا عديدة.

وفي الإسكندرية برز كثير من الفلاسفة الإغريق الذين استوحوا حكمة حكامها فنبغوا في شتى دروب العلم كالهندسة والجبر وحساب المثلثات والتنجيم والفلك؛ وأيضا في الجغرافيا والمساحة والميكانيكا والكيمياء. كان علماء الإسكندرية أساسا من المتخصصين؛ لم يقولوا في كل ميدان كما فعل أسلافهم؛ إلا أن التخصص عندهم لم يكن بمعناه الضيق لهذه الكلمة؛ لكنهم كانوا أبعد ما يكون عن الاجتهاد في كل علم كما فعل ارسطو.

كان بطليموس الأول أو بطليموس سوتر (أي المنقذ) قائدا بعيد النظر إخطط لنفسه سياسة طموحة ترمي إلى بناء دولة قوية ونظام مستقر؛ وكان من رأيه ان الابتعاد النسبي عن شؤون الحياة العامة؛ وهو السمة المميزة لمدارس الرواقيين والأبيقوريين التي تعارض السمات الديمقراطية العادية في مدرستي افلاطون وأرسطو قد تساهم مستقبلا في خلق راي عام ملائم لنظامه بين الإغريق في الاسكندرية. لذلك عرض ضيافة قصره على كبار الفلاسفة الإغريق؛ ومن أبرز هؤلاء وأعظمهم كان دبمتريوس الفاليري؛ وكان أحد الفلاسفة المشائين(الأرسطيين) الذي لعب دورا بارزا في الحياة العامة في أثينا؛ إذ كان الحاكم الأوتقراطي للمدينة في أثناء حكم الكسندر المقدوني؛ وفي أثناء هذا الوقت ساهم في تاسيس مدرسة أرسطو او "الليكيوم" تحت إشراف ثيوفرستوس خليفة أرسطو.

وفي سنة 703 عندما استولى ديمتريوس لخر على أثينا- أي ديمتريوس الباسيجر ابن انتيجيونس الأعور؛ الذي استعاد النظام الديمقراطي؛ هرب ديمتريوس الفاليري إلى الإسكندرية؛ حيث أصبح امين سر بطليموس سوتر وموضع ثقته. وأصبح

مسؤولا عن تاسيس المتحف والمكتبة وكان تأثيره حاسما في تحديد شكل ووظيفة هذه المؤسسات التي أصبحت قلب الحياة الفكرية للاسكندرية.

كان المتحف مؤسسة حكومية؛ أختير مكانه في أراضي القصر الملكي واعتمد على إعانة القصر؛ ومن ثم خاضعا لإرادة القصر وعلى غرار أكاديمية أفلاطون؛ وقد وهبوه لربات الفن (MUSES) ومن هنا جاء إسم (MUSEUM) وبهذا تأكدت العلاقة بين العلم والفنون الإغريقية الكلاسيكية. وتبعا لهذا ونتيجة لصلته بالقصر الملكي؛ كان لابد ان يكون رئيس المتحف التعليمي كاهنا أو ربما كان الكاهن الأكبر في معبد سيرابيس، ويعينه الملك لكن وظيفته كانت وظيفة إسميه تقريبا. كان علماء المتحف يأتون إلى هناك بدعوى ملكية؛ وكانوا يقيمون ويتلقون الإعانات من الخزينة الملكية. ويعيشون حياة منعزلة الى حد ما؛ على غرار النمط الذي كان يتبعه العلماء الإغريق في العالم الهيلينيستي؛ ففي أزمنة الاضطرابات بعد فتوحات الإسكندر كانوا أرواحا رقيقة حساسة أحست بالحاجة الى الهروب من إذلال الحياة العامة فلاذوا بالفلوات؛ حيث لا يمكن لصخب العالم الخارجي وضوضائه أن تنفذ إليهم. فعزلوا أنفسهم عما حولهم؛ ليس فقط من أجل العلم بل أيضا لكي يعيشوا عيشة هادئة.

يعتقد مطر MATTER في كتابه Le Ecole d, Alexandrie بان عدد الباحثين في المتحف لم يزد في أي وقت من الأوقات عن 30 باحثا رغم أنه كان هناك تبادل بين المتحف والمؤسسات المشابهة في المدن الهلينيستية الأخرى، وكان كبار العلماء الزائرين أيضا يلقون الترحيب للإقامة كضيوف في المتحف،

ويبدو أن المتحف لم يكن به تلاميذ مقيمون لكن علماؤه كان لهم تلاميذ وميريدون يقومون بتعليمهم ربما خارج المتحف. على كل حال فإن المكتبة اتسعت في وقت قصير، وأصبحت أكثر شهرة من المتحف. لقد أنفق ملوك البطالمة الثلاثة الأوائل مبالغ طائلة واستخدموا كثيرا من الموظفين لشراء المخطوطات الكلاسيكية حيثما يجدونها في كل أنحاء العالم الهيلينستي. ويقال إن ديمتريوس الفاليري قد جمع في عهد بطليموس سوتير 200,000 من لفائف المخطوطات منها 50,000 مخطوطة أصلية، والبقية صور منسوخة، وذلك قبل ان يفقد رضا الملك وينفى بسبب نصيحته غير المستحبة بترشيح كرانوس Keraunos ابنه من زوجته الأولى كوريث للعرش بدلا من فيبلادلفوس ابن زوجته ببرينيس Berenice.

ويقال ان فيلادلفوس وزينودوتس كبير أمناء المكتبة؛ وهو باحث مشهور في تراث هومر، قد اشتري مكتبة ارسطو. وفي نهاية حكمه حسب ما يذكر الشاعر

كليمايخوس، الذي ربما خلف زينودوتوس كامين للمكتبة ووضع لها الفهارس، فإنها كانت تحتوي على 90000 لفافة لمخطوطات أصلية و40 ألف لفافة من الصور المنسوخة، بالاضافةإ إلى 480 ألف في ملحق أو مكتبة صغيرة أطلق عليها لقب "الإبنة" Daughter تم إنشاؤها في معبد السيرابيوم؛ كما يقال إن بطليموس الثالث وأمين المكتبة ايراتوستين العظيم ليوناردو دافنشي عصره، حصل على مخطوطات يوروبيديس وقد أنشأ بطليموس الرابع فيلاباتور فرعا للمكتبة كرسه خصيصا لدراسة هومر وتحريره،

في عالم الأدب الهيلينستي كانوا ينظرون إلى هومر باعتباره أعظم شعراء الملاحم، وأعظم الحكماء، وراوى القصص الذي لا مثيل له. فهو مرآة الثقافة الكلاسيكية، وآلهته وابطاله الذين برغم أن أحدا من المتعلمين لم يعد يعتقد فيهم أو يعبدهم إلا أنهم لا يزالون يشكلون جزءا من سدة النظام الإغريقي ولحمته. كانت إحدى المنجزات الرئيسية التي حققتها مكتبة الإسكندرية في المائة سنة الأولى، هي جمع أعمال هومر وتحقيقها، وتحريرها وتصحيحها وحفظها للأجيال القادمة. لقد جعل زينودوتس هذه المهمة شغل حياته وقد زيدت واكتملت على يد خلفائه. أريسطوفانيس البيزنطى وأريسطارخوس الصامي. وقد قامت مكتبة الإسكندرية بالنسبة للادب الكلاسيكي عموما بمهمة الجمع والتحقيق والحفظ.

فقد تخصص بعض العلماء في أشكال الدراما المتعددة، فتخصص الإسكندر الإيتولي AETOLIA في التراجيديا والهجاء، وتخصص الشاعر لكيفرون في الكوميديا، وقام بتحرير وتصحيح نصوص شعراء الدراما الكلاسيكية التي تم الحصول عليها ووضعها في المكتبة. هؤلاء الباحثون أدوا للأدب الكلاسيكي ذات الخدمة التي أداها الرومان فيما بعد بالنسبة لشعراء الإسكندرية. لقد أنقذوهم من النسيان وسلموا أعمالهم لمن أتى بعدهم من الباحثين وحيث أن الادب الإغريقي هو أكثر من الأدب السكندري فإنهم قد قاموا بهذه المهمة على أحسن وجه وأكمله.

إيراتوستين القورينى

ربما كان أعظم علماء الإسكندرية جميعا وأكثرهم شمولا هو إيراتوستين القوريني؛ الذي سيطر على العالمين: عالم المتحف وعالم المكتبة. كان تلميذا للأبيقوريين في أثينا. ولد في قورينة بليبيا حوالي 275 قبل الميلاد، وعاش حياة طويلة ومات في الإسكندرية حوالي 194 قبل الميلاد. جاء إلى الإسكندرية وهو شاب في أواخر حكم فيلادلفوس. وعمل كبيرا لأمناء المكتبة في عهد بطليموس بورجيتس وظل كذلك حتى وفاته. كان ينافس أرسطو في سعة معرفته. كتب الشعر كما كتب أعمالا في النقد التاريخى وفي علم الكرونولوجيا

CHRONOLOGY في الفلسفة والرياضيات، وكتب بحثا في الجغرافيا أوجز فيه المعلومات الجغرافية في عصره. واستنتج فيه أن العالم مستدير الشكل فإذا صار انسان من أسبانيا في اتجاه الغرب فإنه سوف يصل في النهاية الى الهند؛ لأن كل بحار العالم مرتبطة بعضها مع بعض بحيث تطوق اليابسة بطوق كالحزام؛ ونتيجة لذلك فإنه يمكن لأي انسان أن يطوف حول قارة أفريقيا. واخترع طريقة يمكن بها اكتشاف الأعداد الأوليه تسمى الغربال The Sieve وجهاز ميكانيكيا لنسخ المخطوطات؛ ثم اخترع آلة تسمى الميزولاب Mesolabe للتأكيد على النسب الطفيفة Mean Propcrtional بين خطين وللوصول إلى جذور الكميات هندسيا.

إقليدس

كان إقليدس عالم الرياضيات أول الأسماء التي نالت شهرة عظيمة ولا يعرف عنه سوى أنه ظهر في عام 3 ق.م . واشتغل بالتعليم في المتحف؛ وكتابه (مبادئ الهندسة) يلخص اكتشافات فيثاغورس وغيره من الرياضيين؛ كما يتضمن بعض الإضافات الهامة التي أسهم بها إقليدس في هذا المجال. فقد رتب إقليدس نظريات الهندسة في نظام منطقي مقبول واخترع عددا من البراهين الضرورية؛ إلا ان كتاباته بدت غامضة غريبة بالنسبة لغير المتخصصين في زمانه.

وقيل أن بطليموس الأول سأل إقليديس يوما عن طريقة أسهل لتعليم الهندسة فاجابه اقليدس (في علم الهندسة لا توجد اختصارات للملوك، فليس هناك طريق ملكي للتعليم يا مولاي) كان كتاب المبادئ من أوسع الكتب انتشارا في الثقافة الغربية. فقد وضعت الأجزاء الستة من هذا الكتاب، قاعدة لعلم الهندسة الذي يدرس في مدارسنا ويعرف بإسم الهندسة الإقليدية. لكن أكثر أجزاء الكتاب مثارا للخلاف في العصر الحديث هي الفرض الذي افترضه إقليدس والخاص بالخطوط المتوازية. والعبارة تعني انه يمكن من نقطة خارج خط مرسوم مد خط واحد موازي للخط الموجود، وهذه العبارة لا تعد حقيقة مسلما بها الآن بل مجرد افتراض. وفي القرن التاسع عشر أوضح لوباشيقسكى وبولاى إنه يمكن إنشاء نظم رياضية أكثر منطقية وأشد نفعا من الرياضة الإقليدية.

أريسطارخوس الصامى

ولم يمض وقت طويل حتى ظهر بالإسكندرية أريسطارخوس الصامى من 280 الى 264 ق.م". الذى أخذ يعلم في المتحف بعد إقليدس. كان فيثاغورس فيلاوس يعتقد بأن الأرض والكواكب والشمس تدور جميعا حول محور من نار يحيط به الغموض. اما أريسطارخوس فكان يعتقد أن الكواكب تدور في دوائر ومدارات متعددة حول الشمس التي هي النار المحورية. وقد أكسبه هذا الاكتشاف لقب كوبرنيكوس العصر القديم. بيد أن أفكاره لم تجد قبولا عند الناس في عصره، على اعتبار أنها تخريفات عقل مجنون.

درس اريسطارخوس الأحجام النسبية للشمس والأرض والقمر وحاول تقدير المسافات بينهما، إلا أن تقديراته جاءت خاطئة تماما، اذ حسب ان الشمس تبتعد

عن الأرض بمسافة تزيد عن بعدها عن القمر، بثماني عشرة بدلا من 388 مرة وهو البعد الصحيح، اما تقديره لحجم القمر فكان صحيحا لأنه قال إن القمر أصغر من الأرض، وأما الشمس فهي أكبر بكثير.

أرشميدس

كان أرشميدس أعظم أبناء هذه المدرسة شأنا (267 ـــــ 212 ق.م). قضى أرشميدس معظم أيام حياته في مدينة سركوزا موطنه الأصلي بجزيرة صقلية؛ كان إبنا لأحد علماء الفلك وقريبا للملك هيرو الثاني ملك صقلية؛ لكنه تعلم في الإسكندرية وحين عاد إلى وطنه كرس حياته كلها لدراسة الرياضيات والطبيعة.

كان ارشميدس عالما فذا في الرياضيات أسهم بالكثير في تطوير علم الرياضة البحتة، اذ وصف ما سمى منذ ذلك الحين بحلزون أرشميدس، ووضع تقديرا صحيحا لنسب محيط الدائرة الي قطرها، لذلك اثبت انه اذا وضعنا كرة في داخل أسطوانة يتساوى ارتفاعها وقطرها مع قطر الكرة فإن حجم الألسطوانة وسطحيهما يساويان حجم وسطح الكرة مرة ونصف. لقد اعتبر أرشميدس هذه النظرية أهم إسهاماته لعلوم الرياضيات وأوصى أن تحفر على شاهد قبره في شكل هندسي ملائم.

ثم توصل أرشميدس إلى طرق بارعة جدا للتعبير عن الأرقام. وكان هذا من أشد الأمور صعوبة في عصره. وفي كتابه (دليل الرمال) Sand Reckoned يوضح أرشميدس أن هناك أرقاما لانهائية يربو عددها على عدد حبات الرمل الموجودة ليس فقط في سراكوزة او صقلية؛ بل الموجودة في جبل من الرمال مثل حجم (هذا الكون) .

كذلك كانت إلهامات أرشميدس في مجال العلوم الطبيعية شيئا بارزا، ولا غرابة في هذا فهو مؤسس علم الميكانيكا النظرية، وهو الذي صاغ قانون الروافع الذي يعد غاية في البساطة وغاية في الأهمية. يقول ارشميدس (اعطني مكانا لأقف فيه في الفضاء وسوف أحرك لكم الأرض) كذلك وضع المبادئ الأساسية لعلم الهيدروستاتيكا أحد فروع علم الطبيعة الخاص بدراسة ضغط وتوازن السوائل.

لم يكن أرشميدس عالما مرموقا في صياغة المبادئ النظرية فقط بل كان رجلا واقعيا يهتم بالتجربة العلمية أيضا. فحين وضع قانون الروافع وأثبت بطريقة رياضية إنه يمكن تحريك ثقل كبير باستخدام قوة بسيطة؛ وطلب إليه الملك أن يثبت ذلك بالتجربة العلمية. صمم ارشميدس جهازا آليا معقد يمثل رافعة ثم أمسك طرفه بيد واحدة؛ وراح يحرك به سفينة كبيرة بحذاء الشاطئ.

واحيانا كانت الحقائق العلمية تتكشف له من خلال محاولاته الجادة لحل مشاكل الحياة العملية. ففي ذات يوم سأله الملك إن كان بوسعه أن يعرف هل صنع تاجه من الذهب الخالص أم الصائغ قد أضاف إليه معادن أخرى اقل قيمة. انشغل ارشميدس بحل هذه المعضلة حتى اهتدى لقانون الطفو والسائل المزاح الذي يعرف باسمه حتى الآن.

كان ارشميدس يتميز بعقلية مبدعة تعد من أخصب العقول في العصر القديم، وكان ينظر الى مخترعاته كما يقول بلوتارك على أنها تنويعات مهندس يلهو باللعب. بدا أرشميدس يهتم بالاختراع حين طلب إليه الملك أن يحول اهتمامه من الأفكار المجردة الى واقع الحياة الملموس، وأن يبسط براهينه بحيث تصبح سهلة الفهم حتى يساعد العامة على الانتفاع بها في أغراض الحياة العملية.
اخترع ارشميدس الطنبور، الذي يستخدمه الفلاح المصري حتى الان لكي ينزح به الماء من قاع سفينة كبيرة بنيت لحساب الملك... كما انه قدم عددا من المخترعات الحربية ذات التاثير الفعال. والتي نجحت في صد جيوش الأعداء لمدة عامين. فقد حاصر الجيش الروماني بقيادة مارشليوس مدينة سركوزا 214 ق.م، فاختراع أرشميدس (المقلاع) – المجنيق الذي أوقف جنود المشاه. كذلك اخترع نوعا من "الاوناش ذات المنقار الخطافي" التي تقوم بقلب سفن الأعداء وإغراقها في البحر وقيل أنه صنع مراة حارقة، كانت تشعل النار في سفن الغزاه كلما اقتربت من الشاطئ. وأدى هذا الى صمود المدينة لمدة سنتين قبل ان تسقط في أيديهم 212 ق.م وتشهد المذابح الرهيبة التي راح أرشميدس ضحيتها.
فقد واصل العمل بالمسائل الرياضية متجاهلا الأوضاع المضطربة من حوله؛ وفي اثناء انشغاله برسم أحد الأشكال الرياضية على الرمال قتله جندي روماني مخمور؛ وأثار ذلك الحادث حزن القائد مارشليوس الذي كانت تعليماته تقتضي بإعفاء هذا الحكيم العجوز من العقاب. وشيع ارشميدس الى قبره في موكب كريم وتحققت وصيته فحفروا على قبره كرة بداخل اسطوانة.

إيراطوستين القرن الثال ق.م
لم تنجب مدرسة الإسكندرية قط عالما آخر في منزلة أرشميدس لكنها خرجت عددا كبيرا من اواسط العلماء والباحثين ممن قدموا إسهامات لا تنكر في ميدان العلوم.
من بين هؤلا ارايتوسطين (القرن الثالث ق.م) الذي أجرى تجربة بسيطة ودقيقة لقياس حجم الأرض، إذ قارن بين طول ظل الشمس بالإسكندرية وطول ظلها عند اول الشلالات في وقت واحد. ونظرا لأنه افترض ان الأرض كروية، فقد مكنه ذلك من التوصل الى تقدير معقول لمحيطها. حوالي 28740 ميلا. في حين أن الرقم الصحيح هو 24874 ميلا فقط، ثم رسم خريطة للعالم واعتقد انه يمكن للانسان ان يسافر من أسبانيا الى الهند لو سار في طريق موازي للشاطئ.

هيبارخوس النيقى
اما هيبارخوس النيقي. في القرن الثاني ق.م فكان واحدا من أعظم علماء الفلك في العصر القديم؛ كذلك كان رياضيا بارزا ووضع أساس علم حساب المثلثات.
كان يعمل في رودس ببحر إيجا حيث بنى مرصدا وأجرى أبحاثا شاقة ورائعة مستخدما أفضل ما أنتج العصر من أدوات وقيل إنه أول من حدد موقعا على سطح الأرض مستخدما لفظ خطوط العرض وخطوط الطول؛ وكان أول من لاحظ أن فصل الاعتدال الربيعي والخريفى Procession of Equinoxes ياتي مبكرا عن

موعده عاما بعد عام. وهي ظاهرة تعرف باسم تسابق فصول الاعتدال. ثم وضع كتيبا جديدا للنجوم يضم ما يقرب من 1080 نجما موزعة على أبراج مثل برج الجبار والدب العظيم وصنف هذه النجوم فى مجموعات حسب درجة لمعانها وهو نظام لا يزال متبعا حتى الآن مع بعض التعديل.

كلوديوس بطليموس

بعد هيبارخوس بعدد من القرون جاء كلوديوس بطليموس (القرن الثاني الميلادي) فلكي الإسكندرية ليرث ما تركه هيبارخوس من كتالوجات؛ ونظريات ويستعين بها في عمل كتاب سماه "التكوين العظيم".

كان بطليموس يعلم تلاميذه بأن الأرض كرة مثبتة في مركز السماء بطريقة تحفظ توازنها وحولها تدور الشمس والقمر والنجوم في دوائر او دورات من خلفها يمتد محيط بلوري شفاف تتعلق به النجوم النائية؛ وخلف هذا المحيط يكمن "المحرك الاول Primum Mobile وفى ضوء نظرية الدوائر التي يدور بعضها داخل بعض شرح بطليموس عدم الانتظام الظاهري في حركة الكواكب التي تبدو وكانها تتوقف في السماء ثم تعود في اتجاه الخلف. وطبقا لنظرية الدوائر يفترض بطليموس ان كل كوكب يتحرك في داخل دائرة صغيرة يرتكز محورها على محيط دائرة أكبر محورها هو الأرض.

لقد ترجم كتاب "التكوين العظيم". الى اللغة العربية ومنها الى اللاتينية بنفس العنوان العربي أي الأعظم؛ Al Majest وظلت نظريات بطليموس مسيطرة على تفكير الناس في العصور الوسطى حتى جاء كوبرنيكوس في القرن السادس عشر.

كان بطليموس أيضا جغرافيا بارعا وكتابه " دليل الجغرافيا" يعد عملا نموذجيا في هذا الحقل لعدة قرون. لقد اختفت الخرائط المصاحبة لهذا الكتاب إلا أنه يمكن إعادة رسمها لأن بطليموس حدد خطوط العرض وخطوط الطول بالنسبة للمناطق التي قام بدراستها. ويعد كتابه "دليل الجغرافيا" عملا عظيم الفائدة عند المؤرخين لأنه يتحدث بالتفصيل عن أماكن لم يعد لها وجود، أو أصبحت تعرف الآن بأسماء مختلفة. ومن الناحية العلمية، فإن هذا الكتاب يمثل جهدا كبيرا يستحق التقدير؛ على الأخص بالنسبة لضآلة المعلومات الجغرافية التي كان يمكن الوصول إليها في ذلك الزمان الذي كتب فيه.

هيرو السكندرى

أما هيرو السكندري لا يعرف تاريخ ميلاده او موته" فقد كان نظيرا أصغر لارشميدس العظيم. إذ كان مثله حاذقا في الرياضيات والميكانيكا؛ لكنه يعرف أيضا اليوم جيدا بمخترعاته العديدة؛ فقد اخترع الدويترا وهي آله لقياس الزوايا واخترع "ألايوليبيل" وهي اشهر اختراعاته، وتعتبر الجد الاكبر للآلة البخارية. وقد سماها على اسم إيلوس إله الريح، لكنها لم توضع قط موضع الاختبار العملي

وبقيت كإحدى لعب الاطفال. ويلاحظ ان مخترعات هيرو يتجه معظمها لاستخدام ضغط الهواء او البخار.

مدرسة الطب بالإسكندرية:

العمل الرئيسي الذي قامت به مدرسة الطب بالإسكندرية هو تطوير علم التشريح. وفي هذا المجال فإن دينها للمصريين كبير جدا. كذلك فانها مدينه أيضا للرعاية "الملكية" التي أتاحت للاطباء تشريح أجسام المجرمين وقدمت لهم المجرمين أحياء من أجل تشريح الأجساد الحية، وكان أساتذة مدرسة الطب بالإسكندرية في سنواتها الأولى هما هيروفيلس الخلقيدوني Herophilus of Chalcedix وايرستوراطوس الأيولي Eristratos Of Iulis ربما كان الأخير هو مؤسس المدرسة. لقد جمع هيبروفيلس حكم أى قراط وجمع وصف دقيقا لأعضاء البصر وأعضاء الحس والمخ والجهاز العصبي، لم يكن أحد يعلم بوجودها من قبل. واكتشف وظائف الكبد وكتب بحوثا حول عمليات التشخيص diagnosis والتنبؤ بالتطورات المحتملة للمرض Prognosis وفرق بين المخ Cerebrum والمخيخ Cerebellum واكتشف أن الشرايين تحمل الدم لا الهواء كما كان الاعتقاد السائد. واكتشف أيضا وظيفة القلب في ضخ الدم من خلال الشرايين. هكذا اكتشف الحقيقة حول الدورة الدموية التي أعاد اكتشافها هارفلي بعد حوالي 2000 من السنين.

بعض أجزاء الجسم مثل الإثنى عشر التوركيولس هيروفيللى Torculus Herophilli لازالت تسمى بإسمه أوحسب التسمية التى أطلقها عليها. لقد قام إيريستوراطوس Eristoratos بدراسة خاصة للمخ والأعصاب والمعدة ونظام التغذية وسمى "رائد علم التحليل النفسي" وفي هذا الجانب استطاع ان يتحقق من وجود بعض أمراض الجهاز العصبي وأسبابها المحتملة.

ان معرفه هذين الرجلين بالتشريح هي التي جعلت اكتشافاتهم شيئا ممكنا. وقد شيد بعض خلفائهم على ما حصلوه من علم هؤلاء الرجال وعلى موجز علم النباتات الذي جمعه ثيوفراستوس Theophrastus في كتابه "تاريخ النبات" History of Plants وقد كان ثيوفراستوس في ذلك الوقت رئيسا لمكتبة أرسطو في أثينا. وقد اكتشف بعض الخواص العلاجية للحشائش والعقاقير. وكانت صناعة العقاقير ومواد التجميل والعطور والمراهم تعتمد على استيراد البهارات والأعشاب والزيوت الأساسية من الشرق، وصارت كلها صناعة إسكندرانية هامة. وأصبحت السلع المصنعة تصدر من الإسكندرية الى جميع انحاء البحر الأبيض المتوسط من أجل أغراض الرفاهية والترف؛ وأيضا لأغراض صحية ودينية.

ربما قدر للدراسات الطبية بالإسكندرية أن تستفيد من مجموعة الحيوانات التي جمعها فيلادلفرس في حدائق قصره وألحقها بالمتحف؛ وهذه المجموعة تضم أسودا ونمورا وفهودا وقططا كما تضم جاموسا من الهند وأفريقيا وحمير الوحش الآتية من مؤاب Moab بالإضافة الى تنين او ثعبان ضخم Python طوله 45

قدما؛ وزرافة وخرتيت ودب قطبي ثم بغبغاء وطاووس. لقد تم جمع الكثير من الحيوانات عن طريق رحلات صيد الفيلة من شرق أفريقيا التي نظمها فيلادلفوس. وكان يتم إرسال الفيلة الى متنزهات خاصة لتدريبها على الحرب؛ أما الحيوانات الأخرى فقد كانت تذهب الى حدائق الحيوانات. لقد وضع أرسطو أسس دراسة علم الحيوان في كتابه " تاريخ الحيوان" لكن يبدو أن فيلادلفوس الذي لم يكن لديه تذوق للعلم ولا للفلسفة الا بالقدر الذي يخدم أغراضه السياسية والترفيهية، فإنه كان هاويا للشعر والدراما، وكان في ذوقه الجمالى عاشق للفخامة البروكية. ينظر إلى حيواناته كتحفه النادرة لتسلية عشيقاته أو للتودد إلى زواره.

لقد انقسم خلفاء هيروفيلوس وإيراستوس ألى مدارس متنافسة تحت أعلام هذين الرائدين العظيمين واشتبكوا فى مجادلات أكاديمية طويلة بين الدوجماتية والتجريبية توارثها السكندريون والأطباء جيلا بعد جيل. فاعتبر أتباع هيروفيلوس أنفسهم دوجماتيون ونظر أتباع إيراستوراطوس إلى أنفسهم كتجريبيين. وهذه المعركة لا علاقة لها بأى خلافات كانت بين وجهات نظر العالمين العظيمين اللذين حملوا أسماءهما عبثا. لقد رمزت هذه المعركة إلى طريقتين تكمل إحداهما الأخرى في منهج العلوم الطبية. كذلك أشاعت هذه المعركة بين العامة، الطريقة الكلاسيكية التي تقوم على التعليل والاستنباط التى كان يمارسها أبوقراط. والطريقة التقدمية المعتمدة التي كان ينصح بها أرسطو والتى كان يمارسها كل من هيروفيلوس وإيراستوراطوس . وبعد مائتى عام من الصراع العبثى تم التصالح في هذه المعركة عن طريق تيموسون من لوديكياLaodicea الذى ابتدع طريقة انتقائية تحت إسم المنهجية Methodism في وقت صارت فيه الإنتقائية صورة عصرية في دوائر المثقفين

استمرت مدرسة الإسكندرية الطبية فى الازدهار مع بعض التقلبات حتى العصر المسيحى في القرن الثانى الميلادى إذ أخرجت مدرسة الإسكندرية واحدا من أعظم الأسماء في عالم الطب هو جالينوس الذى كتب خمسة عشر كتابا في التشريح أهم ما تبقى من الطب القديم خصوصا في تشريح الأوردة والشرايين، والأعصاب ، وكان كتابه المسمى " فن الطب " هو الدليل العلاجى لعصره.

بعد جالينوس بدأت مدرسة الطب تتراجع في حوض البحر المتوسط وتعود إلى أصولها السحرية البدائية وأسرارها القديمة عند أورفيوس واسكليبيوس بل وإلى ماهو أقدم وأشد تدميرا في مصر والهند وكالدونيا.

ولابد أن الحياة والتعليم في المتحف قد تعرضا للتوقف فترات متقطعة بسبب الإضطرابات الأهلية المتكررة التي كانت تحدث في الإسكندرية بدءا من أوائل القرن الثانى ق. م . وعلى ما يبدو فإن إنقساما خطيرا قد وقع فور انتهاء الحرب الأهلية بين بطليموس السابع سايكون وبين زوجته الأولى المطلقة كليوبترا الثانية، وفى هذه الحرب لقيت كليوباترا المساندة والدعم من سكان الإسكندرية الإغريق في

حين كان المصريون واليهود يساندون بطليموس سايكون. ويبدو أن هناك درجة من المبالغة بالنسبة للتقديرات التى وصلتنامن الإغريق عن عدد المفقودين في تلك المذبحة وعن الدمار الذى لحق بالمتحف.

من الواضح أن العلماء والفنانين وحتى الأطباء قد أصابهم الرعب والفزع بصدمة شديدة، فتركوا الإسكندرية وأصبحت بلاد اليونان والجزر المحيطة بها مكتظة باللاجئين من علماء النحو والفلسفة، وعلماء الهندسة والموسيقيين والرسامين والأطباء وآخرين من رجال العلم الذين أرغموا بحكم الضرورة أن يقوموا بتدريس ماحصلوه من معرفة سرعان ما أصابتهم الشهرة.

وعلى الرغم من التخريب والتشتت، فقد أعيد المتحف سريعا، لكن في وقت غير معروف، او ربما على مدى فترة من الزمن. ثم نقل الموقع المادى للمتحف ألى معبد السيرابيوم، حيث توجد هناك مكتبة صغيرة (أي الإبنة الصغرى للمكتبة الكبرى) التي كانت قد أنشئت في عهد بطليموس فيلادلفوس. ويبدو أن مبنى المكتبة الأصلية قد هدم بفعل الحرائق في زمن يوليوس قيصر، وظل المتحف في موقعه الأصلى في زمن استرابو الذى سجل في كتابه الجغرافيا الذى وضعه حوالى 25 ق.م وذكر فيه مبنى المتحف وليس المكتبة التي يحتمل أن تكون قد دمرت خلال الحرب الأهلية في القرن الثالث الميلادى.

من بداية حكم الرومان لم يعدالمتحف مرادفا للحياة العقلية بالإسكندرية. لايرجع ذلك إلى منافسة المؤسسات التي أقامها الرومان مثل السباستيوم والكلوديوم التي كان تأثيرها مثل تأثير المجلس البريطاني في عاصمة إحدى المستعمرات في أواخر عصر الإمبراطورية البريطانية، وذلك لأن التيار الأساسى للثقافة قد انحرف عن طريق العلوم التي عرف بها المتحف، والتي أصبح مشهورا بسببها، انحرف إلى طريق الفلسفة الإنتقائية الزائفة. وصارت تغذيها تيارات صوفية يهودية وسحرية كلدانية، فأخذت مسارا متعرجا بعيدا عن الواقع.

.ظلت مدرسة الاسكندرية تمارس تاثيرها الفكري على نحو ما؛ ولكنها ظلت طوال الأربعة قرون الاخيرة تسير في طريق الإنهيار المستمر. فبعد عصر بطليموس تعرضت إسهاماتها العلمية للاهمال الشديد واستمر هذا الحال نتيجة لعدة عوامل هامه منها سقوط دولة البطالمة ووقوع الإسكندرية في يد أوكتافيوس قيصر في 30 ق. م وتحويلها إلى ولاية رومانية ثم انتشار المسيحية وما صاحبه من صراع ومذابح بين المسيحيين والرومان. لقد شهدت الإسكندرية أعنف المذابح في عصر الشهداء " القرن الثالث الميلادي" وحين تحولت الإمبراطورية الرومانية الشرقية رسميا إلى المسيحية، وكتبت السياة لهذا الدين الجديد، لم يهتم المسيحيون بالعلوم الطبيعية وانشغلوا بفكره الخلاص الروحي التي قامت عليها مدارس فلسفية ودينية مختلفة.

كذلك كانت الفلسفة الرواقية والأبيقورية على ما بينهما من اختلاف في النظر الى الحياه متحدتين في احتكارهما للعلم. وفي القرن الثالث ظهرت الافلاطونية الجديدة التي أسسها أنونيوس بورتر في الإسكندرية حيث دعت الناس إلى التحرر من قيود العلم المادي والتركيز على التأمل المستمر؛ وانتشرت هذه الفلسفة في ربوع الإمبراطورية الرومانية الغربية في قرونها لأخيرة. وكانت نتائجها مدمرة للعلم؛ لأنه حين يعطي الناس ظهورهم للواقع ويغفلون عن ملاحظة الظواهر الطبيعية يسقط العلم في عصر شرير.

حريق المكتبة مسؤولية من؟

تناول الدكتور عزيز سريال هذه المعضلة بالدراسة والبحث في كتابه " المسيحية الشرقية" وتوصل الى رأي يمكن إجماله على النحو التالي:

يتضمن غزو العرب للإسكندرية واقعة حزينة تتعلق بحرق مكتبتها العظيمة بواسطة عمرو بن العاص؛ الذي قيل إنه كان ينفذ أوامر الخليفة عمر بن الخطاب. مع ذلك فإن هذه القصة الرومانسية تنتمي الى عالم الأساطير. فقد ظهرت لأول مرة في كتابات الرحالة الفارسي (عبد اللطيف البغدادي؛ المتوفي عام 1231 م) والمطران اليعقوبي برهير بوس المتوفي 1286م) أى بعد الغزو بستة قرون. اذ يزعمان انه بناء على تشاور الخليفة عمر قائد جيوش المؤمنين في مكة؛ إنه أرسل الى قائده عمرو بقراره المعروف الذي يؤكد فيه بانه اذا كانت محتويات المكتبة تتفق مع ما جاء في القران فهي أشياء لا ضرر لها ومن ثم فهي تافهة؛ واذا كانت تختلف مع القران فلابد من التخلص منها على اعتبار انها خطر يهدد روح الاسلام. وفي كلتا الحالتين يجب احراق هذه الكتب.

وبعد ان تسلم عمرو هذه الرسالة. بدات عملية التخلص من هذه المحتويات الضخمة باستخدامها كوقود للحمامات الشعبية بالإسكندرية وانتهت في ستة شهور وهي مدة لا تصدق. ولم يشر أحد من المؤرخين المعاصرين الى هذه القصة. فضلا عن ذلك فمن المشكوك فيه ان تكون لمكتبة بطليموس اثار باقية حتى مجيء العرب. والمعروف ان جزءا كبيرا منها قد دمر في حروب يوليوس قيصر سنه 48 ق.م وحدث في القرن الرابع الميلادي، أن المسيحيين المنتصرين قد قاموا بعمليات منظمة لاحراق المباني عمدا لإزالة كل أثر للمؤسسات الوثنية. التي لابد انها قد أصابت المتحف او ما بقي منه. إن طبيعة لفائف البردي والمخطوطات المتراكمة في المكتبة لابد ان تتحلل نتيجة استعمالها على مدى قرون عديدة قبل الفتح العربي. بعبارة اخرى فإن قصة اشعال حمامات الاسكندرية بتراث مكتبة الاسكندرية قصة يجب رفضها باعتبارها بدعة غير تاريخية ولا أساس لها .

اما الروايات القديمة فقط تناولها دكتور روبرت بارنز أستاذ الدراسات الكلاسيكية بالجامعة القومية الاسترالية في كتاب " مكتبه الاسكندرية" الصادر سنه 2002

من الجامعة الامريكية بالقاهرة، حيث يصف لنا ما تقوله المصادر القديمة عن المكتبة وكتابها والباحثين فيها وأيضا عن الدمار النهائي الذي حل بهذه المكتبة وغيرها من المكتبات العامة بالإسكندرية. وهو يبدأ هذه المسالة بالقول:

إن اهم الأسئلة الخلافية حول مصير المكتبة دارت حول مقدار الدمار الذي حدث في أثناء حرب الإسكندرية التي دارت بين يوليوس قيصر من ناحية، ومن ناحية اخرى كليوباترا واخيها بطليموس الثالث عشر في سبيل السيطرة على مدينة الاسكندرية بين 48 \ 47 ق.م

وفي محاولة للإجابة عن هذه الاسئلة يقوم روبرت بارنز بعرض روايات المصادر القديمه ببعض التفصيل ويعلق عليها؛ بادئا برأى الفيلسوف الرواقي سينيكا الذي عاش في القرن الأول الميلادي الذي يندد بجميع المكتبات الكبرى جملة فيقول " ما هي الفكرة من وراء المكتبات والكتب التي لا حصر لها؛ والتي لا يستطيع صاحبها ان يقرأ عناوينها بطول حياته كلها؟ إن العدد الكامل لهذه الكتب يمثل عبئا على صاحبها ولا يفيد في تعليم الشخص الذي يريد ان يتعلم؛ والأفضل من هذا أن تعطي ثقتك لقلة من المؤلفين علماً ان تتجول في كتب كثيرة "

" 40 ألف كتاب حرقت بمكتبة الإسكندرية. دع شخصا آخر يمتدح هذا الثراء الملكي الشديد الروعة غير المؤرخ ليفي الذي يقول إنه أبرز الإنجازات التي تدل على الذوق الراقي وعلى حرص الملوك ورعايتهم" ويرى بارنز أن هذه المعلومات استقاها سينيكا من تاريخ روما الذي وضعه ليفى وأن الجزء الوثيق الصلة بهذا الموضوع غير موجود؛ ثم يضيف إن الأرقام التي أوردها سنيكا لابد من تعديلها الى 400 ألف كتاب حتى يتناسب مع الرقم الذي أورده أوروسيوس؛ وكما سنرى فيما بعد إن الرقم في حد ذاته غير دقيق .

أما روايه بلوترك للقضهة فهي على النحو التالي:

لقد حوصر قيصر بالأسطول المصري؛ فاضطر فى مواجهة الخطر إلى اشعال النار في سفن الأسطول المصرى؛ التي امتدت من أحواض السفن إلى المكتبة فدمرتها. قد تبدو هذه الرواية مقنعة. لكنها لا تزال مجرد زعم من مزاعم بلوتارك حول ما تم تدميره على وجه الدقة. أما ديوكاسيوس مؤرخ أوائل القرن الثالث الميلادي فإنه يقول:" بعد هذه المعارك الكثيرة التي دارت بينهما (بين قوات قيصر وبين قوات كليوباترا واخيها) ليلا ونهارا؛ اشتعلت النيران في مواقع كثيرة فأحرقت احواض السفن ومخازن الحبوب وكذلك الكتب التي كانت؛ كما يقول كثيرة وممتازة". ونحن نلاحظ أن ديوكاسيوس لم يقل كم عدد الكتب التي أحرقت أو ما مقدار الجزء الذي كانت تمثله هذه الكتب في المكتبة.

وجدير بنا ان نتذكر رواية جيلانيوس التي ذكر فيها إن أهل الاسكندرية لم يعتادوا على وضع الكتب الجديدة التي يحصلون عليها مباشرة في المكتبة؛ بل كانت توضع في المخازن أولا وقد يعني ديوكاسوس ان الكتب التي تصادف وجودها في المخازن فقط هي التي أحرقت في عامي 48\ 47 ق.م

وقد صرح ايمانوس مارشلينيوس وهو من مؤرخي القرن الرابع الميلادي بأنه " بالإضافة إلى ذلك فقد كانت هناك معابد ذات سقوف مرتفعة من بينها يبرز معبد السيرابيوم بصورة واضحة. لقد زين بقاعات ذات أعمدة ومجموعة من التماثيل تكاد تنطق بالحياه؛ بجانب عدد كبير من الأعمال الفنية الأخرى وباستثناء مبنى الكابيتول الذي تفخر به مدينة روما المبجلة؛ إنه لا يوجد اروع من السيرابيوم في هذا العالم كله. ففي ذلك المعبد كانت توجد المكتبات باعداد لا تحصى؛ وأن شهادات الماضي الجديرة بالثقة تسجل بان 700 الف كتاب جمعتها عيون البطالمة الساهرة التي لا تنام قد دمرت في حرب الإسكندرية عندما وقعت المدينة تحت سيطرة الديكتاتور قيصر "

يعلق بارنز على هذه الرواية فيقول ان ايميانوس يخلط هنا بوضوح بين مكتبة السيرابيوم وبين المكتبة الرئيسية في حي اليروكيوم مما يجعلنا نشك في قصته كلها. لعله يفترض أن المكتبة كلها حرقت بالفعل فتقديره يتفق مع الأرقام التي اوردها أولوس جيليوس.

واخيرا فان أوروسيوس وهو كاتب حوليات مسيحي في القرن الخامس الميلادي، يقدم الرواية التالية: في أثناء المعركة صدر الأمر باشعال النار في الأسطول الملكي الذي كان قد انسحب الى الشاطئ فامتدت النيران إلى جزء من المدينة، فاحرقت 400 الف كتاب؛ تصادف انها كانت مخزنة في مبنى مجاور؛ وهي سجل عظيم يشهد لحماسة أجدادنا الذين جمعوا الكثير جدا من روائع الأعمال التي أنتجتها عبقرية الإنسان.

وفي راي بارنز إن هذه الرواية الأخيرة لا تستحق التصديق لأن الرقم المحدد لعدد الكتب التي أحرقت غير مؤكد؛ اذ تقرا في إحدى المخطوطات أن العدد " 40,000" متفقه في ذلك مع سينيكا. والشيء الذي يستحق الاهتمام في رواية أورسبيوس هو اذا كان في الإمكان العثور على أي شيء يؤكد الشك في ان الذي تم حرقه هو مخزن كتب فقط.

لقد ازداد الأمر صعوبة بشان الحكم على هذه الروايات وذلك نتيجة لعدم معرفتنا بشكل مؤكد لموقع المتحف أو المكتبة. فإذا كانت المكتبة قد تعرضت للتدمير فلابد ان ينتقل أثر ذلك الى منطقة القصر كلها. لكن قيصر بنفسه كان يشغل أحد القصور في وقت الحريق؛ ويقول أحد الكتاب الذي تابع هذه القصة؛ وربما كان هيرتيوس رفيق قيصر، حيث قال إن قيصر كان يمكنه أن يتوسع في احتلاله للمدينة؛ ويؤكد

بوضوح أن الإسكندرية كانت في مامن من الحريق لأن مباني الإسكندرية لم تكن تستخدم الواح الخشب او العروق، أكثر من ذلك لو أن المكتبة قد دمرت لتوقعنا أن يقوم أحد من أعداء قيصر، وليكن شيشرون مثلا بذكر هذه الحقيقة. وبعد ذلك فان استرابو، يعطينا بوضوح رواية شاهد عيان للمتحف ولم يذكر أي تدمير. ولو كان هناك شيء من الدمار، فلابد أنه حدث قبل زيارته للإسكندرية ب 20 عاما وينتهي الكاتب الى القول:

من الواضح أننا لا نستطيع أن نستخلص نتيجة محددة من كل هذه المعلومات المتضاربة جزئيا. ففي جزء منها يتضح لنا ان الذي أحترق هو مخزن كتب؛ أو جزء صغير نسبيا من مجموعة كتب المكتبة؛ ثم تطورت القصة على مدى السنين إلى قول مأثور بان المكتبة كلها قد حرقت. وفي المقابل لدينا قول أخر ماثور وهو مثير للشك ايضا أن انطونيوس قد أهدى مكتبة بيرجامون إلى كليوباترا تعويضا لها عن هذه الخسارة. ومصدرنا الرئيسي هنا هو بلوتارك الذي يسجل أن " كالفيسيوس" الذي كان مرافقا لقيصر أذاع هذه التهم ضد أنطونيو فقال إنه " قدم لها مكتبات بيرجامون التي كانت تحتوي 200,000 كتاب ...." ثم يواصل بلوتارك روايته فيقول:

وقد جرى الظن بان كالفيسيوس قد لفق هذه التهم الباطلة. ولا يشير بلوتارك مطلقا الى أن الكتب قد أرسلت بالفعل إلى الإسكندرية؛ ويبدو أنه يشك في القصة كلها؛ ومن الممكن أن نفعل نحن فعله.

وعن فترة الاحتلال الروماني لمصر يقول روبرت بارينز:

1. **قليلة هي المعلومات التي قيلت لنا عن المكتبة (وما تبقى فيها) في فترة الاستعمار الروماني. وقد سجل استرابو أنه في زمنه (اي في عصر يوليوس قيصر) حيا القيصر الكاهن المسؤول عن المتحف كما كان يفعل البطالمة فيما مضى، وهذا قد يشير إلى بعض الرعاية الإمبراطورية للمكتبة. في حين يسجل سوتونيوس كاتب سيرة الإمبراطور في اوائل القرن الثاني الميلادي إن دوميتيان قد أهمل في بداية عهده الدراسات المكتبية؛ رغم أنه كان قد رتب الأمر باستعادة المكتبات التي دمرتها النيران (في رواق اوكتافيوس بروما) بنفقات عالية؛ وبحث في كل مكان عن نسخ الكتب وأرسل الباحثين إلى الإسكندرية لنسخ الكتب وتصحيحها.**

يستنتج بارنز أن هذا التقرير لم يكن تدعيما إمبراطوريا لمكتبة الإسكندرية، فإنه على الاقل يعني حسن السمعة التي كانت للمكتبة بسبب احتفاظها بنسخ صحيحة من الأدب الإغريقي.

ربما حدث الدمار النهائي للمكتبة في عام 272م إذ يسجل إميانوس مارشيلوس: " لكن الإسكندرية امتدت واتسعت ليس امتدادا تدريجيا مثل باقي المدن الأخرى؛ وانما امتدت في بدايتها الى أبعاد عظيمة؛ ثم أنهكتها الصراعات الداخلية على مدى زمن طويل. وفي النهاية عندما تولى اورليان الإمبراطورية تصاعدت المشاحنات الأهلية الى صراع مدمر. لقد هدمت أسوار المدينة وفقدت الجزء الأكبر من حي البوروكيوم؛ والذي ظل لزمن طويل مقرا لأبرز وأهم شخصيات المدينة.

اما معبد السيرابيوم فقد تم تدميره في عام 391م ومع أن مصادرنا (اساسا الحوليات المسيحية في تلك الفترة) لا تذكر هذا بشكل مباشر؛ كما انها لا تذكر شيئا عن تدمير المكتبة الكبرى. ففي سنه 391م حاول البطريرك المسيحي تيوفيلويوس تحويل أحد معابد المدينة إلى كنيسة؛ وبعد مقاومة من جانب الوثنيين أدت الى نشوب معارك في شوارع الإسكندرية وأحدثت كثيرا من الدمار؛ حصل تيوفيلوس على موافقة الأمبراطور سيودسيوس الأول على غلق جميع المعابد الوثنية؛ بما فيها معبد السيرابيوم؛ واضطر العلماء والفلاسفة الوثنيين إلى مغادرة المدينة.

المؤرخ أوروسيوس الذي كتب سنة 416، ومن الواضح ان ذلك تم بعد زيارته للإسكندرية، فإنه يواصل الفقرة التي استشهدنا بها آنفا فيقول: " على الرغم من أنه لا زالت هناك صناديق للكتب book cases وارفف فارغة' حتى اليوم في المعابد, والتي رايناها وقد تعرضت لعمليات سلب ونهب بطريقة تذكرنا ان تفريغها من الكتب قد تم بواسطة اناس من عصرنا (وهو بالتاكيد صحيح) مع ذلك فالأجدر بنا ان نصدق ان هناك كتبا أخرى قد جمعت (غير التي احرقت) بغرض التنافس مع القدماء في الإهتمام بالبحوث والمؤلفات وألا نصدق ان هناك مكتبة أخرى غير المكتبه الكبرى التي كانت تحوي ال 400,000 كتاب قد نجت من مصير المكتبة الأخيره.

لقد اعتبر هذا اشاره الى مكتبه السيروبيوم التي دمرت سنه 391م ومع ذلك؛ فان هذه الفقرة ينبغي رؤيتها في سياق اعتقاد أورويسيوس (الذي يمكن ان لا يكون صحيحا) بان مكتبة الاسكندرية الرئيسية وبها 400,000 كتاب قد دمرت في عام 48 / 47 ق.م. انه برغم ان جهودا بذلت في وقت متاخر جدا لبناء مكتبات للمعابد بالإسكندرية؛ لكن يبدو انه يعتقد انه لم تكن هناك مكتبة أخرى معاصرة للمكتبة الرئيسية قد افلتت من مصيرها. انه لا يعرف شيئا عن تاريخ مكتبة السيرابيوم المبكر. على كل حال؛ إنه يوضح انه لم تكن هناك مكتبة كبيرة باقية في الاسكندرية على أيامه.

وفيما يتعلق بمسؤولية العرب عن حرق المكتبة فإن الكاتب ينفيها ويؤكد أن جميع المكتبات العامة بالإسكندرية قد تم تدميرها بنهاية القرن الرابع الميلادي ولا يوجد في الأدب المسيحي المكتوب بعد هذا التاريخ أي ذكر لأى مكتبة. وبخصوص ما قيل من ان الخليفة عمر قد أمر بحرق الكتب فإنه يقول: "ومن المثير للشك أيضا

أن الخليفه عمر قد أبدى نفس الملاحظة حول الكتب التي وجدها العرب أثناء غزوهم لبلاد فارس". لكنه يختم كلامه بالقول إن هذه القصة دليل على استمرار الأساطير حول مكتبة الاسكندرية بعد اختفائها بزمن طويل.

2- مكتبة الإسكندرية االمحترقة

هذا أحدث كتاب صدر هذا العام (2002م) عن مكتبة الإسكندرية،ونشرته الجامعة الأمريكية بالقاهرة. ويضم مجموعة من الأبحاث الحديثة الجادة كتبها علماء وباحثون متخصصون فى التاريخ والأثار والكلاسيكيات، وكلها تؤكد دور هذه المكتبة فى جمع التراث الانسانى وحفظه، وتطوير مناهج البحث فى العلوم والرياضيات والفلك ونشر هذه العلوم والمناهج شرقاً وغرباً فى عصر كانت فيه الإسكندرية البطلمية هى عاصمة الدنيا وسرة العالم. أشرف على هذه الدراسات وقدمها روى ماكلويد أستاذ التاريخ بجامعة سيدنى باستراليا، وكتب لها الدكتور اسماعيل سراج الدين تصديرا موجزا جاء فيه:

كانت مكتبة الإسكندرية القديمة واحدة من أعظم المغامرات الفكرية فى التاريخ، ثم اختفت هذه المكتبة منذ 1600عام، لكنها باقية فى الذاكرة الجماعية للشعوب، مادة للأساطير، ومصدراً للإلهام يستوحيه كل أولئك الذين يعملون من أجل ترقية البحث العلمى، والسعى وراء المعرفة، وإعلاء روح العقلانية، والمسكونية، والانفتاح على الآخر.

وقد بدت تلك المكتبة للكثيرين على أنها المكتبة التى جمعت كل نصوص الكتب المعروفة للعالم فى عصرها، ثم دمرت بطريقة مأساوية، وهذا الكتاب يقوم بتصحيح هذه النظرة القاصرة ويثبت عن طريق البحوث المعروضة أنها كانت أكبر كثيراً من مجرد كونها مستودع كتب، وأنها اختفت ليس بفعل حريق هائل بل لأنها كانت ضحية للاضمحلال البطىء عبر عدة قرون.

فضلا عن ذلك، فان المكتبة كانت مجتمعاً للباحثين والعلماء، وبهذا تجاوزت مهمة المكتبات القديمة فى مصر وبلاد اليونان، وذلك نتيجة امتلاكها نظرة شاملة لتعدد الثقافات بين الأمم، بجانب رسالة تهدف إلى الوصول إلى عالمية المعرفة. وأمكن تحقيق هذه الرسالة نتيجة التحولات الهائلة التى أحدثتها وكذلك بفضل التزام لا مثيل له من البطالمة الأوائل لتدعيم أحلامهم بالميزانيات الضخمة.

+
+ مجلة العربى سبتمبر 2002
. وفى هذا السياق أنجز مجتمع العلماء تراثاً هائلاً فى مجال الفكروالعلم والأدب لا زال يؤثر فينا حتى اليوم.والآن، ونحن نتأهب لافتتاح صرح مكتبة جديدة للإسكندرية، على شكل طائر العنقاء، فإن هذه المكتبة، تنهض فعلياً فى نفس الموقع حيث كانت مكتبة الإسكندرية القديمة ذات يوم. ونحن نسعى لاستعادة روح تلك المكتبة بأساليب عصرية تتلائم واحتياجات القرن الواحد والعشرين كما أننا نحاول أن نتعامل بصدق مع روح ربات الإلهام ونقيم ساحة للقاء الثقافات الانسانية، لكى نؤكد انحيازناً للعقلانية والتمدن، والحوار من أجل ترقية أساليب التفاهم والبحث عن المعرفة."

وفى ختام كلمته يتوجه الدكتور اسماعيل سراج الدين بالشكر لكل المساهمين فى بحوث هذا الكتاب، وفى مقدمتهم الأستاذ روى ماكلويد الذى وصل بهذه الجهود إلى مرحلة الإثمار، ومهد لها بمقدمة رائعة تكشف عن سمات شخصيته العلمية وأسلوبه الأسر الخلاب.

ونعود إلى محتويات الكتاب، ونبدأ بالتممهيد الذى كتبه روى ماكلويد ومنه نعرف أن جمعيات كثيرة من أصدقاء مكتبة الإسكندرية تألقت فى جميع أنحاء العالم، وأن جميعة الصداقة الأسترالية بمدينة سيدنى اضطلعت بعدد كبير من الأنشطة والبرامج فى الموسيقى والفن والأدب، وإسهاماً فى هذا النشاط اتفقت مجموعة من أساتذة التاريخ والآثار والدراسات الكلاسيكية وانتهزت الفرصة للمشاركة فى هذا الصرح الجديد وكانت ثمرة جهودهم هذا الكتاب. وقد يكون من المناسب جداً أن يقوم باحثون من أحدث الأمم فى العالم الأكاديمى بالمشاركة فى عملية بعث وتجديد هذا الصرح التعليمى القديم المشهو. ثم يتحدث مستررورى فى تقديمه لهذه الأبحاث عن الإسكندرية فى التاريخ والأساطير بادئا بتعريف المصطلح فيقول:

"ان النبيل والعلامة الأسبانى إزيدورالصقلى الذى عاش فى القرن السادس قد خصص فصلاً فى كتابه الموسوعى حول الاشتقاقات اللغوية لكلمة De Bibliothecis فعرف Biblion بمعنى (scroll) أى لفافة من ورق الكتابة ثم عرف theke بمعنى (depository) أى مستودع وكلاهما أماكن، وايضاً رموز للثقافة الغربية. وفى الروايات الأقدم والتى سبقت هذا التعريف بسبعة قرون واستمرت بعده بزمن طويل ظهر تقليد بين الباحثين أسماه البعض / تاريخ أسطورة "المكتبة المختفية"vanished library" يقصد مكتبة الإسكندرية وتأثيرها. إن أصول هذه المكتبة تكمن بين الأصداء البعيدة لذاكرة الشعوب الأوربية وتنتظر منا أن نعيد إكتشافها."

والقصة بدأت قبل انشاء الإسكندرية ذاتها، إذ يقال ان بيزاستراتوس طاغية أثينة كان أول من أنشأ مكتبة. وهى التى حملها اكسركسيس فيما بعد إلى بلاد فارس، هذا العمل هو الذى أدخل لدى الملوك والمدن ذات السيادة تقليد البحث عن الكتب عند كل الشعوب وخاصة فى البلاد الأجنبية والمهزومة، وعن طريق

الترجمة يتم نقل محتوياتها إلى لغاتهم وإلى شعوبهم من أصحاب الثقافة المهيمنة. وطبقاً لقول إريان Arrian فإن الإسكندر الأكبر، أشهر تلاميذ أرسطو توقف فى احدى رحلاته عند نهاية الطرف الغربى لدلتا النيل، بين بحيرة مريوط والبحر الأبيض وقال إن هذا المكان هو أفضل موقع لتأسيس مدينة يمكن أن تنمو وتزدهر، وعندما نظر إلى أن المكان يقع بعيداً عن مزارات آلهة الأوليمب، أمر ببناء مكتبة واهدائها لربات الشعر Muses فى أهم المدن التى تحمل إسمه. انتشى خلفاء الإسكندر بالطموحات الإميريالية فاجتهد البطالمة الثلاثة الأول فى إطاعة تعليماته، واقاموا هذه المؤسسة ذات التأثيرالبعيد المدى التى تركت تراثا هائلاً للتقاليد الفكرية الأوربية. هذا التراث يتم إحياؤه الآن باستعادة مكتبة الإسكندرية عند نهاية القرن العشرين.

يضيف ماكلويد ان قصة مكتبة الإسكندرية يمتزج فيها التاريخ والأسطورة. فمنذ عشرسنوات كتب كانفور الإيطالى رواية غير خيالية " non fiction novel" فحص فيها الوسط الثقافى لمصر الهللينستية عندما اختار حكام الإسكندرية ان يستعرضوا سلطتهم ونفوذهم من خلال تشجيع البحث العلمى والتحكم فيه، وقد تبلور المشروع فى مجتمع من الباحثين يعيشون داخل القصر فى حى اليروكيوم وهو الحى اليونانى بالمدينة .

وواضح أن هذا المشروع السكندرى إن لم يكن عملاً غير مسبوق بالنسبة لأغراض الملوك، فمن المؤكد انه مشروع فريد من نوعه فى المجال وفى التنظيم. نها المرة الأولى فى التاريخ التى يتم فيها التعهد بالانفاق على برنامج استعمارى ثقافى، لكى يكون" مركزاً للحساب والتخطيط،" بتعبير برونو لاتور، ولمثل هذه الأسباب ذاتها، أنشئت فيما بعد المكتبات الملكية فى جميع مراكز الثقافة الهللينستية. من أجل السمعة وحسن الصيت، والوعى الثقافى، وكذلك خدمة الأغراض العملية للادارة والحكم. فضلاً عن ذلك، فان مكتبة الإسكندرية على خلاف منافسيها فى برجاموم، فانها سترحب بقدوم رجال العلم الإغريق للعمل فيها، ومتابعة بحوثهم فى الرياضيات والطب وفى الأدب والشعر وكذلك فى الطبيعة والفلسفة. .

هكذا فى هذا الموقع المثالى، عند ملتقى تجارة البحر المتوسط تم تدشين أول صناعة للتعليم industry of learning من اجل تقدم الحكم والثقافة لأنهما هدفان جوهريان لأى حاكم يتصف بالنزاهة والعقلانية.

وتحت اشراف بطليموس فيلادولفوس وبتشجيعه سنة 283 ق.م وفد إلى مصر ما أطلق عليه استرابو اسم سنودس (أى مجمع) ربما من 30-50 من رجال العلم اليونانين لم يكن بينهم نساء، كأعضاء معينين بمرتبات حسب قائمة الأعمال المدنية "civil list"، لتقديم خدماتهم كمعلمين، معافين من الضرائب مع إقامة كاملة مجانية فى الحى الملكى من المدينة حيث كانوا يتناولون طعامهم جماعياً فى قاعة مستديرة تعلوها قبة، وفى الخارج كانت توجد فصول دراسية لأنه كان يطلب منهم القيام بالتدريس من وقت الى آخر.

من أوائل العلماء الذين دعاهم بطليموس فيلادولفوسللعمل بالمتحف كان ديمتربوس الفاليرى. وكان هناك اقليدس عالم الرياضيات المشهور. لقد سأله بطليموس سوتر ذات مرةعن طريقة سهلة لتعليم الرياضيات. فأجابه اقليدس بأنه "ليس هناك طريق ملكى للتعليم يامولاى". لقد جمع اقليد س كتابه "المبادىء" فى عصر بطليموس فيلادلفوس، وقام بتعليم ابوللونيوس البرجاوى (250-220ق.م) عالم الهندسة العظيم الذى كتب ثمان كتب عن أقسام المخروط، توجد سبعة منهاأربعة باليونانى وثلاثة باللغة العربية. يقال ان بطليموس فيلادلفوس كان مغرماً بالحيوانات وقد احتوى قصره على حديقة حيوان ومرصد. ومن عصر بطليموس الخامس (205-180ق.م) كان العلماء يقومون بتنظيم المباريات الرياضية، والمهرجانات والمسابقات الأدبية.

ظل المتحف أشبه شىء بمقر طائفة دينية يديرها كاهن. فإذا كان المعبد الرئيسى لابوللو، فى ديلفى ومعبد زيوس فى الأوليمب فان معبد ربات الشعر Muses فى الإسكندرية. بالقرب من المتحف كانت المكتبة، يديرها عالم برتبة امين مكتبة، يعينه الملك ويتولى وظيفته كمعلم فى البلاط الملكى. ويقال ان بطليموس الثالث كتب إلى كل ملوك العالم، طالباً منهم اعارة كتبهم من أجل نسخها، وعندما أعارته أثينة النسخ الأصلية ليوربيدس، وايسخيلوس وسوفوكليس، أمر بنسخها ولكنه احتفظ بالأصول ورفض اعادتها. ويحكى جالينوس أن موظفى الجمارك كان لديهم تعليمات بمصادرة الكتب من السفن المارة بالميناء.

ويلاحظ معظم الباحثين عدم ارتباط المكتبة أو المتحف بأى مذهب فلسفى أو مدرسة فلسفية. وقد عرفنا أن الباحثين كانوا يتمتعون بقدر من الحرية الأكاديمية والوظيفية. لكن كانت هناك طرق لانهاء التعاقدات، فالطيور النادرة التى تخريش فى قفص ريات الشعر، سواء كانوا فلاسفة أو من أصحاب المناهج العلمية، كانوا يعملون فى خدمة الملك وكان من الحكمة ألا يثيروا غضبه.

هناك قصة تروى عن الشاعر Sotades وكان شاعراً موهوباً يتمتع بقدر كبير من الذكاء لكنه كان يفتقر إلى الكياسة. كتب هذا الشاعر قصيدة يسخر فيها من زواج بطليموس الثانى فيلادلفوس من أخته أرسينوى وحين كشف أمر القصيدة وضع الشاعر فى السجن، لكنه هرب فقام أحد القواد بمطاردته حتى قبض عليه ثانية ووضعه فى وعاء من الرصاص وألقى به فى البحر حتى مات غرقاً.

وفى مقال بعنوان "الإسكندرية: سرة العالم القديم" لأستاذ اللغويات الرحالة ويندى برازيل الذى يقوم عن طريق رحلة يمتزج فيها الواقع بالخيال بعملية استطلاع للأماكن الهامة والوقوف أمام ما يرويه المؤرخون والأدباء، يتأمله ويعبر عن ذلك بنوع من الشجن فنحس فى بعض الأحيان أنه يبكى على الأطلال خصوصاً حين يحكى عن المفاتن التى كانت تزين هذه المدينة وعن أشهر زوارها من الأباطرة ورجال السياسة والفلاسفة والشعراء. ويبدأ بقول فيلو جودايوس الفليسوف اليهودى اليونانى الذى ولد فى الإسكندرية عام 15ق.م، بأن المدينة كانت تنقسم إلى خمسة أقسام بأسماء حروف الهجاء اليونانية آلفا، بيتا، جاما، دلتا ثم ابسيلون. كان حى بيتا فى الشمال، وكان يضم القصور الملكية، والمتحف

وضريح الإسكندر، اما حى دلتا فكان موقعه ناحية الشرق ويعرف بالحى اليهودى، لكن الأحياء الثلاثة الباقية لم تعرف حدودها على وجه التأكيد. لكنه زار ضريح الإسكندر الذى كان من أهم معالم المدينة واختفى فى القرن الرابع الميلادى ولم يعد هناك من يعرف مكانه.

يستحضر الكاتب ذكريات هذا الموضوع ويقول "الجثمان مازال أمامنا، لكنه ليس فى كفنه الذهبى الأصلى" لأن الذهب سرقه بطليموس الحادى عشرالذى سمى "القرمزى"، و"المغتصب". الكفن الحالى مصنوع من مادة شفافة من الألباستر أو الزجاج ولجثمان يرقد الأن وأنفه مكسور، لأنه عندما جاء أوكتافيوس قيصر إمبراطور روما الى الإسكندرية طلب أن يرى الجثمان، لكنه لم يكتف برؤية الجثمان بل لمسه بسبب هذا كُسرت قطعة من الأنف. ثم يختم رحلته بأن يحكى لنا عن أيام أنطونيو وكليوباترا الأخيرة، وهى قصة معروفة.

وعن "ديدان الكتب" فى مكتبة الإسكندرية يخصص روبرت بارنز بحثه الطويل الذى يبدأه بالكلام حول تأسيس المكتبة وبطليموس الأول "سوتر" أى المنقذ ويقول إنه كانت لديه اهتمامات فكرية كبيرة، وانه كتب تاريخ الإسكندر الأكبر، ونجح فى اغراء المفكرين الإغريق بالمجىءالى الإسكندرية، وكان أشهرهم ديمتريوس الفاليري، وهو فيلسوفً ارسطي، وسياسي من أثينة. واخرين من بينهم الشاعر فيليتاس القوصى، وزينودوت الأجرومى من افسس، واسترابو وهو فيلسوف أرسطى أصبح معلماً لبطليموس الثانى فيلادلفوس وفى عهد الأخير جاء الإسكندرية كثير من العلماء والشعراء.

يسجل استرايو على أساس معرفة شخصية أن المتحف كان جزءاً من القصور الملكية. وان الرعاية الملكية كانت أمراً حاسماً بالنسبة للمتحف. البطالمة الأوائل الذين كانوا من رجال الفكر، حافظوا على تمويله. لكن فى القرن الثانى ق.م بدأت الأسرة المالكة تواجه مقاومة متزايدة من المصريين، وكذلك تهديدات خارجية فتقلصت مساندتهم للبحث العلمى.

أسس بطليموس الأول عبادة سيرابيس، وهى (ربة مركبة من الألهة المصرية ازوريس وأبيس)، التى قدر لها ان تلعب دوراً هاماً فى الدعاية السياسية للأسرة البطلمية. وقام خلافاؤه بتأسيس معبد السيرابيون فى حى راكوتيس الشعبى بالإسكندرية، وقد أصبح هذا المعبد مكاناً لمكتبة ثانية، سميت المكتبة الإبنة، التى يبدو أنها بقيت بعد دمار المكتبة الرئيسية.

وعندما تولى دمتريوس الفاليري مسئولية المكتبة أغدقت عليه الأموال بقصد الحصول، اذا امكن، على جميع كتب العالم ويضيف استرابو أنه حينما سئل الفاليرى فى أثناء حضورالملك عن عدد الكتب بالمكتبة فقال "أكثر من مائتى الف يا مولاى وسوف أحاول فى اقصر وقت أن أصل الى رقم الخمسمائة ألف". ثم حصل على موافقة الملك على ترجمة كتب الشريعة اليهودية وامر بمخاطبة الحاخام الأكبرفى هذا الشأن. ومن أهم الأمور التى يناقشها هذا البحث موضوع النهاية المأسوية لمكتبة الإسكندرية.

يورد الكاتب أهم الروايات القديمة ويخلص منها الى أن جميع المكتبات العامة بالإسكندرية قد دمرت فى القرن الرابع الميلادى، ثم يناقش القصة التى تروى عن حرق العرب لمكتبة الإسكندرية عندما فتحوا المدينة سنة 642م، ويقول: لقد ظهرت هذه القصة لأول مرة عند أبى الفرج "وهو مؤرخ عربى مسلم فى القرن الثالث عشر الميلادى" وخلاصتها أن كاهن مسيحى اسمه يوحنا النحوى، قد تقرب من الفاتح العربى عمرو بن العاص وطلب منه كتب الحكمة الموجودة فى الخزائنة الإمبراطورية على أساس ان هذه الكتب سوف تكون قليلة الفائدة بالنسبة للعرب، فكتب عمرو بن العاص يطلب رأى الخليفة عمر بن الخطاب الذى أجابه " فيما يختص بالكتب التى ذكرتها، فإذا كان ما هو مكتوب فيها يتفق وكتاب الله، فلا حاجة لنا بها، وإذا كان يختلف مع كتاب الله فانها مرفوضه وعليك بحرقها."

فأمر عمرو بن العاص بارسال الكتب لاستخدامها كوقود لحمامات الإسكندرية، وكما أشار الفريد بتلر الى ان هناك اعتراضات كثيرة على هذه القصة! لأنها ظهرت بعد ستة قرون من الفتح العربى لمصر، وأن يوحنا النحوى هو الفيلسوف يوحنا فيلوبونوس، الذى لابد انه مات قبل هذا التاريخ! وينتهى روبرت بارنز الى أن جميع المكتبات العامة بالإسكندرية قد دمرت بنهاية القرن الرابع الميلادى ولا يوجد ذكر لأى مكتبة فى الأدب المسيحى المكتوب بعد هذا التاريخ.

ثم يقول ومن المثير للشك أيضاً ان الخليفة عمر قد أبدى نفس الملاحظة حول الكتب التى وجدها العرب أثناء غزوهم لبلاد فارس. باختصار فان هذه القصة دليل على استمرار الأساطير حول المكتبة بعد أن اختفت بزمن طويل.

وفى بحث ممتع ومثير حول أعمال أرسطو، يحل لنا د. جودفرى تانر خبير المكتبات والباحث الكلاكسيكى لغز التاريخ المعقد الذى واكب وصول أعمال أرسطو الى الإسكندرية: ان محاولاته لحل هذا اللغز تتناول الأعمال التى أخذها بطليموس وحده، وتلك التى وصلت إلى المكتبة سنة 40 ق.م تقريباً، وهى مادة للدراما البوليسية كما يقول روى ماكليود.

وفكرة البحث قوامها أن هناك مصدرين لنقل أعمال أرسطو من العالم القديم الى العالم الحديث: أولهما ما تناقله القدماء من ان اعمال أرسطو قد ورثها ثيوفراستوس خليفة أرسطو، وانها دفنت فيما بعد، ثم بيعت ثم نسخت فى روما ومن ثم عرفت بعض النسخ طريقها الى المكتبة فى زمن الرومان.

والمصدر الثانى يقوم على نظرة أخرى هى مثار للجدل الشديد ولكنها قد تكون هى الأهم وتؤكد أن هناك مجموعة من أعمال أرسطو التى أخذت عن الأعمال التى أعدت فى ميزا Meiza من أجل تعليم الإسكندر الأكبر، وهذه الأعمال إما أن الإسكندر قد منحها للإسكندرية أو أن بطليموس قد أغتصبها فيما بعد ووضعها فى المكتبة.

ويوضح د. تانر أن هاتين الروايتين تعرضان لنا فكر أرسطو فى مرحلتين من مراحل تطوره التاريخى وهى ما يمكن أن نسميه بالمرحلة التربوية "educational stage" وهى تضم كتابات أرسطو الأربعة المسماه أعمال غير

علمية "non-scientific" وهى الشعر، والأخلاق، والسياسة، والخطابة. أما الأخرى فيمكن أن نسميها أعمال أرسطو الفلسفية الكبرى.

لقد اختار فيليب الثانى ملك مقدونيا الفيلسوف أرسطو ليقوم بتعليم ابنه الإسكندر وبدء تعليم الإسكندر سنة 343 ق.م عندما كان ذلك الأمير فى الثالثة عشر من عمره، لكن الجدل مازال مستمراً حول ما إذا كان الإسكندر قد تلقى تعليمه منفرداً أم معه مجموعة من أولاد الأسرة المالكة.

ويعتقد مسترتانر بأن التعليم كان جماعياً يهدف الى تدريب جماعة من أقران الإسكندر الشباب على الولاء له ومشاركته مثله وأهدافه فى ادارة تلك الفتوحات الأسيوية التى كان والده يفكر فيها. ثم يشير الى نمط التعليم الذى تلقاه الإسكندر فيقول: إن أثينة كانت تهدف من التعليم الى إعداد مواطن صالح قادر على تولى المناصب العامة فى دولة المدينة فى أوقات السلم والحرب. وكان هذا النمط يؤكد على أهمية التربية الرياضية والتدريب على استعمال السلاح ثم الموسيقى والخطابة، ويقال إن أرسطو قد أعد للإسكندر بحثين أحدهما حول "النظام الملكى" والثانى عن " المستعمرات " كما أعد له نسخة خاصة من هومر حملها الإسكندر معه حتى وفاته.

ثم يتابع د تانر بحثه حول مجموعة أعمال أرسطو Aristolian Corpus التى يعرفها بأنها الكتابات التى وصلت الى أوربا فى ترجمة عربية تمت فى سوريا وفى بغداد فى ظل حكم الأمويين والعباسيين والتى ترجمها باحثون كان معظمهم من المسيحيين النسطوريين الذين يتكلمون السريالية، أو العلماء اليهود. وهو يتناول بالتفصيل سمات هذه الأعمال ومحتوياتها. ثم ينتقل الى محاولة تحديد كتب أرسطو التى كانت موجودة بمكتبة الإسكندرية. الى أن يصل فى النهاية الى دراسة حول بنية الأعمال غير العلمية وهى تفاصيل لا مجال لها هنا.

وعن المنح الدراسية والعلاقة بين النظرية والممارسة العملية يتحدث جون فالانس وهو أستاذ الكلاكسيات ومؤرخ لعلوم الطب، ويقرر إن المتحف والمكتبة أديا الى إزدهار غير عادى للعلوم التجريبية التى ساعدت أفراداً من العلماء لأول مرة على ان يتحرروا من المعوقات الفكرية للفلاسفة ثم ينقل رأى هيرودوت الذى سجله فى القرن الخامس ق.م من أن مصر كانت تعج بالأطباء. وبعد زيارته بقرنين وصل الأطباء اليونان بأعداد كبيرة للزيارة أو للإقامة حتى أن علم الطب فى الفترة بين أرسطو وجالينوس كان يوصف دائماً بأنه "اسكندرانى" وكان جالينوس يشير دائماً الى فرص التعليم والتدريب التى كان يتمتع بها الأطباء فى الإسكندرية فى القرون السابقة عليه.

لكن جون فالانس ينكر تمتع الأطباء بالرعاية الملكية أو ان الدراسات الطبية كانت جزءاً من برنامج المكتبة. ثم يسخر من الفلاسفة الأطباء الذين كانوا منهمكين فى دراسة كتب الطب القديمة النظرية ويسميهم ديدان الكتب. لكن التطور استمر معتمداً على تراث التشريح المصرى، ومن أشهر الأطباء الذين تمتعوا بالرعاية الملكية يذكر

هيروفيلوس وارازيستراتوس وكانت الصلة التى تربط بينهما هى انهما كانا يتبادلان بحوثاً تفصيلية فى الجسم البشرى عن طريق تشريح جثث المجرمين الذين كانوا يرسلون خارج السجون بأمر الملك.

والخلاصة أن وجود المكتبة قد ساعد على دراسة الأعمال المبتكرة فى نظرية الطب بأساليب جديدة وأنها ساهمت فى ابراز طائفة عظيمة من أكثر الأطباء انشغالاً بالممارسة العملية.

وفى نفس الإتجاه الخاص بدراسة العلاقة بين النظرية والتطبيق يمكن تصنيف مقال "مسرح بافوس ومسرح الإسكندرية" للأستاذ ريتشارد جرين الذى يطرح فيه بعض أفكاره حيث يقول "بالنسبة للاغريق فى البلاد الأجنبية أو المفتوحة حديثاً، فإن المسرح يعد مؤشراً على الأغرقة (أى الطابع الإغريقى)، وكان المسرح نشاطاً متقدماً لا تشاركهم فيه الشعوب الآخرى.

مستر ريتشارد جرين مؤرخ للتاريخ القديم ومؤرخ للمسرح وهو يستخدم خبرته ومعرفته فى مسرح القرن الرابع فى بافوس، العاصمة البطلمية لقبرص ليكشف عن الميراث الثقافى والمنهجى الذى تركته الإسكندرية ثم يشير إلى أن الحفريات التى تقوم بها جامعة سيدنى فى مدينة بافوس منذ ثلاثة مواسم، توشك على التوصل الى استنتاج عن شكل المسرح السكندرى الذى يحمل وجوه تشابه دقيقة مع المسرح الكلاسيكى اليونانى. وهذا البحث يهم الباحثين فى المسرح والدارسين للمعمار المسرحى بوجه خاص.

وفى البحث قبل الأخير تحاول باترشيا جونسون المدير المساعد السابق لمتحف جامعة سيدنى أن تجرى تقييما لمساهمة الإسكندرية فى حماية الفكر الفلسفى الإغريقى وتقول لعل أعظم انجازات الإسكندرية كان يتمثل فى قدرتها على استقبال حكمة العالم الهللينستى وتوليفها مع الأفكار الجديدة. فقد ورث العالم الهللينستى طريقتين عظيمتين للتأمل هما-

ديانات الأسرار ومدارس الفلسفة الإغريقية التى أخذت فى التقارب والتوحد فى نظرية فكرية واحدة جديدة، وقد قام بهذه المبادرة فيثاغورث صاحب العبقرية الرياضية العظيمة. وقد أعقب ذلك ظهور فلسفة أفلاطون التى تميل إلى التصوف فى القرن الرابع (427-337).

وكان لهاتين الفلسفتين، مذهب فيثاغورث ومذهب أفلاطون أكبر الأثر فى أغرقة الجزء الشرقى للبحر المتوسط بين القرن الرابع والقرن الأول ق.م وهى حركة فكرية حققت أرقى تعبير لها بفضل الوسط الذى وفرته ثقافة الإسكندرية المتروبوليتنانية العظيمة.

وفى أخر مقال يتطلع جون وارد فى الأفق البعيد، الى ما وراء ألسنة اللهب التى أحرقت مكتبة الإسكندرية ويتحدث عن أوربا العصر الوسيط أو ما نسميه عصور الظلام التى اختفت فيها المكتبات العامة تقريباً. ولا يجد ما يقارنه بمكتبة الإسكندرية غير المكتبة التى صورتها رواية "اسم

الـوردة" التـى كتبهـا أمبرتـو إيكـو.. وهـى مكتبـة خياليـة لـم توجـد قـط. يشـير جــون وارد إلــى مــا تبقــى مــن تــراث الإســكندرية فــى عصــر الملــوك الكــارولنجيين ويتســاءل إلــى أى مــدى كــان يمكــن لحالــة أوربــا فــى عصــرها الوسـيط أن تختلـف عمـا كانـت عليـه حقيقـة لـو ان مكتبـة الإسـكندرية لـم تـدمر أوتتلاشى من الوجود.

وفــى الختــام نعــود الــى مقدمــة روى ماكلويــد لنلــتقط هــذه العبــارات الجميلــة التــى تبشــر بالأمــل وتعبــرعن قــوة العزيمــة لــدى هــؤلاء الكتــاب إذ يقول:

هـذه المقـالات فـي جملتهـا تشـكل مقدمـة لعمـل جديـد صـادر عـن منظـور واسـع للدراسـات الأدبيـة والتاريخيـة مبعثـه قـوة نـبض الإسـكندرية، والمقـالات تمثـل تلاقيـاً بـين الأثـار واللغـة وتـاريخ الفلسـفة والطـب، وكـذلك الـرحلات مـن خـلال مفهـوم تقليـدى يـرفض أن تظـل الإسـكندرية ضـائعة فـى طوايـا الخرافـات والأساطير دون أن نقوم باعادتها الى الحياة من جديد.

3 - صورة كليوباترا عند ثلاثة شعراء

عصور هى موضوع هذا الكتاب الهام والزاخر الذى اصدره الدكتور أحمد عتمان تحت عنوان " كليوباترا وانطونيوس " صورتها فى الأدب الكلاسيكى عند بلوتارك وصورتها فى العصر الإليزابيش عند شكسبير ثم صورتها عند أحمد شوقى فى مطلع القرن العشرين.

وهى دراسة مقارنة لما كتبه ثلاثة من المؤلفين حول هذه الملكة التى أثارت الدنيا ولازالت تثير خيال الشعراء والباحثين . وهو بحث يتسم بالدقة والشمول شأن الأبحاث الأكاديمية إلا أن الدكتور عتمان يقدمه بأسلوب سلس ولغة سهلة تجتذب القارىء العادى والمثقف على السواء . والدكتور أحمد عتمان يبدأ هذا البحث بدراسة المصادر الكلاسيكية إغريقية ورومانية ويركز على بلوتارك وكتابه " السير المقارنة " على أساس أنه المصدر الرئيسى أو الكتاب العمدة فى هذا الموضوع .

بلوتارك (50-120 م)

ولد بلوتارك فى حيرونيا ببلاد اليونان وقضى ثلاثين عاما من عمره كاهنا فى معبد دلفى ، مركز النبوات الرئيسى فى بلاد الإغريق وزار أثينا ومصر .. وكان يتمتع بنفوذ كبير بين الأوساط الحاكمة فى روما . والجدير بالذكر هنا هو أن بلوتارك كان واحدا من المؤمنين بالجمع بين العبقرية الإغريقية والقوة العسكرية الرومانية .

كتاباته

تعددت وتنوعت كتابات بلوتارك فمنها الخطب البلاغية والمقالات الفلسفية الأخلاقية وهو كفيلسوف يعتبر افلاطونيا رافضا لبعض التعاليم الرواقية والأبيقورية ولاسيما تلك التى تدعو الى العزلة والعزوف عن الدخول فى معترك الحياة . ولبلوتارك دراسات فى التراث القديم منها كتابه " فى الموسيقى De Musica" وهو أهم مصادرنا عن الموسيقى والشعر الغنائى بصفة عامة . لكن أشهر أعماله هو كتاب " السير المقارنة " .

أسلوبه فى كتابة السير :

وكان أسلوب بلوتارك هو أن يترجم لشخصية إغريقية بارزة فى التاريخ ثم يتبع تلك السيرة بقصة أحد رجالات روما البارزين ثم يجرى مقارنة بين السيرتين مبينا وجوه التشابه ووجوه الإختلاف . وكان إصراره على المقابلة بين الشخصية الإغريقية والشخصية الرومانية يعكس فكرة

طالما دعا اليها وهى تحقيق الإنسجام والأخوة بين بلاد الإغريق مهد الحضارة والفكر الناضجين وبين روما أعظم قوة عسكرية عرفها العالم القديم .

ومن الواضح أن بلوتارك فى سيره ، كما يؤكد د. أحمد عتمان ، لايتملق الرومان ولايتعصب لبنى جلدته من الإغريق ، وهو يسجل وعيا عميقا بالتفرقة بين كتابة السير وكتابة التاريخ . فهو فى الأساس يهدف بكل سيرة على حدة أن يرسم صورة نموذجية لفضيلة أو "رزيلة "(مما يرى أنها مجسدة فى هذه الشخصية أو تلك ، من هنا جاء تركيزه على كشف وإبراز سلوك الشخصية Ethos) أى أنه يدرس طباع الشخصية التى يترجم لها بجانب إهتمامه الشديد بالحكايات النادرة وحذقه أو تحويره للأحداث التاريخي

ومع أن هذه الأمور تعيبه كمصدر تاريخى إلا أنها هى التى جعلته مفضلا عند الأجيال التالية . و بلوتارك يدين بالكثير لبعض كتاب الشعر والمؤرخين السابقين عليه إلا أن سيره فى شكلها ومضمونها تعبر عن شخصيته وأفكاره هو ففيها قدر كبير من الأصالة والتميز. ويمر الشكل العام لسيره بالمراحل التالية على الترتيب : الأسرة – التعليم ، الوصول الى الذروة ثم الهبوط أو الإنقلاب فى الحظ .

لقد إهتم فقهاء العصر البيزنطى بجمع أعمال بلوتارك والتعليق عليها لأنهم نظروا اليه مثل أهل العصور الوسطى على أنه كاتب أخلاقى تؤدى كتاباته وظيفة أخلاقية . ومن بين الفقهاء المشهورين الذين أولوا كتاباته عناية فائقه الراهب مكسيموس فى القرن الثالث عشر أما تأثير بلوتارك فى عصر النهضة فلاحدود له . لقد أدرك أهل ذلك العصر أنهم أمام مؤلف يتميز عن بقية الكتاب والمؤرخين بمنهجه التحليلى وتشريحه النفسى الذى يرمى الى الذهاب الى ماوراء الحدث الأدبى بالبحث عن الخلفية السيكولوجية للسلوك . وكان هذا الأمر بالذات هو ما يشغل بال المؤلفين وبالأخص كتاب الدراما فى عصر النهضة ، لأنهم جعلوا الإنسان بؤرة إهتمامهم .

وقد لاحظ كتاب المسرح فى عصر النهضة أن فى شخصيات سيره توازنا فريدا بين الصفات السيئة والصفات الحميدة . فهو لايقدم بطلا نقيا من كل شائبة أو خالصا من كل إثم ، وإنما كان يصور مخلوقات بشرية يتصارع فيها الخير والشر . وهذا بغير شك يعد ملمحا أساسيا من ملامح الدراما التى يستند عليها فى المسرح والتراجيديا بصفة خاصة ، لأن قدر الإنسان ينبع من داخله . أى من الخطأ التراجيدى . وهذا ما فعله بوضوح فى شخصية أنطونيوس، حيث صوره فى صورة قائد يملك قدرات خارقة وفعاله ولكنه يرتكب أخطاء قاتله تؤدى به الى النهاية المأساوية ، وكان خطأوه القاتل فى رأى بلوتارك هو حبه لكيلوباترا وتعلقه بها بدرجة جعلته

يضحي بأمجاد الأمبراطورية وعظمة روما ويفضل الحياة مع هذه الملكة العاشقة فى بلاد الشرق .

ويأخذ الدكتور عتمان على بلوتارك نقص معرفته بالأدب اللاتينى ، وهذا يتضح من كتابته لسيرة أنطونيو فهو لايشير الى أراء هوراتيوس وأوفيد وشيشرون وفرجيليوس ، فى حكاية أنطونيو وكليوباترا . وربما كان نقص معرفته باللاتينية حال دون قرائة مؤلفات هؤلاء الكتاب .

شكسبير وبلوتارخوس :

قام جال أميو الفرنسى (1513- 1593) بترجمة كتاب " السير المقارنة " عام 1559 ، وترجم " الأخلاق " عام 1572 الى الفرنسية . ثم نقل سير توماس نورث (1535- 1603) ترجمة أميو من الفرنسية الى الإنجليزية عام 1579 وهذه الترجمة الأخيرة هى التى إعتمد عليها شكسبير كلية وهو ينظم مسرحياته الرومانية الثلاث " يوليوس قيصر " و " أنطونى وكليوباترا " ثم " كوريولانوس " وكان شكسبير فى مسرحية يوليوس قيصر " أكثر إلتصاقا برواية بلوتارخوس .

سيرة أنطونيو :

يؤكد الدكتور عتمان فى كتابه أن بلوتارك كان متحاملا على أنطونيو تحاملا شديدا بسبب إرتباطه بكليوباترا وانحيازه لإقامة إمبراطورية فى الشرق مركزها مصر . ويبدو هذا التحامل فى النقاط الآنية :

1- ان أنطونيو كان السبب غير المباشر فى إغتيال يوليوس قيصر حين وضع التاج على رأس يوليوس قيصر فى عيد اللوكايا مرحبا بأنه ينبغى أن يكون ملكا .

2- لقد أساء أنطونيوس الى حكم وسمعة قيصر عندما كان تربيون (نقيبا) للشعب فى روما إذ أهمل المظلومين ولم يقبل نصح الناصحين له إلا فى تبرم بسبب علاقاته المريبة مع نساء الأخرين .

إن سلطة يوليوس قيصر كانت أبعد شىء عن الدكتاتورية طالما كان هو نفسه المسئول ولكن اصدقاءه ، اساءوا اليه وكان فى مقدمتهم أنطونيوس فكان أكثرهم جميعا إرتكابا للأخطاء ، إلا أن بلوتارك يستدرك أن يوليوس قيصر حينما عاد من أسبانيا تغاضى عن جرائم أنطونيوس على أساس أنه " نشيط فى الحرب وشجاع وقائد عسكرى وجدير بالذكر هنا أن أنطونيوس " كان الرجل الثانى بعد يوليوس قيصر. ولقد أظهر الأخير رأيه فيه بوضوح حين أوشك على الدخول فى المعركة الفاصلة فى فارسوس فقاد هو بنفسه الجناح الأيمن وترك الجناح الأيسر لأنطونيوس كأقدر ضابط تحت امرته . وبعد إعلان قيصر دكتاتور عقب إنتصاره طارد هو بنفسه بومبى الأكبر واختار أنطونيوس قائدا لسلاح الفرسان وأرسله الى روما وهو

منصب يلى الدكتاتور مباشرة حالة وجود الأخير بالمدينة " روما " ، أما فى حالة تغيبه فإنه يصبح المنصب الأول والوحيد تقريبا .

هكذا كان أنطونيوس على عيوبه ومساوئه الرجل الثانى فى روما أثناء حياة يوليوس قيصر ، كما أنه كان الدرع الواقى، وبعد أن تمت عملية إغتيال قيصر سجل أنطونيوس فى هذا الوقت إنتصارا عظيما فى موقعين هامين :

بمجلس الشيوخ حين حاول إنقاذ البلاد من الحرب الأهلية فدعى مجلس الشيوخ للإنعقاد وتحدث مدافعا عن العنف وفى صالح توزيع الولايات على بروتوس وكاسيوس وشركائهم فوافق المجلس على إقتراحه ، وقرر ألا يدخل أى تعديل على ما أنجزه (يوليوس قيصر) وهكذا خرج أنطونيوس من المجلس كألمع شخصية لأن الناس رأوا أنه وضع حدا للحرب الأهلية وأنه قد عالج أمورا شائكة ومربكة بطريقة سليمة .

وكان الموقف الثانى هو إنتصاره فى معركة فيلبى ، على قتله يوليوس قيصر. اذ لاحظ بلوتارك أن أنطونيوس قد غير فى سلوكه تجاة المؤامرة والمتأمرين فيما بعد "فعندما كان جثمان (يولويس) قيصر يحمل للدفن حدث أن ألف انطونيوس الخطبة الجنائزية التأبينية المعتادة فى السوق (الفورم) وعندما لاحظ أن الشعب قد تأثر بشدة بكلماته فإنه أخذ يخلط كلمات الرثاء والثناء (على قيصر) بعبارات الأسف والإستنكار للغفلة الشنيعة (أى إعتياله) وفى نهاية خطبته أمسك بثياب الفقيد وهزها عاليا فظهرت ملطخة بالدماء ومهلهلة من طعنات السيوف . ثم وصف من إرتكبوا الجريمة بالسفاحين الأوغاد فأثار الشعب ضدهم فجمعوا المقاعد والمناضد بعضها على بعض وأحرقوا جثمان (يوليوس قيصر)ثم نزعوا الألواح الملتهبة وجروا بها الى بيوت القتلة وهاجموهم . وبناء على ذلك وحد أتباع يوليوس قيصر صفوفهم وراء أنطونيوس . أما كاليورنيا زوجة قيصر فقد وضعت ثقتها فى أنطونيوس وأخذت معظم الأموال ووضعتها فى عهدته . وتسلم منها أنطونيو مسودات قرارات يوليوس قيصر ومراسيمه ومخطوطاته . وبعد أن أدخل عليها كثيرا من التحوير عين الكثيرين من الحكام وأعضاء مجلس الشيوخ طبقا لأهوائه الشخصية .

يتضح من هذا كله أن بلوتارك يتحمس ليوليوس قيصر بإعتباره واضع أسس الإمبراطورية الرومانية . كما أنه من الواضح أيضا أن بلوتارخوس يتحامل على أنطونيوس فلا يترك أيه فرصة إلا وانتهزها لإنتقاده والإساءة اليه

ومن الفرص السانحة التى سهلت لبلوتارك أن ينتقد أنطونيوس فى وحشية الإنتقام الذى أنزله أنطونيوس بخصمه شيشيرون خطيب روما الفذ وفيلسوفها الحكيم وقنصلها السابق .

" بعد أن ذبح شيشيرون أمر أنطونيوس بان تقطع رأسه ويده اليمنى التى كان يكتب بها الخطب ضده (أى القليبيات) Philippica وعندما

أحضروها نظر اليها بزهو وضحك من فرط السرور " ثم أمر بعرضها فى السوق " .

كان متغطرسا فى إهانته للميت إلا أنه كان يظهر الصلف وهو فى قمة مجده أيضا واساء إستخدام قوته . وهكذا استمد أنطونيوس فى رواية بلوتارك صفة البطل المأساوى عند شعراء التراجيديا الأغريق ألا وهى الغطرسة أو الكبرياء بالاغريقية " الهيبريس Hybris " ثم ذكر حاسنه على النحو الآتى:

1- الفصاحة وقوة التأثير فى سامعيه .
2- الطموح لأداء أعمال بطولية .
3- الصمود والقدرة الفائقة على المقاومة والصبر فى مواجهة الشدائد واليقظة إزاء أعتى الأخطار – كما فعل بعد هزيمته فى موقعه موتينا على أيدى خصزمه من الرومان وبعد فشل حملته ضد البارثيين 36 ق . م .

هنا تنتهى دراسة أحمد عثمان عن بلوتارك وأتوقف أنا أيضا بسبب السفر وأدعو القارىء العزيز إلى الرجوع إلى متاب الدكتور أحمدعثان ليستوفى الحديث عن شكسبير وأحمد شوقى والأهتمام بقراءة التفاصيل. وراى الخاص إن شكسبير صور كليباترا بصورة رائعة كبطلة وطنية تحب مصر وتدافع عنها باستماتة شديدة، وقد تصدت لحملات الرومان سنوات طويلة وحافظت على استقلال مصر حتى النفس الأخير حين رفضت أن تستسلم لأوكتافيوس قيصر وقررت الأنتحار وقالت قولتها الأخيرة :

أأدخل فى ثياب الذل روما وأعرض كالسبى عى الرجال

هذا البيت من مسرحية كليوباترا لأحمد وهوترجمة جميلة لشعر شكسبير ضمن فقرة كاملة ، وهذا يدل على أن شوقى كان متأثرا جدا بشكسبير وأكتفى بهذا القدر وأترك للقراء النجباء مهمة استكمال القراءة فى كتاب أحمد عثمان ولكم خالص أمنياتى.

4- ابن مماتى . صاحب كتاب الفاشوش

كاتب وشاعر ورجل دولة. عاش فى عهد الأيوبيين. ألف أكثر من عشرين كتاباً, ولكن القراء لا يعرفون له سوى كتابين "الفاشوش فى أحكام قراقوش" ، و "قوانين الدواوين".

"والفاشوش فى أحكام قراقوش" ينتمى إلى أدب الفكاهة والسخرية والهجاء ويمثل بحق أسلوباً فنياً بارعاً فى تصوير الغرابة والشذوذ وإحداث المفارقة. وهذا الكتاب الذى أضحك أجيالاً ولازال يضحكنا، كتبه صاحبه باللغة العامية المصرية، ووصل به إلى أعرض الجماهير حتى صار قراقوش فى المخيلة الجماعية للشعب مثالاً لكل حاكم أخرق ينحرف عن طريق العقل والمنطق فى سلوكه وتصرفاته.

أما الكتاب الآخر "قوانين الدواوين" فهو كتاب علمى صرف يتحدث فيه ابن مماتى عن مصر بصفة عامة ونهر النيل ومساحة الأرض وتحقيق أسماء ضياعها وكفورها وخلجانها، بالإضافة إلى تناوله الأراضى المختلفة، والفصول الزراعية، وأنظمة الرى، وأنواع المزروعات وأوقات غرسها وحصادها وغير ذلك من الأمور الهامة.

كذلك يتصدى الكاتب إلى كثير من المسائل الخاصة بأنظمة الحكم فى عصر بنى أيوب. مثال ذلك "الباب الثامن" الذى استعرض فيه المؤلف وظائف الدولة وشرح اختصاص كل منها، كما أنه أتى فى الأجزاء الأخيرة من الكتاب على شذرات كثيرة طريفة عن بعض الدواوينودور الحكومة و موارد الدولة. وأنا أنقل هذه المعلومات الآن من مقدمة الكتاب الذى حققه العلامة الكبير الراحل عزيز سوريال الذى يعلق على هذا بقوله:

"وقيمة الكتاب ليست مقصورة على سعة اطلاع المؤلف وغزارة علمه وحدة ذهنه، وإنما ترجع كذلك إلى مكانته الخاصة فى المجتمع المصرى ومركزه السامى فى حكومة البلاد، فابن مماتى ـ كما سيظهر من تاريخ حياته فيما بعد ـ تقلب فى كثير من دواوين الحكومة، وانتهى به الأمر إلى تقلد الوزارة نفسها، وبذلك أصبح كل ما يكتبه ذا صبغة تجعله وثيقة رسمية صدرت عن قلم أحد وزراء الدولة المسئولين.

كذلك يخبرنا الدكتور عزيز سوريال أن ابن مماتى اعتذر عن تقديم بعض المعلومات لأنه اعتبرها من أسرار الأمن القومى أو من أسرار الدولة التى لا يجوز إذاعتها ـ هذه الشخصية التى تجمع بين الخيال الأدبى الساخر والدقة العلمية المفرطة إلى جانب الحس الوطنى اليقظ كيف نراها؟

لقد تساءل المستشرق الفرنسى الكبير كازانوفا، الذى حقق كتاب الفاشوش، وعلق عليه قائلاً :

"فكيف نوفق بين صورة هذا المؤلف الذى يخوض فى كتابات الفكاهة ويكتب فيها كتاباً بالعامية، ثم يكتب كتاباً آخر بالفصحى عن الأرض ومساحة المدن ويعزف عن إباحة أسرار الدولة، فيرتفع إحساسه بالمسئولية إلى هذا الحد من التعقل؟" .

إن الصورتين تتكاملان لو علمنا أن ابن مماتى كان غاضباً حانقاً بلا شك على القائد قراقوش الذى يقربه صلاح الدين إليه. وهو حانق من وجهة نظر مذهبية كما يذهب كازانوفا، وهو حانق كذلك لأن أمور مصر ساءت على الرغم من الإنجازات التى حققها صلاح الدين فى الخارج من صفحات وضاءة فى الفتوحات وصد الصليبيين، ولكن هذه الصفحات كانت مصابة ببقع الحكم الاستبدادى فى الداخل وإطلاق الشهوة "القراقوشية" .

ولعل هذا الوضع يبرر من الحكام باسم المصلحة العامة (باستخدام أسلوب العصر) ولكنه لا يبرر من زاوية المحكومين دائماً. كما أننا نتصور أن حنق هذا الاقتصادى أو هذا المالى ابن مماتى على قراقوش هو حنق له ما يبرره لأن الاقتصادى ينظر للأمور نظرة مخالفة لنظرة القائد العسكرى، مما يثير الفرقة فى النظر دون شك.

ويتأكد التكامل فى شخصية المؤلف بصورة أوضح حين نقرأ تقديمه لكتاب "الفاشوش فى أحكام قراقوش" بقوله :

"إننى لمل رأيت عقل بهاء الدين قراقوش محزمة فاشوش، قد أتلف الأمة، والله يكشف عنهم كل غمة، لا يقتدى بعالم، ولا يعرف المظلوم من الظالم. الشكية عنده لمن سبق، ولا يهتدى لمن صدق. ولا يقدر أحد من عظم منزلته على أن يرد كلمته، ويشتط اشتياط الشيطان، ويحكم حكماً ما أنزل الله به من سلطان، صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين، عسى أن يريح منه المسلمين.

فغرضه من هذا الكتاب هو تحرير الشعب المصرى وتخليصه من تسلط قراقوش وقهره له.. لأنه سخر الشعب المصرى لبناء أمجاد صلاح الدين وتأكيد سلطانه, دون مراعاة لحقوق الفقراء ومشاعرهم، فإذا تفكرنا أيضاً أن كتاب "قوانين الدواوين" قدم لصلاح الدين أو أحد أبنائه من أجل تحرى الواقعية والعدل فى تقدير الجزية والضرائب على أفراد الشعب بجميع فئاته.. فإننا نكتشف البعد الآخر أو الدافع الرئيسى لابن مماتى، وهو مصلحة مصر والشعب المصرى عموماً. فإذا عرفنا أن صلاح الدين كان كردياً وأن قراقوش قائد جيشه كان من الصقالبة من مماليك القوقاز فى حين كان ابن مماتى مصرياً أباً عن جد.. لمحنا أثر الصراع بين المصريين والحكام الأجانب.. ولعل هذا ما جعل كازنزفا يقول :

"إن ابن مماتى كان يسعى إلى هز الثقة بقرلقوش، وهو قائد صلاح الدين الأيوبى ومن أقرب المقربين إليه، لأنه كان يعهد إليه بأمانة الأشراف على مصر نيابة عنه حين يضطر إلى السفر إلى سوريا للقاء الصليبيين" . فصلاح الدين لا ينيب عنه مصرياً مهما كان قدره أبداً، وقد كان ابن مماتى مثلاً رئيساً لديوان

الجيش وديوان المال فى ذلك الوقت، وهو أهم الدواوين فهذا يجعلنا نقبل ما يذهب إليه كازنوفا حين يقول:

"إن ابن مماتى أراد فى الحقيقة أن يسخط الشعب على الدولة الأيوبية الجديدة التى ورثت الحكم الفاطمى وخاصة أن الأيوبيين كانوا من السنة والفاطميين من الشيعة. ولذلك يمكن الظن بأن كتاب الفاشوش هو درب من دروب الدعاية السياسية، وحرب الدعاية بين المذاهب مثلما نشأت فى أيامنا هذه".

إذن فنحن بإزاء كاتب عملاق ومعاصر أيضاً وهو رائد فى أدب الفكاهة والسخرية ورائد فى دراسة نظم الحكم ومناضل وطنى شريف وضع نفسه فى مهب الأعاصير من أجل أهله ووطنه. وكان من نتيجة ذلك أن انتهت حياته نهاية مأساوية بفعل الاضطهاد والمطاردة التى دفعته إلى الهروب إلى ما وراء الحدود حيث قضى بقية أيامه بمدينة حلب حتى مات بعد عامين فى 606 هـ (1209م) وعمره اثنتان وستون عاماً .

هذا الكاتب العملاق لا نعرف له حقاً سوى كتابين.. رغم ما يذكره ياقوت من أسماء مؤلفاته التى تربو على العشرين . وهو شئ مؤسف أن يضيع تراث هذا الرجل بفعل الزمان أو نتيجة الإهمال، وقد حفزنى هذا الاهتمام بكتاباته والبحث عنها وتحقيقها حتى تكتمل صورتنا عنه بل وعن عصره ورجاله، ذلك العصر الذى يبدو واضحاً تماماً فى أذهان بعض الناس بينما هو غامض أشد الغموض عند من يتعمقون النظر فى قراءة التاريخ.

وقد قطعت والحمد لله شوطاً أساسياً فى التعرف على مصادر هذا الكاتب وترجماته، واستطعت أن أحدد أماكن بعض مخطوطاته، وحصلت على اثنين منها هما:

"لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة" الذى لخص فيه كتاب ابن بسام المسمى "الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة" وقمت بتحقيق هذا المخطوط - أما المخطوط الثانى فهو "متبلج الأنوار ومتأرج النوار" مما جمعه ابن مماتى من رسائل القاضى الفاضل. وقمت بقراءته ونسخه وتصحيحه وتحقيقه أيضاً - وأمامى شوط طويل للحصول على بقية المخطوطات الأخرى.. وخصوصاً أن له ديوان شعر قال ابن خلكان إنه اطلع عليه بخط ولده، كما أنه ألف "سيرة صلاح الدين شعراً ونظم كتاب "كليلة ودمنة" كما أن كتاب "قرقرة الدجاج فى لغة ابن الحجاج" يدل من عنوانه أنه فى أدب السخرية، وربما كان مثل كتاب الفاشوش، خصوصاً وأن الحجاج كان أحد كبار الموظفين فى دولة بنى أيوب.

والبحث عن الآثار ودراستها يعد مرحلة ضرورية فى دراسة أدبنا وفهم تاريخنا الأدبى فى عصر الدولة الأيوبية بل وفى العصور الوسطى عموماً.

وقد كانت نقطة البداية بالنسبة لى هى هذان الكتابان المطبوعان فقرأتهما قراءة متأنية، انتقلت بعدها إلى المراجع المذكورة فى هذه الكتب وغيرها وجمعت كل ما وقع تحت يدى منها بالعربية والإنجليزية والفرنسية والأسبانية. ولاحظت أن ما كتبه المستشرقون بلغاتهم يتجه إلى دراسة الكتب والمخطوطات. فى حين يختص أصحاب الموسوعات القديمة من أمثال ياقوت الرومى وابن خلكان

والمقيزى والأصبهانى والعينى وغيرهم حتى الأب لويس شيخو اليسوعى بترجمة حياة ابن مماتى. وياقوت هو عمدة هذه المصادر بغير شك، يأتى بعده فى الأهمية ثلاثة هم ابن خلكان والمقريزى والأصبهانى. ولا تهتم كتب التاريخ العربى والإسلامى الأخرى بهذا الكاتب فتكتفى بذكره فى بضعة سطور، وهو كلها تعتمد على ما قاله ياقوت وابن خلكان والأبهانى ولا يشذ عن هذه القاعدة إلا الأب لويس شيخو الذى خصص فصلاً هاماً للحديث عن ابن مماتى وشعره فى كتابه "شعراء النصرانية بعد الإسلام" بالإضافة إلى صفحتين كتبهما الدكتور عزيز سوريال عطيه عن ابن مماتى فى دائرة المعارف الإسلامية ثم أعاد نشرهما فى دائرة المعارف القبطية التى نشرتها جامعة يوتا الأمريكية.

والآن لم يبق أمامنا قبل الحديث عن مخطوط "لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة"إلا أن نستعرض أهم هذه الترجمات ولنبدأ من البداية:

يقول ياقوت المتوفى سنة 1229م تحت عنوان "أسعد بن المهذب ابن أبى مليح مماتى" ما نصه :

"أحد الرؤساء والأعيان الجلّة، والكتّأب الكبراء المنزلة، ومن تصرف فى الأعمال، وولى رياسة الديوان، وله أدب بارع، وخاطر وقاد مسارع، وقد صنّف فى الأدب وعرف، ومات بمدينة حلب فى ثمن عشرى جمادى الأولى سنة 606 على ما نذكره إن شاء الله تعالى. وأصله من نصارى أسيوط بُليدة بصعيد مصر، قدموا مصر وخدموا وتقدموا ووُلّو الولايات. وهو مع ذلك من أهل بيت فى الكتابة عريق، وهو كالمستولى على الديار المصرية ليس على يده يد، والمسمون بالخلافة محجوبون ليس لهم غير السكة والخطبة، وكان إلى مماتى كثير من أعماله، فحدثنى الصاحب الكبير الوزير الجليل جمال الدين الأكرم أو الحسن على بن يوسف الشيبانى القفطى حرس الله علاه بمدينة حلب، قال : بلغنى أن بعض تجار الهند قدم إلى مصر ومعه سمكة مصنوعة من عنبر قد تُتُوّق فيها وأجيد، وطيبت ورصعت بالجواهر، فعرضها على بدر الجمالى ليبيعها منه، فسامها من صاحبها فقال : لا أنقصها من ألف دينار شيئاً . فأعيدت إليه، فخرج بها من دار بدر، فقال له أو المليح أرنى هذه السمكة. فأراه إياها، فقال له : كم سمت فيها؟ فقال : لا أنقصها من ألف دينار درهماً واحداً . فأخذ بيده وقبض ألف دينار من ماله وتركها عنده مدة، فاتفق أن شرب أبو مليح يوماً وسكر، وقال لندمائه: قد اشتهيت سمكاً، هاتم المقلى والنار حتى نقليه بحضرتنا. فجاءه بمقلى حديد وفحم وتركوه على النار وجاء بتلك السمكة العنبر فتركها فى المقلى، فجعلت تتقلى وتفوح روائحها حتى لم يبق بمصر دار إلا ودخلتها تلك الرائحة. وكان بدر الجمالى جالساً، فشم تلك الرائحة، وتزايدت فاستدعى الخزان وأمرهم بفتح خزائنه وتفتيشها خوفاً من حريق قد يكون وقع فيها، فوجدوا خزائنه سالمة، فقال : ويحكم! انظروا ما هذا. ففتشوا حتى وقعوا على حقيقة الخبر فاستعظم، وقال: هذا النصرانى الفاعل الصانع قد أكل أموالى واستبد بالدنيا دونى حتى أمكنه أن يفعل مثل هذا. وتركه إلى الغداة، فلما دخل إليه وهو مغضب، قال له: ويحك! أستعظم أنا ـ وأنا ملك مصر ـ شرى سمكة من العنبر فأتركها استكثاراً لثمنها، فتشتريها أنت ثم لا يقنعك حتى تقليها وتذهب

فى ساعة ألف دينار مصرية؟ ما فعلت هذا إلا وقد نقلت بيت أموالى إليك وفعلت. فقال له: والله ما فعلت هذا إلا غيرة عليك ومحبة لك، فإنك اليوم سلطان نصف الدنيا، وهذه السمكة لا يشتريها إلا ملك، فخفت أن يذهب بها إلى بعض الملوك ويخبره بأنك استعظمتها ولم تشترها فأردت أن أعكس الأمر وأعلمه أنك ما تركتها إلا احتقاراً لها وأنها لم يكن لها عندك مقدار، وأن كاتباً نصرانياً من كتّابك اشتراها وأحرقها، فيشيع بذلك ذكرك، ويعظم عند الملوك قدرك. فاستحسن بدر ذلك منه وأمر بضعفى ثمنها وزاد رزقه. وكان مماتى مع ذلك كريماً قد مدحه الشعراء، فذكر أبو الصلت فى كتاب الرسالة المصرية له أن أبا طاهر إسماعيل بن محمد النشاع المعروف بابن مكنسة كان منقطعاً إليه، فلما مات مماتى رثاه ابن مكنسة بقصيدة منها :

ماذا أرجى من حياتى بعد موت أبى المليح
ما كان بالنكس الدنى من الرجال ولا الشحيح
كفر النصارى بعدما غدروا به دين المسيح

كذا قال، ولعلهم اغتالوه أو قتلوه. ولما ولى الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى بعد أبيه دخل ابن مكنسة مادحاً، فقال له : ذهب رجاؤك بموت أبى المليح، فما الذى جاء بك إلينا؟ وحرمه ولم يقبل مديحه وأما المهذب والده، وكان يلقب بالخطير، فإنه كان كاتب ديوان الجيش بمصر فى أواخر أيام الفطميين، وأوائل بنى أيوب مدة، فقصده الكتاب وجعلوا له حديثاً عند السلطان، فهم به صلاح الدين يوسف بن أيوب، أن أسد الدين شيركوه، وهو يومئذ المستولى على الديار المصرية، فخاف المهذب فجمع أولاده، ودخل على السلطان وأسلموا على يديه، فقبلهم وأحسن إليهم وزاد فى ولاياتهم وجب الإسلام ما قبله، ووجدت على ظهر كتاب من تصانيف ابن مماتى مكتوباً : كان المهذب أبوه المعروف بالخطير مرتباً على ديوان الإقطاعات وهو على دين النصرانية، فلما علم أسد الدين شيركوه فى بدء أمره بمصر لأنه نصرانى وأنه يتصرف فى (عمله!) بلا غيار نهاره، وأمر بغيار النصارى ورفع الذوابة وشد الزنار وصرفه عن الديوان، فبادر هو وأولاده فأسلموا على يده، فأقره على ديوانه مدة ثم صرفه عنه، فقال فيه ابن الذروى:

لم يسلم الشيخ الخطير لرغبة فى دين أحمد
بل ظن أن مِحالَهُ يُبقى له الديوانَ سرمدْ
والآن قد صرفوه عنه فدينه فالعود أحمدا

قال ووجدت بخط ابن مماتى :

صح التمثل فى قديم الدهر أنَّ العود أحمدْ

ولما أمر شيركوه النصارى بلبس الغيار، وأن يعمموا بغير عذبة، قال عمارة اليمنى :

يا أسد لدين، ومن عدله يحفظ فينا سنّة المصطفى
كفى غياراً شد أوساطنا فما الذى يوجب كشف القفا؟

وجرى معه حديث النحويين وأن أحدهم ينفد عمره فيه ولا يتجاوزه إلى شئ

من الأدب الذى - يراد النحو لأجله - من البلاغة وقول الشعر ومعرفة الأخبار والآثار وتصحيح اللغة وضبط الأحاديث، فقال الأسعد : هؤلاء مثلهم مثل الذى يعمل الموازين وليس عنده ما يزن فيه فيأخذها غيرهم (غيره!)، فيزن الدر النفيس والجوهر الفاخر والدنانير الحمر والجواهر البيض، وهذا عندى من حسن التمثيل.

ومن عجيب ما جرى للخطير أنه كان يوماً جالساً فى ديوانه فى حجرة موسومة بديوان الجيش من قصر السلطان بمصر، وكانت حجرة حسنة مرخمة منمقة، فجاءه قوم وقالوا له : قم من ها هنا. فقال لهم : ما الخبر؟ فقالوا: قد تقدم الملك العادلى أبو بكر بن أيوب بأخذ رخام هذه الحجرة وأن يعمر به موضعاً أخر، فخرج منكسفاً كاسفاً، فقيل له فى ذلك فقال: قد استجيبت فينا دعوة، وما أظننى أجلس فى ديوان بعدها. أما سمعتمم إذا بالغوا فى الدعاء علينا قالوا خرب الله ديوانه؟ وما بعد الخراب إلا اليباب. ثم دخل منزله أو حم فلم يخرج منه إلا ميتاً، فلما مات خلفه ابنه الأسعد هذا ديوان الجيش وتصدر فيه مدة طويلة، ثم أضيف إليه فى الأيام الصلاحية والعزيزية ديوان المال، وهو أجل ديوان من دواوين مصر، وتصدر فيه واختص بصحبة القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى ونفق عليه, وحظى عنده، وكرم لديه، فقام بأمره، وأشاع من ذكره، ونبه على فضله، وصنف له عدة تصانيف لاسمه. ولم يزل على ذلك : إلى أن ملك الملك العادل أبو بكر بن أيوب الديار المصرية، وكان وزيره والمدبر لدولته الصفى عبد الله بن على بن شكر، وكان بينه وبين الأسعد ذحل قديم أيام رياسته عليه، ووقعت من الأسعد إهانة فى حق ابن شكر فحقدها عليه إلى أن تمكن منه. فلما ورد مصر أحضر الأسعد إليه، وأقبل بكليته عليه، وفوض إليه جميع الدواوين التى كانت باسمه قديماً، وبقى على ذلك سنة كاملة، ثم عمل له المؤامرات، ووضع عليه المحالات، وأكثر فيه التأويلات، ولم يلتفت إلى أعذاره، ولا أعاره طرفاً لاعتذاره، فنكبه نكبة قبيحة، ووجه عليه أموالاً كثيرة، وطالبه بها فلم يكن له وجه لأنه كان عفيفاً ذا مروءة،فأحال عليه الأجناد فقصدوه وطالبوه وأكثروا عليه وآذوه واشتكوا إلى ابن شكر فحكمهم فيه، فحدثنى المؤيد إبراهيم بن يوسف الشيبانى قال : سمعت الأسعد يقول: علقت فى المطالبة على باب دارى بمصر على ظهر الطريق فى يوم واحد إحدى عشر مرة، فلما رأوا أننى لا وجه لى تحيل ونجم هذا المال عليك فى نجوم، فقلت أما المال فلا مجه له عندى، ولكن إن أطلقت وملكت نفسى استجديت من الناس وسألت من يخافنى ويرجونى، فلعلى أحصل من هذا الوجه، فأما من وجه حاصل فليس لى بعدما أخذتموه منى درهم واحد. فنجم المال على وأطلقت وبقيت مديدة إلى أن حل بعض نجوم المال على فاختفيت واستترت وقصدت القرافة وأخفيت نفسى فى مقبرة الماذرائيين وأقمت بها مدة عام كامل، وضاق الأمر علىّ فهربت قاصداً الشام على اجتهاد من الأستاذ، فلحقنى فى بعض الطريق فارس مجد فسّلم علىّ وسلّلم إلى مكتوب وإذ هو من الصفى بن شكر يذكر فيه : لا تحسب أن اختفاءك عنى كان بحيث لا أدرى أين أنت ولا أين مكانك، فاعلم أن أخبارك كانت تأتينى يوماً يوماً وأنك كنت فى قبور الماذرائيين بالقرافة منذ يوم كذا وأننى اجتزت هناك فرأيتك بعينى، وأنك لما خرجت هارباً عرفت خبرك ولو أردت ردك لفعلت،

ولو علمت أنك قد بقى لك مال أ, حال لما تركتك ولم يكن ذنبك عندى مما يبلغ أن أتلف معه نفسك وإنما كان مقصودى أن أدعك تعيش خائفاً فقيراً غريباً ممججاً فى البلاد، فلا تظن أنك هربت منى بمكيدة صّحت لك علىّ، فذهب إلى غير دعة الله، قال : وتركنى القاصد وعاد فبقيت مبهوتاً إلى أن وصلت إلى حلب، فحدثنى الصاحب جمال الدين الأكرم أدام الله علوه لما ورد إلى حلب نزل فى دارى فأقام عندى مدة وذلك فى سنة 904، وعرف الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين بن أيوب رحمه الله خبره فأكرمه وأجرى عليه فى كل يوم ديناراً صورياً وثلاثة دنانر أخرى أجرة دار، فكان يصل إليه فى كل ثلاثة أشهر ثلاثون ديناراً (كذا) غير بر وألطاف ما كان يخليه منها، وأقام عنده على قدم العطلة إلى سنة 606 كما ذكرنا، ومات فدفن بظاهر حلب بمقام بقرب قبر أبى بكر الهروى، وله تصانيف كثيرة يقصد بها قصد التأديب، وفى معرض وقائع تجرى ويعرضها على الأكابر لم تكن مفيدة إفادة علمية، إنما كانت شبيهة بتصانيف الثعالبى وأضرابه، فمن ذلك : كتاب تلقين التفنن فى الفقه، كتاب سر الشعر، كتاب علم النثر، كتاب الشئ بالشئ يذكر وعرضه على القاضى فسماه سلاسل الذهب لأخذ بعضه بشعب بعض، كتاب تهذيب الأفعال لابن ظريف، كتاب قرقرة الدجاج فى ألفاظ ابن الحجاج، كتاب الفاشوش فى أحكام قراقوش، كتاب لطائف الذخيرة لابن بسام، كتاب ملاذ الأفكار وملاذ الاعتبار، كتاب سيرة صلاح الدين يوسف بن أيوب، كتاب أخاير الذخاير، كتاب كرم النجار فى حفظ الجار عمله للملك الظاهر لما قدم عليه، كتاب ترجمان الجمان، كتاب مذاهب المواهب، كتاب باعث الجلد عند حادث الولد، كتاب الحض على الرضى بالحظ، كتاب زواهر السدف وجواهر الصدف، كتاب قرص العتاب، كتاب درة التاج، كتاب ميسور النقد، كتاب المنحل، كتاب أعلام النصر، كتاب خصائص المعرفة فى المعميات. وكان علم الدين ابن الحجاج شريكه فى ديوان الجيش، وكان بينهما ما يكون بين المتماثلين فى العمل، فعمل فيه الكتاب المتقدم ذكره وهجاه بعدة أشعار.

هذه أقدم سيرة نعرفها لابن مماتى، كتبها ياقوت فى الفترة الأولى من القرن الثالث عشر الميلادى، إذ توفى سنة 1229م أى أنه كان معاصراً لابن مماتى المتوفى سنة 1209م . ويلاحظ الدكتور عزيز سوريال أن ياقوت لم يعتمد فقط على رواية الرواة من أهل العلم وإنما اطلع أيضاً على شئ مما كتبه ابن مماتى بخطه، ولذلك يجوز لنا أن نعتبرها وبلا تردد وثيقة من أهم الوثائق عن مؤلف كتاب "قوانين الدواوين"، وهى وإن كانت فى ذاتها واضحة لا تحتاج إلى إفاضة أو تفسير، إلا أنه يدهشنا فيها سقوط الكتاب المذكور من بين محتويات القائمة التى جمع فيها ياقوت عدداً كبيراً من مؤلفات ابن مماتى ، كما يحظ أيضاً أن كاتب هذه السيرة اهتم بالناحية الأدبية من حياة ابن مماتى أكثر من بقية النواحى الأخرى التى أجملها إجمالاً . يتلو ذلك فى الترتيب الزمنى ما ذكره ابن خلكان المتوفى 1282م فى كتابه المشهور "وفيات الأعيان" حيث يقول:

"القاضى الأسسعد أبو المكارم أسعد بن الخطير أبى سعيد مهذب بن مينا ابن زكريا أبى قدامة بن أبى مليح مماتى المصرى الكاتب الشاعر، كان ناظر الدواوين بالديار المصرية،وفيه فضائل، وله مصصنفات عديدة، ونظم سيرة

السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى، ونظم كتاب كليلة ودمنة، وله ديوان شعر رأيته بخط ولده ونقلت عنه مقاطيع، فمن ذلك قوله:

تعاتبنى وتنهى عن أمور سبيل الناس أن ينهوك عنها
أتقدر أن تكون كمثل عينى وحقّك ما علىَّ أضر منها

" وكان الأسعد المذكور قد خاف على نفسه من الوزير صفى الدين ابن شكر، فهرب من مصر مستخفياً وقصد مدينة حلب لائذاً بجناب السلطان الملك الظاهر رحمه الله تعالى، وأقام بها حتى توفى فى سلخ جمادى الأولى سنة ست وستمائة يوم الأحد وعمره اثنتان وستون رحمه الله تعالى، ودفن فى المقبرة المعروفة بالمقام على جانب الطريق بالقرب من مشهد الشيخ الهروى، وتوفى أبوه الخطير فى يوم الأربعاء سادس شهر رمضان من سنة سبع وسبعين وخمسس مائة.

"ومينا بكسر الميم وسكون الياء المثناه من تحتها وفتح النون وبعدها ألف، ومماتى بفتح الميمين والثانية منهما مشدَّدة وبعد الألف تاء مثناه من فـقها وهى مكسورة وبعدها ياء مثناه من تحتها، وهو لقب أبى مليح المذكور، وكان نصرانياً، وإنما قيل له مماتى لأنه وقع فى مصر غلاء عظيمن وكان كثير الصدقة والإطعام وخصوصاً لصغار المسلمين فكانوا إذا رأوه نادى كل واحد منهم مماتى فاشتهر به، هكذا أخبرنى الشيخ الحافظ زكى الدين أبو محمد عبد العظيم المنذرى نفع الله به، ثم أنشدنى عفيب هذا القول مرثية فيه، وقال أظن هذين البيتين لأبى طاهر بن مكنسة المغربى وهما:

طويت سماء المكرمات وكورت شمس المديح
ماذا أؤمَّل أو أرجى بعد موت أبى المليح

ثم كشفت عنهما فوجدتهما له، وله مدائح أيضاً .

قال المقريزى فى خططه:

"وأما سعد ابن مماتى فإنه (أسعد) بن مهذب بن زكرييييييا بن نينا(مينا) شرف الدين مماتى أبى المكارم بن سعيد بن أبى مليح الكاتب المصرى، أصصله من نصارى أسيوط من صعيد مصر، واتصل جدة أبو المليح بأمير الجيوش بدر الجمالى وزير مصر فى أيام الخليفة المستنصر بالله، وكتب ديوان مصر، وولى استيفاء الديوان، وكان جواداً ممدوحاً انقطع إليه أبو الطاهر إسماعيل بن محممد المعروف بابن مكيسة(مكنسه!) الشاعر فمن قوله فيه لما مات:

طويت سماء المكرمات وكورت شمس المديح
وتناثرت شهب العلا من بعد موت أبى المليح
ما كان بالنكس الدنئ من الرجال ولا الشحيح
كفر النصارى بعدما غدروا به دون المسيح

ورثاه جماعة من الشعراء، ولما مات ولى ابنه المهذب بن أبى المليح زكريا دييوان الجيش بمصر فى آخر الدولة الفاطمية، فلما قدم الأمير أسد الدين شيركوه وتقلد وزارة الخليفة العاضد وشدد على النصارى وأمرهم بشد الزنانير على أوساطهم ومنعهم من إرخاء الذؤابة التى تسمى اليوم بالعذبة فكتب لأسد الدين :

يا أسد الدين ومن عدله يحفظ فينا سنة المصطفى
كفى غياراً شدّ أوسساطنا فما الذى أوجب كشف القفا

فلم يسعفه بطلبه، ولا مكنه من إرخاء الذؤابة، وعندما أيس من ذلك أسلم فقدم على الدواوين حتى مات، فخلفه ابنه أبو المكارم أسعد ابن مهذب الملقب بالخطير على ديوان الجيش، واستمر ففى ذلك مدة أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وأيام ابنه الملك العزيز عثمان، وولى نظر الدواوين أيضاً، واختص بالقاضى الفاضل، ةحظى عنده، وكان يسميه بلبل المجلس لما يرى من حسن خطابه وله مصنفات عديدة".

ثم ذكر المقريزى أسماءها جمييييعاً وأضضاف إليها كتاب "قوانين الدواوين" الذى لم يذكره أحد غيره".

وقد علق الدكتور عزيز سوريال على ما جاء فى كتب المؤرخين بملاحظات عدة نذكر منها:

أن مؤلف كتاب "قوانين الدواوين" لم يكن أول شخص عظم شأنه فى دواوين الحكومة من بين أفراد أسرته، إذ نجد أن جدة أبا المليح الذى عاش بمصر فى العصر الفاطمى عمل فى خدمة الوزير بدر الجمالى والخليفة المستنصر بالله حتى بلغ فى سلم الترقى إلى وظيفة "مستوفى الديوان" وهى من الوظائف الرئيسية فى الدولة الفاطمية، وبعد موته تولى ابنه واسمه المهذب بن أبى المليح رئاسة "ديوان الجيش" والدولة الفاطمية تحتضر فى وزارة أسد الدين شيركوه السنى النهذب، وففى عهده أسلم هو وأولاده لكى يفلت من التضييق الذى وققع على النصارى وقتئذ، ويحتفظ بمكانته السامية فى دواوين الحكومة، وأما ابنه وهو حفيد أبى المليح واسمه الأسعد فقد قضى الجزء الأول من حياته فى عصر الانتقال من الفاطميين للأيوبيين، وورث فى بداية الأمر عن أبيه وجده "ديوان الجيش" الذى احتفظ به فى عهد صلاح الدين الأيوبى (564 - 589 هـ / 1169 - 1193 م) وفى سلطنة ابنه العزيز عماد الدين عثمان (589 - 595 هـ / 1193 - 1198 م)، ويظهر مما ورد فى رواية ياقوت الرومى أنه أضيف إليه أيضاً "ديوان المال" الذى يعتبر فى كل العصور أهم الدواوين والوزارات، ويلوح أنه ظل محتفظاً بوزارته ودواوينه أيضاً خلال سلطنة المنصور محمد (595 - 596 هـ/ 1198 - 1199م) وشطر من سلطنة العادل سيف الدين أبى بكر (596 - 615 هـ / 1199 - 1218م) ، ولكن كثرت عليه المؤامرات فى عهد هذا الأخير وأودت بمركزه وماله، وأدت إلى هروبه فقيراً ذليلاً إلى ما وراء الحدود المصرية فى الشام حيث قضى بقية أيامه بمدينة حلب ومات بها فى جمادى الأولى عام 606 هـ (نوفمبر 1209م) وعمره إذ ذاك اثنتان وستون عاماً.

ثانياً : يلاحظ أن الوزارة لم تشغل الأسعد عن الأدب والتأليف، ونظرة واحدة فى أسماء الكتب التى صنفها والتى ذكر أكبر عدد منها ياقوت الرومى تكفى لإيضاح هذه الحقيقة، ولكن الغريب فى ذلك هو أنه لم يتحححدث عن "كتاب ققوانين الدواوين" من بين قدماء المؤرخين هو الوحيد الذى اهتم بمثل ما ورد فى ذلك الكتاب من المحتويات، بينما اقتصر الآخرون على الناحية الأدبية البحته من تآليفه،

ورواية المقريزى فى هذا الصدد عظيمة الشأن، ويفهم منها أن ابن مماتى ألف الكتاب للملك العزيز، ثم يزيد على ذلك أن الكتاب المتداول فى أيدينا إنما هو نسخة مختصرة من الكتاب الأصلى الذى كان يقع فى أربعة مجلدات ضخمة".

فإذا صحت نظرية المقريزيى، وضح لنا السبب فى الاختلافات الكبيرة بين مجموعة المخطوطات الصغرى التى اعتمد عليها ناشر نسخة مطبعة الوطن والمجموعة الكبرى التى اعتمدنا عليها فيما ننشره اليوم فى المجلد الحاضر، وبالرغم من أن "كتاب قوانين الدواوين" الذى يظهر فى هذه الصفحات من أروع الوثائق التاريخية فى عصر الدولة الأيوبية، فإنه لا يسعنا إلا إبداء أسفنا الشديد على ضياع الأصل المطول ذى المجلدات الأربعة والتى لم نعثر عليها فى أى مكان توجد فيه مخطوطات عربية فى أوربا من لندن وباريس إلى استانبول والقاهرة وغيرها من العواصم

كان الدكتور / عزيز سوريال مهتماً أساساً بالناحية العلمية والفكرية لكتاب "قوانين الدواوين" أما نحن فاهتمامنا الأول هو الجوانب الأدبية كما تبدو فى كتبه وأولها "لطائف الذخيرة وطراف الجزيرة" الذى نتناوله الآن.

5- عصر الاقطاع . . .

والعقلية الاقطاعية

يطلق الكتاب والمؤرخون منذ القرن الثامن عشر هذا المصطلح على ذلك النظام الإجتماعى والعسكرى الذى ساد أوروبا بين القرن التاسع الميلادى والقرن السادس عشر . وكذلك لوصف النظم الأخرى التى كانت تحمل نفس السمات الإقطاعية فى بلاد الشرق " ولا يغيب عن بالنا أن الإقطاع فى العصور الوسطى كان ظاهرة عالمية وضحت فى الغرب اللاتينى , وفى بيزنطة وفى العالم الإسلامى و أيضا فى اليابان "

وبالرغم من وجود اختلافات عديدة فى شكل الإقطاع من بلد الى بلد إلا أن أشكال الإقطاع تتفق جميعا فى اعتمادها على نظام اجتماعى طبقى يقوم على اساس : حيازة الأرض

* ولاية اوسيطرة ملاك الأرض على المستأجرين والمزارعين والتحكم فيهم

* منح قطع من الأرض لبعض الأشخاص مقابل خدمات معينة وبالأخص الخدمة العسكريه لحماية الإقطاعى او الملك واهب الأرض.

Feudal: وتستعمل الصفة إقطاعى

1) لوصف أى نظام اجتماعى يمكن فيه لمالك الأرض أن يفرض جباية أو يأخذ إيراداً من مستأجرى الأرض أو زارعيها فى منطقة نفوذه كما يمكنه ممارسة سلطة الحكم عليهم .

2) كذلك تستعمل لإدانة أى مجتمع أو فئة إجتماعية تعمل على الاستحواز على المواقع المتميزة إقتصادياً وإجتماعياَ وسياسياَ بدرجة كبيرة تخل بمبدأ المساواة والعدالة الإجتماعية بين أبناء الوطن الواحد . وقد استخدم المؤرخون عبارة الإقطاع الصناعى (Industrial Feudalism) بهذا المعني الأخير لوصف النشاط الإقتصادى فى أميركا فى القرن التاسع عشر

منذ أن أعلنت ثورة يوليو العربية التحررية فى مصر عن عزمها على تصفية الإقطاع ورأس المال وإنهاء سيطرتهما على الحكم أصبحت لفظة الإقطاع مرادفاً للجشع وللظلم والتخلف والتمييز الطبقى، وليس أدل على ذلك مما نشرته جريدة الوطن " الكويتية " (1984/3/29) تحت عنوان " العقلية الإقطاعية " تقود العمل النسائى الحالى وتقول: " من يتصدرن هذا العمل يطرحن قضية عادلة ولكن بأسلوب يجافى المنطق إذ تطرح المسألة وكأنها نساء ضد رجال " ومن ثم كان " لابد من مشاركة الدماء الجديدة فى الجمعيات النسائية التى باتت تسيطر عليها شخوص تحولت إلى أحد نماذج الإقطاع والطبقية التى يتكرس من خلالها التمييز بين نساء الكويت.

الإقطاع إذن ليس ظاهرة تاريخية انتهت دون أن تخلف أثراً وإنما هى قيم فكرية وسلوكية لازالت تعوق مسيرتنا نحو التحرر والعدالة والمساواة ؟ وهذه القيم تتصف بمجافاتها للمنطق والعصر وتتجه نحو تكريس الفوارق الطبقية والتمييز بين الناس على أساس الجنس أو اللون أو الدين.

ومع ذلك , فإن الأمر لازال يغرينا بمعرفة المزيد عن الحياة فى ظل الإقطاع فى العصور الوسطى أو العصور المظلمة كما يسميها البعض حتى نتعرف على الظروف الموضوعية التى اسهمت فى تشكيل ظاهرة الإقطاع وبالتالى توقع ما يعنيه المفكرون بعبارة " العقلية الإقطاعية "

الفرسان والأقنان فى مجتمع الإقطاع :

ومرجعنا فى هذه النقطة بحث على درجة كبيرة من الأهمية، نشرته مكتبة قورينة فى ليبيا منذ عدة سنوات بعنوان " الفرسان والأقنان فى مجتمع الإقطاع " للدكتور اسحق عبيد استاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة عين شمس, حيث نجد محاولة جادة ودقيقة لدراسة ظاهرة الإقطاع وتحديد مدلول هذه اللفظة. وقد نشر المؤلف الطبعة الثانية التى نتكلم عنها سنة 1975 أثناء عمله بجامعة قار يونس فى بنغازى بليبيا .

والباحث يقرر من البداية " ان محاولة تقديم تعريف قاطع للإقطاع هى محاوله ساذجة وخاطئة فى النهاية " وذلك لتشابك الظاهرة واحتوائها على عناصر متداخلة، وهو يرجع نشأة الإقطاع الى أواخر القرن الخامس حين تحطمت الحكومة المركزية بعد سقوط روما فى أيدى الجرمان (476) م وما تبع ذلك من إنهيار فى دواليب الإدارة أدى الى عجز الدولة عن

الاضطلاع بواجباتها ، فالتقط بعض الأفراد الأقوياء هذه الصلاحيات واضطلعوا بها تلقائياً بدلاً من الحكومة .

ومن الطريف أن نجد كاتبا مثل جيمس وستفول طومسون يشبه نظام الإقطاع بالحالة التى سادت شيكاغو فى عشرينات القرن العشرين ، حين ظهرت بعض العصابات مثل "آل كابونى " وصار لكل منها دستور فى الإجرام والسطو تحت زعامة واحد من العتاه يمتثل الجميع لأمره نظير أمر محدد من المكافأة .

والدكتور اسحق عبيد يرفض هذا التبسيط ويرى ان البحث فى نظام الإقطاع يتطلب معالجة ثلاث قضايا :

-1-تغيير وضع الأرض 2- تغيير وضع الأفراد 3- ظهور الإمتيازات

ورغم أن البحث لا ينكر ورود الإقطاع من منابع جرمانية مع قبائل القوط وأمثالهم , إلا أن الجذور العميقة كانت كامنة ايضاً فى ثنايا الدولة الرومانية .ان تغيير وضع الأفراد تبعا لتغير وضع الأرض(Tenurial) dependence يرجع الى القرن الثالث الميلادى , حين ازدادت وطأة الضرائب على كاهل الفلاحين ، فلجأوا الى "رهن " اراضيهم للسادة الأغنياء مقابل قرض معين ,وحين عجز الفلاح عن دفع ديونه ضاعت عليه الأرض وأصبح مجرد مزارع فى ارض كان يملكها فى السابق.وعندما نقص العبيد فى الامبراطورية الرومانية ، اضطر السادة لزراعة الأرض بمشاركة الفلاحين مقابل جزء من المحصول . وفى اغلب الأحيان لجأ السادة الى هؤلاء العمال الزراعيين (Serfs) أو عبيد الأرض (Villeins) من أماكن نائية , وكانت مهمتهم "تعمير الأرض المهجورة وزراعتها "، ومن هنا ولدت لفظة (Coloni) أى معمرى الأرض التى هى النواة الأولى للقنية (Serfdom) أى عبودية الأرض . ولما أصدر الامبراطور دقلديانوس (قرن 3 م) قانونه بتثبيت العاملين كل فى مكانه ، وضماناً للحصول على الضريبة لخزانة الدولة ، ارتبط الفلاح بالأرض لا يبرحها ومن هذا النظام نشأت "كفور" أو "قرى " أو " محلات " السيادة (Manors) أى الضياع جمع ضيعة إقطاعية .

أما عن وضع الأفراد بالنسبة لعلاقتهم بأفراد آخرين (Personal Dependence) فهذا تغير وقع فى أواخر عهد الامبراطورية . فقد عرف

الرومـــان منـــذ العصـــر الجمهـــورى نظـــام "الحمايـــة" أو "الولايـــة " (Patronage) فقـد كـان مـن حـق الأعيـان الرومـان أن يفرضـوا حمـايتهم علـى أفـراد أقـل مـنهم درجـة ، ويصـبح الفـرد الـذى تبسـط عليه"الحمايـة"وليا (Cliens) لهـذا السـيد أو ذلـك النبيـل , وهـذا الحـامى "Patron" كـان يقـوم بالنيابـة عـن أتباعـة أمـام المحـاكم ويرعـى بعـض مصـالحهم مقابـل قيـام هـؤلاء بخـدمات معينـة لـه أثنـاء غيابـه . ومـع مـرور الـزمن تمكـن بعـض كبـار السـادة مـن الرومـان مـن فـرض حمـايتهم علـى ولايـات بأكملهـا . وحـين دبـت الفوضـى فـى أرجـاء الامبراطوريـة ، عمـد السـادة الـى تحويـل هـؤلاء الأتبـاع الـى حـرس خاص لهم .

الفصل (Vassal) :

"لمـا اشـتدت وطـأة الغـزوات المتبربـرة لجـأ كثيـر مـن السـادة الـى إقطـاع رقـع مـن الأرض لأفـراد اشـتهروا بالبـأس فـى القتـال علـى أن يشـترك هـؤلاء الأفـراد مـع اولئـك السـادة فـى وقـت الحـروب ، وتلقـى المحـارب الأرض ومـن عليهـا مـن أقنـان - وفـق عقـد إقطـاعى - أصـبح يعـرف فـى وثـائق العصـر بإسـم "الفصـل " (Vassalus) . كـذلك ابتـدع الملـوك الميروفنجيـون فـى غالـة (فرنسـا الآن) نظامـا اقطعـوا بمـؤداه بعـض الأراضـى للكنـائس والأديـرة، مشـفوعة " بحصـانات " ضـد تـدخل مـوظفى التـاج وجـامعى الضـرائب . وعلـى مـر السـنين امتـدت هـذه الحصـانات فشـملت بعـض المرمـوقين مـن العلمـانيين أيضـاً ولمـا أن ضـعفت السـلطة الملكيـة ، اغتصـب بعـض الأقويـاء هـذه الحصانات بقوة السيف .

فالفصـل ينتمـى الـى طبقـة النـبلاء التـى منهـا سـيده، أمـا القـن (Serf) رقيـق الأرض فهـو منفصـل تمامـاًعن طبقـة السـادة والأفصـال ، بفعـل هـوة سـحيقة فرضـتها عليـه الـنظم الاجتماعيـة والاقتصـادية التـى كانـت سـائدة فـى عصـر الإقطـاع ، كمـا أن الفصـل كـان فـى نفـس الوقـت سـيداً لـه الأرض ومـن عليها من أقنان .

السيد والفصل :

عنـدما قامـت الملكيـات الإقطاعيـة فـى غـرب أوروبـا، أصـبح حامـل التـاج سيدا للجميـع فـى ممكلتـه. فهـو يتربـع علـى قمـة الهـرم الإقطـاعى ويتلقـى التـاج بالوراثـة، ولكنـه قبـل تتويجـه ملكـاً كـان يلقـب بالسـيد (Dominus) شـأن أى سـيد إقطـاعى آخـر، غيـر أن حفـل التتـويج ومسـح الملـك بالزيـت المقـدس كـان

يجعل منه "ملكاً بإرادة الله " كما يزعمون وهذا الطقس يخلع على الملك مسوحاً دينية تضاف الى صلاحياته الدنيوية. وفى ذلك العصر كان الملك يملك ويحكم أيضاً. ولم يكن للملك الإقطاعى عاصمة ثابتة ولا مركز للحكم، وانما هو وحاشيته يتنقلون دوماً من قلعة الى أخرى وتتحرك مع الموكب الوثائق الملكية والخزانة أيضاً.

وفى أول الأمر لم يكن الملك الإقطاعى أكثر من أنه "الأول بين أقرانه " من السادة الإقطاعيين الآخرين الذين يحملون لقب كونت أو دواق (Comes& Dux) ولذا فإنه كان يتحتم عليه أن يحصل على تأييدهم له فى سياسته الخارجية والداخلية. وكان هذا يتم داخل " مجلس الملك " (Curia Regis) المؤلف من النبلاء وجميع بارونات الملك أى أفصال التاج ، وهو مجلس إقطاعى النشأة يضم كبار الافصال من البارونات وكبار رجال الدين من الأساقفة، وهم أنداد البارونات فى السلم الإجتماعى الى جانب كبار موظفى التاج وهم المستشار الملكى ورئيس الخزانة وكبير الأمناء.

وكان مجتمع الملكيات هذا مجتمع حرب، وهو وإن لم يكن يمارسها كل يوم فإنه كان يستعد لها فى كل ساعة. وكان البارونات يحصلون على إقطاعياتهم الكبرى من التاج مقابل الخدمة العسكرية بأنفسهم وبفرسانهم .

وكانت أوثق العلاقات فى المجتمع الإقطاعى تقوم على صلات الدم, وقد عرفت فى فرنسا بإسم "النسب" (Lineage) وأحياناً بإسم "الأصدقاء " (amis) ويصل الولاء فى المجتمع الإقطاعى الى ذروته إذا إلتحمت بصلة الدم وشائج يمين الطاعة. وامام المحاكم كان القريب بصلة الدم هو خير معين وشفيع فى مساعدة المدعى عليه. وفى مثل هذا المجتمع تنمو بطبيعة الحال مشاعر الإنتقام وطلب الثأر (Vendetta) .

بالإضافه الى قرابة الدم تولدت علاقات أخرى لاتقل عنها أهمية هى علاقة التبعية وقد عبر العصر عن هذه العلاقة بعبارة "فلان من الناس هو رجل السيد فلان " (Homo) فالكونت هو (رجل الملك) والفارس بدوره هو " رجل الكونت " وفى مجتمع الإقطاع لم يكن الزواج يتم بإختيار الفرد، وإنما كان دوما من حق ولى الأمر الذى كان يبحث عن صفقة رابحة لابنه او لابنته .

أرستقراطية القلاع :

انــدثرت ارســتقراطية شــيوخ الرومــان القبليــة عنــد تأســيس الممالــك الجرمانيــة علــى حطــام الامبراطوريــة، وأصــبحت علامــات الرفعــة والســيادة فــى المجتمــع الجديــد لا تقــوم علــى أســاس نبالــة العــرق، وإنمــا علــى قــدر مــا يملكــه الفــرد مــن الثــروة ومــا يتمتــع بــه مــن النفــوذ والحظــوة لــدى الملــك. وفــى انجلتــرا السكسونية لــم يكــن يتمتــع بصــفة الارســتقراطية إلا ذلــك النفــر مــن أقــارب الملــك . فكلمــة ارســتقراطية تعبــر عــن مســتوى متميــز جــدا عــن عامــة الشــعب. ووثــائق القــرن الحــادى عشــر تعــرف النبيــل بأنــه " الشــخص الــذى لا يوجــد بــين أجــداده مــن كــان خاضــعاً للعبوديــة " ولمــا كــان مــن الصــعب تتبــع هــذه الأصــول البعيــدة ، صارت صفة النبالة لصيقة بالثروة والحظوة والنفوذ.

مــن هنــا كــان أبنــاء الطبقــة الميســورة فــى عهــد الإقطــاع هــم "طبقــة أرســتقراطية الأرض" أو ســادة القــلاع الــذين ترتكــز ثــروتهم علــى مــا يملكونــه مــن أراض زراعيــة. ويتميــز أبنــاء هــذه الطبقــة بــأنهم كــانوا وحــدهم القــادرين علــى حمــل الســلاح وعلــى الحــرب كفرســان. إذ كانــت أرســتقراطية محاربــة كــل فــرد منهــا يجيــد الحــرب مــن علــى ظهــر جــواده ولــه ســلاحه الخــاص بــه مــن الســيف والحربــة والخــوذة والعبــاءة المصــفحة والــدرع الثلاثــى المســتدير وكــان لكــل فــارس (Knight) تــابع (Squire) وكانــت مهمــة الأخيــر العنايــة بالخيــل والسلاح وهو بدوره يمتطى جواداً.

ثلاث طبقات :

و كــان مجتمــع الإقطــاع يتكــون مــن ثــلاث طبقــات هــى رجــال الــدين ومهمــتهم الصــلاة ، والفرســان ومهمــتهم الحــرب والســادة أو النــبلاء . ولــم يجــد الفرســان غضاضــة فــى أن يــدعوا أن مهمــة القتــال أهــم بكثيــر لمجتمــع الإقطــاع مــن واجــب الصــلاة إذ أنهــم رأوا فــى هــذه الحيــاة ســبيلاً واحــداً هــو الحــرب مــن أجــل البقــاء. وقــد عبــر عــن هــذه الــروح أحــد شــعراء التروبــادور وهــو برترانــد دى بــوردن فى إحدى قصائده التى يقول فيها :

"إن الموت فى ساحة الحرب شرف كبير. صدقنى , إننى لا أجد مثل هذه

المتعــة فــى طعــام أو نبيــذ أو نــوم إنمــا المتعــة فــى صــخب المعركــة وأنــين المقاتلين"

وكــان الفــارس يفخــر بقوتــه الجســمانية، ويزهــو بإســتعراض عضــلاته المفتولــة. والفــارس الصــحيح هــو الــذى كــان يتمتــع بشــهية حصــان فــى طعامــه

فيزدرد فخذ الخنزير دفعة واحدة، ويشرب دنا من النبيذ فى رشفتين . كان الفرسان قوماً من المغامرين لا يميلون الى الدعة ولا يحبون الاستقرار، ولم تكن المجتمعات الإقطاعية بقادرة على امتصاص هذه الطاقات الكامنة فى أجسام أشبه ما تكون بحيوانات الغابة, وكانت فكرة الحرب المقدسة التى إخترعتها الكنيسة البابوية (الحروب الصليبية مثلا) بمثابة المتنفس الأمثل للفرسان ليفرغوا فيها طاقات مكبوتة، وليحققوا عن طريقها الغنم الى جانب الأمل فى الجنة عند الموت.

القلعة الإقطاعية :

كان الفارس يقطن فى قلعته (Citadel) على مقربة من أكواخ الفلاحين العاملين فى الضيعة. وقد أقيمت هذه القلعة بغرض الدفاع عن النفس والتفوق على الأقران ، ولتأكيد السيطرة على من هم دونه فى السلم الإقطاعى . وقد كان على سيد القلعة أن يلزم جانب الحذر طيلة الوقت. لذلك كان هناك حارس يسهر على المراقبة طيلة الليل من أعلى أبراج المراقبة. ولما إزدادت طوابق القلاع صار يعيش فيها خليط من الأفصال والأتباع والخدم، ومن هنا فإن حياة القلعة لم تتسم بالخصوصية ابداً إذ كان الأتباع والخدم يتبعون سيدهم كالظل حتى فى داخل القلعة. وكان السيد يهتم فى المقام الأول بحقه فى ممارسة القضاء على أتباعة الأفصال من خلال محكمة القلعة. أما شئون الأقنان القضائية فقد تركها لموظف تابع له هو "جابى الضرائب" (Bailiff) .

لم يكن سادة القلاع يقرؤون كثيراً، وكانت ثقافتهم مستمدة من الرواة والشعراء المقيمين بالقلعة أو الوافدين ضيوفا عليها . وكانت رياضتهم المفضلة هى الصيد ثم المبارزة (Tournament) .

آداب المعاملة ودور المرأة :

تبلور لهذه الطبقة من النبلاء والفرسان كادر سلوكى خاص بها يسمى "آداب المعاملة " (Courtoisie) وهى مشتقة من لفظة "البلاط " (Court) الخاص بالسيد الإقطاعى ووضح هذا السلوك الفروسى المهذب تجاه المرأة فأتاح للمرأة النبيلة أن تشرف على كل شئ داخل القلعة بل تقوم أحياناً بتصريف شئون الإقطاعى بقضيب من حديد.

وفى القرن الثالث عشر ظهرت طبقة من "سيدات الصالونات" اللاتى عشقن الشعر والفن والفروسية, وأصبحت سمعة الفارس الحربية والسلوكية تتحدد فى هذه الصالونات ، مما جعل الفرسان يهتمون أيضاً بالسفر والفن ويحرصون على كسب إعجاب الحسناوات، وقد ظهرت فى هذا العصر مارى كونتسية شامبانى (1145-1198) وهى إبنة لويس السابع ملك فرنسا التى نقلت بشخصيتها وحاشيتها فنون شعر التروبادور الغزلى من الجنوب الفرنسى الى عاصمة زوجها (تروى) ومن هناك أشاعت أفانين الغرام وملاحم الفرسان على سائر أرجاء أوروبا، وعرف بلاط مارى الحب الأفلاطونى وغير الأفلاطونى .

ولم يعرف هذا العصر كثيرا من "الزيجات الناجحة"، لهذا إنتشر إتخاذ المحظيات والخليلات، وكانت بعض أغانى التروبادور تغذى الحب الحسى الذى كان يتم فى حظائر السلاح والخيول إلا أن الحب التروبادورى عموما كان يحتقرالعلاقة الحسية ويتغنى بالحب العذرى أو الرومانسى . وفى منتصف القرن الثانى عشر ظهر الإتجاه الى صبغ أفراد طبقة الأرستقراطية المحاربة بصبغة قانونية بهدف تثبيت حق الوراثة فى عرق النبالة. ومن ثم ظهرت كلمة "جنتلمان" (Gentleman) أو" Gentilehome" الفرنسية .. , ولكى يتضح تماماً اسلوب حياة ومفاهيم هذه الطبقة لابد من دراسة ملاحم العصر وأشهرها "ملحمة رولاند" وملحمة"لانسلوت" التى تمجد بطولة وشجاعة الفرسان وتفانيهم فى سبيل الحب .

وكان أبناء طبقة أرستقراطة القلاع يستخفون بطبقة البرجوازية ولا يترددون فى قطع الطريق عليهم ونهب ما يحملونه من مال أو متاع , كذلك كانوا يحتقرون الأقنان والفلاحين أشد الإحتقار ولا ينظرون إليهم كآدميين.بينما كانوا يعاملون أعداءهم من نفس طبقتهم بأدب وإحترام .

العبودية (Serfdom) :

وتأتى طبقة عبيد الأرض "الأقنان" فى أدنى درجات السلم الإجتماعى . وكانوا يشكلون الغالبية العظمى من سكان غرب أوروبا. وكانوا يرتبطون بالأرض فى القرى والضياع (Manors) وكانت كل قرية أو ضيعة تخضع لسيد واحد . ولا يحق للقن أن يبرح الأرض. وقد قيل "السيد يحق له أن يصنع ما يشاء بالقن عدا أن يقتله أو يشوهه". وقد كان لكلمة قن عدة

مرادفات فى عصر الإقطاع , فهو تارة (رقيق-Serf) وهى كلمة مشتقة من لفظ (عبد-Servus) اللاتينية , وأخرى (بروليتارى-Proletaire) , وهى كلمة من جذور رومانية تعنى ذلك الشخص الذى ينتمى الى أدنى طبقات المجتمع (Proletarius) وثالثة (فيللين – Villein) بمعنى الأجير المرتبط بزراعة الأرض لا يبرحها .

لم تكن هناك وثائق أو عقود مكتوبة تحدد العلاقة بين السادة والأقنان حتى القرن الثانى عشر الذى شهد ازدياداً فى حركة التعليم ، مما جعل أفراد المجتمع يفكرون فى تقنين العلاقة بين مختلف الطبقات، ونتيجة لإتساع الرقعة الزراعية بدأ الملاك يعملون على ترغيب الأقنان فى زراعتها بإبرام عقود مكتوبة توفر لهم شروطاً أفضل . كذلك كان لتداول العملة أثر كبير إذ مكن الفلاحين من توفير ثروات قليلة إشتروا بها رقعاً صغيرة من أرض السادة . لكن العامل الأهم فى القضاء على الإقطاع كان ثورات الأقنان التى إنفجرت ضد ظلم الإقطاعيين فى فرنسا وانجلترا بدءاً بثورة 1357 فى منطقة إيتين مارسيل فى باريس .

الحياة العقلية فى عصر الإقطاع :

يقال إن البشر يشبهون عصرهم , وهذا القول ينطبق كثيراً على أهل العصور الوسطى . فقد كان أهل ذلك العصر أكثر التصاقاً بالطبيعة ، وكانت الطبيعة عنيفة متجبرة ، ومستعصية الترويض، لتخلف العلم وقصور الأدوات وبدائيتها حتى أدوات الزراعة أيضاً كانت بدائية . وكان الناس يخشون الليالى المظلمة وبردها كما كانوا يخشون الحيوانات الضارية على أطراف البرارى الشاسعة والغابات مما جعل معرفة الصيد أساسية . وأصبح على الإنسان أن يقتل الحيوانات وينتفع بلحمها وجلدها أو تقتله هى وتفتك به بالإضافة الى الآلاف من الأطفال التى كانت تفتك بهم الأوبئة والأمراض.

هذه الظروف هى التى بلورت عقلية العصر الوسيط. فكان الناس يرون فى مظاهر الطبيعة علامات على سوء المصير، وقد اصيب المجتمع بالتوتر والهلوسة وتاه فى تفسير الاحلام وغاص فى أحلام اليقظة فراح الرهبان ورجال الدين يقضون فراغهم فى تفسير الاحلام والرجم بالغيب. وفسروا الظواهر الطبيعية بخيال ساذج فى زمن غاب فيه العلم وتوارى فيه حكم المنطق والعقل .

"يضاف الى ذلك أن اللاتينية فى العصور الوسطى كانت لساناً قاصرا على رجال الدين , أما أما الأفراد العلمانيون فكانوا أبعد ما يكون عن هذه اللغة , ويكفى أن نعلم أن إمبراطوراً عظيماً فى القرن الثامن مثل شرلمان لم يكن يعرف القراءه أو الكتابة ، وأن أوتو العظيم مؤسس الإمبراطورية الرومانية المقدسة لم يكن يعرف حروف الهجاء كما وأن ابناء نبلاء الإقطاع فى شمال البرانس والألب كانوا أميين – (Illiterati) .

ولم يكن غريباً على عصر هذا شأنه أن يفرز محاكم التفتيش عام 1215 لإضطهاد المسيحيين المخالفين لرأى الكنيسة والعلماء ورجال الفكر .. ولعل أشهرهم جاليليو , وتعذيبهم بأبشع الأساليب .

وإذا كان البعض يطلق على هذا العصر " عصر الإيمان " فالدكتور اسحق عبيد مؤلف هذا الكتاب المهم يصفه "بالإيمان الأعمى " لأن أحداً منهم لم يفكر ابداً فى مجرد التشكيك فيما يقال له بواسطة رجال الدين , مهما كان ذلك منافياً للعقل ولأبسط قواعد الصواب .

وهذا الكلام يساعدنا على توضيح ما يعنيه المفكرون بعبارة " العقلية الإقطاعية " كنقيض "للعقلية العلمية" فالعقل الإقطاعى عقل رجعى متخلف مستسلم للغيبيات دون تفكير أو تدبير سليم . فهو عقل يسلم ويستسلم ويميل الى التبعية بعكس العقل العلمى الذى يحلل ويعلل ويستنتج بطريقة تربط النتائج بالمقدمات فى تسلسل منطقى مقنع .

6- نوستراداموس

Nostradamus

على مدى الخمسمائة عام الأخيرة، ظل طبيب القرن السادس الفرنسى، ميشيل دى نوسترامادوس، ونبوءاته الغامضة المدهشة، يلقى بسحره على أجيال من القراء. وقد اعتقد كثير من مفسرى نبوءاته أن اليوم الأول من السنة الجديدة أي سنة (2000) سوف يرى نهاية العالم. فهل مرور ذلك اليوم بسلام أظهرنوستراداموس كدجال، أو أنه قد أسىء فهمه؟ فى الألفية الجديدة، الحافلة بالأحداث الدرامية على مستوى العالم والتى تلقى أضواءا جديدة على نبوءاته، يكون قد حان الوقت لإعادة تقييم الرجل وأسطورته.

لقد فرضت الأقدارعلى نوسترادموس أن يعيش حياة مزدوجة. فقد ولد فى عام 1503 لوالدين من اليهود تحولا الى المسيحية، وصارهو بارعا فى فنون الفلك وقراءة المستقبل التى كانت ممنوعة أنذاك، واختار أن يشتغل بمهنة الطب ليخفى حياة الظل عن عيون رجال الدين المتعصبين فى ذلك الوقت. فهو طبيب مسيحى بالنهار وفلكى يهودى ومنظر وثنى بالليل. خاطر بحياته ونشر كتابا مسلسلا يحتوى على ألف نبوءة عن المستقبل بين عامى1555 و1561, وصار هذا الكتاب من أكثر الكتب رواجا في وقته. وكان نجاحه فى التنبؤ بأحداث عصره أن صار نوستراداموس حديث رجال البلاط فى أنحاء أوربا. ففاز بالدعم واكتسب عداوة أقوى الرجال فى

فرنسا. وفى الوقت الذى أغدقت عليه ملكة فرنسا ألوانا عديدة من التكريم ألقى عليه قضاة محكمة التفتيش ظلألاً سوداء ملوحة له بأعنف التهديدات.

واحتفالا بمرور خمسمائة عام على ميلاد نوستراداموس، قام جون هوجو بدراسة حياة وتراث هذا العراف الفرنسى دراسة تفصيلية دقيقة تتسم بالبصيرة الثاقبة فكشف الكثير من المعلومات التى لم يعرف عنها إلا القليل ولم تنشر بالإنجليزية من قبل وذلك في كتابه:

نوستراداموس: الرجل والأسطورة

The man and The myth

وهى السيرة الكاملة لواحد من أشهر الشخصيات في التاريخ الأوربى على مدى الألف عام الأخيرة. والمؤلف جون هوجو John Hogue هو كاتب متخصص فى مواضيع قراءة الطالع، والبراسيكولوجى، والتصوف والنبوءات. مما يجعله مرجعا عالميا عن نوستراداموس. ولأنه مؤلف أكثر الكتب رواجا، بما فيها كتاب نوستراداموس: النبوءات الكاملة، وكتاب نوستراداموس: الألفية الجديدة. وقد حققت له هذه الأعمال شهرة عالمية- فطبعت كتبه فى سبعة عشر لغة وباع أكثر من مليون نسخة عل مستوى العالم. وظهر فى أكثر من سبعمائة برنامج فى الإذاعة والتليفزيون فى ثلاث قارات.

وهو يقرر أن كل عصر كان يرى نفسه منعكسا فى التفسيرات المختلفة لنبوءات نوستراداموس. وفى القرن العشرين تم استخدامه كسلاح فى الدعاية عن طريق المعسكرين فى حربين عالميتين، ومع قدوم القرن الحادى والعشرين، أصبح عمود نور لكثير من عوامل القلق والأمل فى هذه الألفية. لكن من هو هذا الرجل الذى يقف خلف الأسطورة؟ والذى اكتشف الحياة المزدوجة لنوستراداموس:

الأسطورة والحقيقة

-الطبيب المسيحى والفلكى اليهودى – جذوره الدينية

طبيب الجدرى- سمعته فى شفاء المرضى، ومأساته كرجل أرمل – فقده لأسرته،

النبى ونبوءاته. يقظة الموهبة:

المؤلف وأول محاولة فى نشر النبوءة،

الثقة الملكية – حظوته لدى ملكة فرنسا – شهرته خارج القبر

الظاهرة الكونية – نبوءات الحروب العالمية والهجوم الإرهابى

على مدينة نيويورك فى الحادى عشرة من سبتمبر.

والكتاب من منشورات HarperCollins Publishing

www.hogueprophecy.com

والمؤلف يطرح هذا السؤال

هل كان نوستراداموس دجالا أم كان عرافا حقيقيا؟

هناك أمر واحد مؤكد: إنه يمكن القول بآمان أن الرجل الذى دشن ظاهرة نوستراداموس قد صنع خيرا على الأقل بواحدة من ألف وخمسمائة نبوءة أو أكثر، إذ جاءت الشهرة الأعظم والطويلة الآن بعد موته. فالواقع يشهد أن آخرته بعد موته فى سنة 1566 جعلت اسمه أكثر شهرة وبقاء عما كان عليه فى أثناء حياته. ولا يمكن لأحد حتى من أشد ناقديه الكاشفين لحقيقته أن ينكر أن نوسترادموس هو واحد من أفضل الشخصيات التاريخية على مدى الألف عام الأخيرة.

ففى الحادى عشر من سيتمبر 2001 عادت المناظرة حوله وطرحت للبحث على مستوى العالم، فما كاد برجا التجارة العالمى يسقطان فى شكل سحب من الركام حتى أذاعت وكالة رويتر نبوءة تنسب إلى نوستراداموس عن سقوط جبال جوفاء تسقط فى "مدينة يورك". إن سطور النبوءة المقصودة تشبه الكثير مما نعرفه عن نوستراداموس الرجل. كانت عبارة عن مزيج من الأسطورة والحقيقة، سطور ملتوية مثل "مدينة يورك"التى تجذب الناس إليها، إلا أنها قد نسجت بسطور مأخوذة من نبوءتين من نبوءات نوستراداموس- نفس النبوءة التى ظل المفسرون، على مدى حقب طويلة، ومنهم مؤلف هذا الكتاب، يعتقدون أنها تشير إلى هجوم نووى إرهابى آخرعلى الحى التجارى فى منهاتن. بنيويورك .

تقول النبوءة:

سوف تشتعل السماء نارا عند خط عرض 45 درجة،

وتقترب النار من المدينة الجديدة العظيمة. وفى الحال تقفز ألى أعلى شعلة هائلة مبعثرة من اللهب، فى الوقت الذى يريدون فيه التحقق من النورمانديين. وتقترب النارمن المدينة العظيمة التي تعتبر حديقة العالم القريبة من المدينة الجديدة فى طريق الجبال الخاوية:

سوف تمسك بها النيران وتغرقها فى أتون يغلى

ونشرب بالقوة الماء المسمم بنشرات السلفا.

عندما يكون لديك إثنان من النداءات لكنها تمثل نبوءات عامة وتحتوى على صور مثل " نار تقترب " من " مدينة جديدة " عند "خط عرض 45 درجة " فى " طريق " " جبال جوفاء" بالقرب من "حديقة العالم " – فإن نيران الغضب يمكن أن تشتعل – خصوصا إذا طابقت حقائق اليوم لكى تربط بارتياح نقاط الكلام الطنان لنبوءات ترجع إلى 450 سنة مضت لكى ترى ماتريد أن تعرف.

هل يصح لنا أن نرفض هذا على أعتبار أنه من قبيل الصدفة أن "نيويورك " تقع بالقرب من خط عرض45 درجة، أو أن طائرة البوينج 757 التى اختطفها الأرهابيون انطلقت نحو البرج الشمالى لمركز التجارة العالمية فى شكل كتلة لهب هائلة بزاوية 45 درجة؟ هل كان قانون الصدفة يستغفل عقلية نبوية عطوفة عندما مرت الطائرة الثانية المخطوفة فوق ولاية نيوجيرسى، المعروفة بأنها "الحديقة " ومالت بسرعة خاطفة نحو البرج الجنوبى لمركز التجارة "العالمى" المقام فوق ممر النفق السفلى قبل اصطدامها بالقمة الثانية "للجبال الجوفاء" التى شيدها الإنسان.

هل جرى تلقيننا بفعل جيل ثانى من الدجالين والأدعياء الذين يطبعون أحداث عصرهم فوق هذيان غامض أم أن شيئا ما أكثر من الصدفة جعل كل برج يبدو فى لحظة إنهياره وكأنه قد وقع فى قبضة قوة جبارة غير مرأية أغرقته فى أتون من سحب الركام التى كانت تغلى؟

هل كان النورمانديون Normans شفرة سرية ترمز إلى النورمانديين (الذين جاءوا من وسط أوربا ودمروا الحضارة الرومانية) فى الماضى أم

أنها إشارة إلى عملاء المخابرات الفرنسية الذين كانوا حتى يوم 10سبتمبر يحذرون معارضيهم فى وشنطن من هجوم ارهابى وشيك الوقوع على أمريكا؟

cuueإن الكلمة التى استخدمها نوسترادموس لمعنى مرجل أو غلاية هى فى الفرنسية الحديثة. وهى تعنى أشياء أخرى أكثر من مرجل cuve حوض حمام. هل يحق للمتشكك tub أى خزان ماء أtankأوغلاية مثل أن يرفض استخدام هذه الكلمة على سقوط البرجين؟ هل يحق له أن يقول هازئا أن نوستراداموس كان يتنبأ بوقوع كارثة مستقبلية فى حمام سباحة، جاكوزى. أليس ثمة شىء يقلق مثل هذا العقل الثرثار حين يكتشف أن مركز التجارة العالمى كان مبنيا فوق صندوق هائل على شكل مثلث من water tight floor ، الأسمنت على أرضية لاتسمح بتسرب الماء وحوائط تعرف بأنها الحوض.

ويمكن القول أن نوستراداموس قد غرس بذرة نوستراداموس الأسطورة في أبريل 1554 حين اعتقد الناس أن سكرتيره ًقد أخذ في نسخ تاريخه الغريب للمستقبل. لقد ولدت الأسطورة بعد اثنتا عشرة سنة 1566؛ حين أودعت الأسرة جثمانه خلف حائط كنيسته المفضلة خارج المدينة. منذ ذتك اليوم بدأ نوستراداموس يتمتع بحياة بعد الموت. ففي حياته عانى من فوضى أدبية كان من الممكن أن تحول الرباعيات الغائمة والجمل الثرية الطويلة بطول نصف صفحة الخاصة برواية النبوءات إلى لوحة أى(صفحة بيضاء) ليعكس عليها كل جيل من المفسرين أماله ومخاوفه وتوقعاته.

أكثر من هذا، وعلى مدى قرون الأن، فقد راح كتاب السير والذين يصدقون عميانا وناشرو كتب الفضائح debunko ورجال الدعاية يساعدون في نشر تراثه في النبوءات بطريقة غير دقيقه. وبهذه العملية ضاع الرجل وحياته تحت الظلال العملاقة التي ألقت بها نبوءاته الجدلية لذلك فإننا نسأل من هو نوستراداموس؟

لقد أشعلت الألفية الجديدة يوم 9/11 والهجوم الإرهابى على برجى التجارة بنيويورك المناظرة حول تأثير هذا الرجل ونبوءاته، ولايوجد وقت أفضل من هذا الوقت لإطلاق أحد الكتب الذى يعيد ما نعرفه عن نوستراداموس الإنسان. هذا الكتاب الذى بين أيدينا هو أول وأكمل سيرة ذاتية بل وإعادة تقييم لتاريخ ستين عاما. نشر هذا الكتاب في احتفال

الخمسمائة عام بمولد أشهر الأنبياء، واكثرهم إثارة للجدل: نوسترادامو‌س.

ولد في بلد ملوك التروبادور:

يقال أن جده يهودى أسبانى ولا يعرف الوقت الذى تحرك فيه أسلافه نحو منطقة بروفانس من كاركاسون . كان انتقالهم بفعل كلمة قالها واحد إن هناك انفتاحا محددا لإقامة اليهود في أراضى آخرملوك التروبادور، رينيه الصالح (1459-1480) وهو حاكم متسامح يحب أن يرتدى طاقية اليهود وأرواب غريبة تنتمى إلى بيت أنجو. وكانو يتبنون كثيرا من الإختلافات الثقافية في الوقت الذى كانوا فيه يشيدون قلاعا صليبية في الأراض المقدسة. لقد جمع رينيه كثيرا من المغاربة والمسلمين بين رجال بلاطه. ومرسومه الذى أصدره 1454 منح اليهود فى بروفنس حرية ممارسة التجارة والقانون والطب، فمن الممكن أن يكونوا كتاب عقود أو وكلاء ماليين وأن يمارسوا ديانتهم. ومن المحتمل أن عائلة جيسون Guesson قد انتقلوا إلى بروفانس قبل منتصف 1450. وقد انتهى التسامح مع اليهود بموت تشارلس of Maine آخر سلالة أنجو سنة 1480. في 1488 أمر تشارلس الثامن ملك فرنسا يهود بروفانس أن يتعمدوا في ظرف ثلاثة شهور ويعيشوا فى مملكة بروفانس أوعليهم أن يتحملوا عقوبات شديدة. اختارت عشيرة نوسترادامو‌س كلها أن يعتمدوا في العلن ويتظاهروا انهم مسيحيون ويحتفظوا بعقيدتهم اليهودية سرا.

وفد شجعته أسرته على توجيه فطرته وفطنته نحو الطب وفنون العلاج. وربما استنتج جان دى ريميه أن حفيده قد قرر لنفسه حياة مغايرة ربما حياة فلكى أو طبيب محترم. كان بيت نوسترادامو‌س مركز النشاط في المدينة لأن جيوم نوسنرادامو‌س كان كاتب العقود العام وكاتب المحكمة في المدينة، يحتل مركزا هاما في كتابة خطابات ومراسلات سانت ريميه. كان واحدا من الراشدين القلة في المدينة ونواحيها الذين يستطيعون القراءة والكتابة حتى بين طبقة النبلاء، وكان البرجوازيون يمرون بعتبته طالبين أن يكتب لهم مراسلاتهم.

كانت لغته الأولى شعرا من شعر بروفنسال الهيولى وهى لهجة فرنسية لاتينية.

تقول شقيقته جان إن ميشيل كان يملك ذاكرة فوتوغرافية تمكنه أن يفهم معانى كل الطرق الموصلة للحقائق الغريبة التي كانت تستهويه. جان شجعت موهبة ميشيل الغامضة على التنبؤ، وأضافت أن موهبة الأسلاف جاءت من ناحية جدودها العظام لأمها. لقد استطاعت جان أن تقنع والدى ميشيل أن يتركا الصبى يعيش قى بيتها حيث يستطيع أن يتعلم الرياضيات. وأن يتعلم قراءة اللا تينية واليونانية والعبرية. ويقال إن التلميذ قد أظهر مقدرة فائقة في الرياضيات وكذلك فى دراسة العلوم الفضائية كالتنجيم والفلك.

اعتاد الجد أن يصحب ميشيل للمشى على الطريق خارج سانت ريميه أو بالقرب من التلال أولزيارة أثارجلانوم اوما كان يعرف بالأثار الممثلة في بقايا قوس رومانى رشيق فيه ثراءالعمارة اليونانية بجوار برج قائم على أعمدة ضريح لاتينى.

في المساء كان الجد يتخلص من مظهره العام كمسيحى تقى ويغوص فى قراءة المعانى العميقة لتراث العائلة العبرية. كان يتكلم عن شجرة الحياة والمعرفة المحرمة. وكان يتكلم مع الصبى بأن كل من يستطيع أن يستخدم هذه الشجرة المذكورة في القابالا اليهودية سوف يصبح مدركا لنور الله. إن ميشيل سوف يلقن أحد أسرار العائلة، أن أسلافه كانوا كهنة من قبيلة Issachar، كانوا فلكيين قدامى وبارعين في التنبؤات بواسطة علم الفلك السمائى. فى العهد القديم في الأصحاح الأول يعرف هؤلاء الكهنة أنهم كانو مهرة في قراءة علامات الوقت كى يكتشفوا ماهو الطريق الذى ينبغي على أسرائيل أن تسلكه. في العهد القديم .

(كورنثوس 1 من 12-35)

يشرح معجم سميث فولر Dictionary of the Bible هذا الكلام فيقول إنهم أنجزوا هذا باستخدام علم الهندسة والفلك لكى يروا الوقت وتنبأوا بالمستقبل بواسطة التأكد من دورات الشمس والقمر كبس الشهور intercalation وتواريخ الأعياد الحزينة وتفسير علامات السماء.

ربما شرح جان رينيه للطفل المندهش لماذا سمح الله لجدوده باستخدام الفلك. عندما مات رينيه أحس ميشيل نوستراداموس بالصدمة ، أمام لغز الموت في وقت دخوله مرحلة المراهقة وعندئذ عاد إلى بيت أبيه.

يقول كتاب السيرة أن جد ميشيل كان طبيبا أكثر منه تاجر غلال، وأنه استمر في تعليم ميشيل الأدب الكلاسيكى والتاريخ والجغرافيا والفلك وطب الأعشاب الشعبى. درس ميشيل الرياضة الكلاسيكية والفلسفة والنحو والخطابة تحت رقابة الكهنة، وقيل إن ميشيل كان تلميذا مجدا وله ذاكرة تستطيع أن تحفظ الدرس كلمة بكلمة بمجرد سماعه مرة واحدة.

حب ميشيل للنجوم ربما دفعه للبحث عن مدخل سياسى ودينى لدراستها، وعلينا أن نذكر ان عصر النهضة ظهر فيه الاهتمام الشديد بإحياء العلوم الكلاسيكية الوثنية مع تشجيع لدراسة الظواهر السياسية والفنية.

في جامعة أفنيون كان هناك كلية طب منذ 1510 ولكننا لا نعرف القدر الذى درسه ميشيل في هذه الكلية، ولكن أحد التقارير النى خرجت من أفنيون تفيد انه أعلن صراحة انه يريد أن يكون فلكيا، وتمادى إلى الحد الذى جعله يدافع عن أفكار نيكولا كوبرنيكوس (1473-1543). لقد سمعه زملاؤه يقول إن رجال اللاهوت يرون أن وضع الأرض في مركز الكون وهذا خطأ، والحقيقة أن الأرض تدور فوق محورها حول الشمس مع الكواكب الأخرى. لقد نطق الطالب ميشيل نوستراداموس بهذه الأقوال قبل ان ينشرها كوبرنيكس فى كتاب.

Commentariolus a paper that openly considered the possiblity that the earth and the plants could orbit the sun

من المعروف في عصر الرينيسانس، ان التسريبات والتطورات التي تبرز أو تخرج من أقواه الباحثين، أو في مراسلاتهم داخل مراكز التعليم قبل نشرها بوقت طويل، كان يعطيها صفة رسمية من الناحية التاريخية. لذلك فمن الممكن ان تكون جامعة أفنيون على حق أن ميشيل نوستراداموس في اندفاعه الشبابى قد استدعى evoked اسم كوبرنيكوس وأفكاره المشاعة (في شكل إشاعات لأن نظرياته لم تكن قد نشرت بعد)

لم تكن الهرطقات الفلكية هى فقط التي يتهامس بها الطلبة في أفنيون، فقبل دخول ميشيل نوستراداموس بثلاث سنوات، أى في عام 1520 قام مارتن لوثربتثبيت خمسة وتسعين أطروحة بالمسامير، على أبواب كاتدرائية ويتنبرج مدشنا عملية الإصلاح البروتستانتى، ثم أصدر البابا ليوالعاشر قرارا باباوية يدين معتقدات مارتن لوثر، وأعطى مارتن لوثر

ستين يوما للآنكار تحت التهديد بعقوبة الحرمان، فأحرق مارتن لوثرقرار البابا علنا ومعه مجلدين من القانون الكنسى.

وكان من نتيجة المجادلة التي أثارها ميشيل نوستراداموس في ثورة المراهقة أن طرد من الجامعة. وربما تم إنقاذه من مواجهة تهديدات أشد عنفا مع سلطات الكنيسة بفعل "عمل إلهى". فقد انتشر الطاعون في 1520 طبقا لسجلات أفنيون فأغلقت الجامعة، وعاد ميشيل إلى منزل والديه في سانت ريميه. وخشى عليه والداه أن يصبح كبش فداء في أي لحظة خلال التوترات الدينية بين الطوائف، وذلك لآنه ولد في أسرة كانت يهودية سابقا. وأعطاه والديه محاضرة في فضائل الصمت والتحكم في كلامه فلم يكرر الخطأ مرتين.

لقد أراد ميشيل أن يطبق مهارته الفلكية ويؤلف نتائج اكتشافاته، لكن قراءة الطالع والتنبؤات بالطقس وأحزان السياسة تجعل الفلكى في أحسن الأحوال، لايتمتع بحياة آمنة ماليا. كما أنه فهم حرج موقفه باعتباره مسيحى يهودى فقرر أن يصبح طبيبا. وفى هذه المهنة يمكنه أن يخفى الأسرار السياسية والدينية الخاصة تحت عباءة أو قلنسوة الطبيب وملابسه.

وخلال العقد الأخيرمن القرن العشرين، انقذ ميشيل كومارات، مدير ومؤسس جمعية أصدقاء نوستراداموس ذاكرة نوستراداموس من الضياع، فقام بجمع كتابات بيوجرافية فلكية وقصص أسطورية صفراء أكثر من ألفين من الوثائق الحجية والقصاصات الأرشيفية لحياة هذا النبى. (يقصد نوستراداموس) ، وحوالى 1552 اعترف ميشيل في قصيدة بكتأبه المسمى

Traite des fardmens et confitures

Atreatise on cosmetics and preservations

ومعناه بحث فى أدوات التجميل والمحافظة على الجمال

ألقد تجول ميشيل نوستراداموس في عدد من البلدان والدول من 1521إلى 1529. كان يتحرك دائما باحثا عن فهم ومعرفة مصادر وأصول النباتات الطبية. فإذا كان جدوده الأطباء حقا يتجولون في منطقة المتوسط الغربى مع حاشية الملك رينيه، ربما غرسوا في ميشيل الصغير عشق السحر الرومانسى للتجوال في البلاد البعيدة.

اهنمامه المبكر بالأعشاب وخواصها العلاجية ربما وضع ذهنه الملىء بالكتب في خط الصدام مع كتاب عصره الذى كتبه اشهر أطباء الجوالة في أيامه، رجل كانت حياته عريضة ومليئة بحيوية قوية أسمه فيليبوس ثيوفراستوس المبجل(1441- 1493)

كان باراسيلوس الطبيب السويسرى أستاذا للاهوت، متمكنا من علم القابالا اليهودية والكيمياء وصانع معجزت في الشفاء، ربما كان أول طبيب بالمعنى العلمى في التاريخ. ولابد ان ميشيل نوستراداموس تعرض في مكان أو آخرلأفكار بارا سيلوس، التي تقول إن الباحث عن الحقيقة لابد أن يتجول في طرق العالم. ويجب على الطبيب أن يكون سائحا جوالا ليعرف أن تجربة الدراسة الجامعية وحدها ليست كاملة، فالطبيب يجب أن يترك الطرق الرئسية ومنابع التيارات المتشددة dogma ، ويبحث عن الحكيمات بين النساء الزنوج gypsies والعرافين والقبائل الرحل وقدامى اللصوص وأن يأخذ دروسه من هذه الحثالة riffraff

لم يعتمد نوستراداموس على المفكر المستقل فقط، السكيروالمشهور بسوءالسمعة في الأراضى الواطئة وفى أقاليم النهضة. وحبه المستعر لحرية الكلام، ومساءلة السلطة جميعا مع سلوكه المنحل،لقد رأى بارسيلسوس طريدا من بلاد كثيرة زارها قبل ان يجس أسرارهم. ربما كان أبو قيراط محركا لرغبته في التجوال. فقد قال ينصح الأطباء الشبان أن يتحركوا من مدينة ألى أخرى بحثا عن التجربة التي تؤسس سمعة الطبيب.

فهل أنفق ميشيل نوستراداموس السنين التسع في التجوال المستمر يجمع المعرفة والأعشاب الطبية ويبتكر وسائل العلاج ويصنع الأدوات الطبية وكما يقول أحد كتاب السيرة المتعاطفين معه مكتسبا سمعة الشافى للمرضى، كل هذا دون أن يحصل على رخصة ممارسة الطب؟

مجمل السيرة المكتوبة تصوره كممارس للطب بصورة قانونية في عام 1525 بعد أن تسبب انتشار الطاعون في إغلاق جامعة مونبليه وليس حين أغلق باب الأكاديمية في 1520. لكن بدخوله فإنه ابتدأ يوطد طريقا يوصله ألى فرع البحوث والممارسة لمدة أربع سنوات ربما كان يجرب خبرته في علاج ضحايا الطاعون عند انتشاره للمرة الثانية 1525.

ويحكى أحد كتاب السيرة أنهم قبضوا ذات مرة على شخص لابحمل رخصة فسجنوه في حجرة الجراحة وراحوا يبحثون عن حمار لكى يركبه إلى

الخلف خارج المدينة. وقبل ان يأتى الحمار راحت زوجته تصرخ وتقول إن الطلبة يريدون تشريح جسد زوجها وهو حى. وصدقها المسئولون في المدينة وذهبوا وأنقذوا زوجها بالقوة من أيدى التلاميذ.

التجوال الطويل الأمد جعل نوستراداموس ترجمانا في برج بابل، في فرنسا وفى أقاليم أخرى بالبحر المتوسط. كانت فرنسية الملك لاتزال لغة الأقلية وكانت اللاتينية هى اللغة الرسمية حتى سنة 1539 حين أخذت الفرنسية مكانها في دواوين الحكومة. كان عليه أن يتقن عدة لهجات حتى يمكن أن يفهمه الناس.

كانت هناك حواجز بين المدن وكانت أبواب المدن تغلق عند غروب الشمس حتى شروقها في اليوم التالى. وقد ساعده حصوله على شهادة عطار أو بائع عقاقير فى المرورعلى الأماكن المتشر فيها الطاعون. ثم تعرف ميشيل على أولئك الرهبان الكرماء ذوى الأرواب الزرقاء الذين Charitable hostsكانوا يملكون أماكن ضيافة خيرية في الأديرة الفرنسكانية المتشرة خارج المدن. كان ينام ربما على فراش من القش في اسطابل أو يتمدد على ألواح خشبية بسيطة حتى شروق الشمس.

كانت الشوارع ضيقة وقذرة في عصر النهضة وكانت المدن مزدحمة. وكانت معظم المدن تعتمد على نفسها في الحصول على أساسيات المعيشة. أما حياته الجنسية فظلت خافية حتى عن كتاب السيرة الأوائل والمتأخرين.

ربما كان نفوره من الغريزة الجنسية في آخر حياته راجع إلى انحلاله في شبابه كطالب طب متشرد. ربما كان مظهر الطهارة لرجل عجوز تائب رد فعل لذكريات الشباب.

هناك كثير من الإشارات الجغرافية في نشره الطبي وأعماله التنبؤية لاتكشف لنا عن تفاصيل بيوجرافية ولكن عن تنبؤات عن مستقبل أي مدينة كان يكتب عنها بدقة إخبارية لاتصدرألا عن انسان كان قد نام فى هذه الأماكن . ومنها:

فرنسا_إيطاليا والجزر المحيطة بها_ اسبانيا والبرتغال-ألمانيا ووسط أوربا -بريطانيا بلجيكا هولندا اسكندنافيا اليونان وشرق أوربا شمال أفريقيا والشرق الأوسط – شمال وجنوب أمريكا .

عندما استوطن الطاعون جنوب غرب أوربا أصبحت ملا حظة خواص المرض pathology هاجسا مسيطرا على عقل هذا الشاب في عمر العشرين، وتجارب العلاج ربما تتبع سيرالمرض حتى مدينة نيمو Nimo

في الشمال الشرقى. بعد سبع سنين أو أكثر عثر في مدينة أفنيون على كنز من الحقائق المسجلة. يقال إنه قضى ساعات طويلة في مكتبة الجامعة في قراءة كتب الطالع occult بما فيها ترجمة مارسيلو فيشينو Marsilio Ficino لكتاب الأسرار المصرية De mysteries Aegyptiorum

التي تقتبس دائما على اعتبارأنها انجيل نوستراداموس للعالم ألاخر. للتعليم في السحر الطقسى الذى يستخدم لتحضير رؤية المستبل. لقد استدعته سلطات الكنيسة في مهمة إنسانية an errand of mercy إلى جوار سرير نائب البابا كاردينال كالاريمونت.

في نهاية 1528 خف خطر الطاعون في جنوب فرنسا، فغادر راكبا الى بيته في حضن والديه الدافىء في سانت ريميه . كان في ذهنه أن يحض والده على إعطائه نصيبه في الميراث لكى يصرف على طموحه ليكون طبيبا . مات ولده في 1547 والأرشيف يثبت أن اسم ميشيل لم يكن ضمن قائمة الورثة ربما لأنه أخذ نسبة محددة فى 1529 حسب التقاليد.

الأحاديث الطبية تتسم بالحياء coy لكن التنبؤات والشعر تكشفان أنه كاصن يؤمن فعلا بأن comets هي نجوم مؤنثة وعلامات من الله تشير إلى حدوث تغييرات في حظوظ الأفراد والممالك (ص65-66)

لقد ذاعت شهرة ميشيل الشاب طبيب الأطفال بعد نجلحه في علاج الطاعون، وكانت العائلات الغنية ترسل بناتها في سن الزواج أمام عينيه.

أخيرا تم زواجه إلى سيدة كاسكان لديها ضيعة كبيرة وهى سيدة جميلة وحبوبة لاتذكر الوثائق اسمها. 1558 أصيبت زوجته وأولاده بالملاريا من ناموسه ولم يستطع أنقاذهم (في ظرف 12 ساعة) ربما حدث هذا بفعل ناموسة ناسيها في إحدى المستنقعات أثناء انشغاله بعلاج الكاعون الذى كان يقضى معظم ساعات نهاره في علاجه والتنقل بين مريض وآخر.

ربما اعتقد بعض الكاثوليك المؤمنين بالخرافات أنه كان كلفينيست Calvanistأي هرطوقى من أتباع كالفن سرا. وأن كان لديه عقد مع الشيطان فشفى ألاف المرضى ولم يستطع أن يشفى أعز الناس إليه. وأخذ

خصومه من أبناء المهنة في الهجوم عليه ومنهم اسكاليجر. ومضت ست سنوات لم نسمع فيها شيئا عن نوسترادامو‌س.

في منتصف 1550ألف نوسترادامو‌س بحثا لم يستطع أن ينشره عن اللغة الهيروغليفية المصرية eccentric and cryptic معقدا وغامضا . يعتقد Jochmans أن به فقرات تكشف أن نوسترادامو‌س قد فهم جوانب خفية من الرياضيات الخاصة بالتنبؤات وكذلك المتعلقة بفن العمارة المصرية التي تدل على أحتمال أنه زار أثار مصر القديمة في معبد إزيس في فيلا Philae وتأمل بقايا آثار سقارة بالقرب من المدينة الخربة التي كانت في يوم من الأيام تسمى ممفيس.

عند خروجه شمالافى شامبنى Champagne يقال إنه دخل في مناقشة مع أتباع كالفن في بارلادوك حيث هاجم علنا وأدان معتقدات كالفن ولوثر. ربما تنبأ نوسترادامو‌س بظهور نابليون بونابرت.

لم يذكر أنه كان يرتدى ملابس واقية ولكنه لم يكن يقترب كثيرا من المريض. وقد انتشر الموت في الهواء في شكل غارات من الجراثيم عن طريق العطس أو الكحة. (ص16)

بعيد عشر سنوات في علاج مرضى الجدرى كتب نوسترادامو‌س هذه النبوءة – الشيء المفقود قدوجد أخيرا بعد أن ظل مختفيا لقرون كثيرة.. باستير سوف يكرم كنص كنصف آله. هذا سوف يحدث عندما يكمل القمر دورته العظيمة، وسوف يتعرض لإشاعات تسيء إليه.

لقد أدرك نوسترادامو‌س هذا الشيء الذى كان مفقودا بعد معركته مع الجدرى في مدينة أيكسAix 1546 وبعد أن اعتزل العمل في مجال الطب ليواصل بحوثه في مجال آخر فكتب النبوءة السابقة فى سنة 1554.

وكتابه Traite des Fordemens سنة 1557 لايشير لأى تغيير في وصفه لعلاج الطاعون ودون أن يعرف ما هو الشيء المفقود ولكنه لمح في نبوءاته بأن زميل اسمه باستير سوف يعرف وسوف يلقبه الناس في وقته نصف إله Demigod.عندما يكمل القمر دورته العظمى في 1889 (بعد زمن طويل) سمها شيئا فانتازيا أوتخمين جيد، لمحة إلى المستقبل لكن الحقيقة أن لويس باستير اكتشف وأكد أن الجراثيم تلوث الجو وتنشر الأمراض وليست الأمزجة الشريرة أو شياطين الطاعون غير المرئية كما

كانو يعتقدون . لقد شملت النبوءة اسم باستير وعام 1889 باعتباره عاما مهما إذ تم فيه تأسيس معهد باستير، (كان الشعب يعتبر الطاعون عقوبة إلهية).

لقد لاحظ الكاثوليك وأتباع كالفين أنه يعمل بإخلاص ويدخل بيوتهم جميعا دون تفرقة لعلاج المرضى من ربيع 1546 إلى يناير في العام التالى. لقد رآه اهالى مدينة أيكس يخاطر بحياته لإنقاذ المرضى لمدة تسعة شهورحتى انتهى خطر الوباء سواء بجهوده أو بعناية الله الخفية. وباء الكحة او السعا ل الديكى في ذلك الوقت كانت ليون هي ثانى أكبر المدن في فرنسا بعد مار سيليا وسكانها 40000 كعاصمة للوباء. وقبل أن يبدأ في مواجهة الوباء وجد نفسه مشتبكا في مناوشات مع أشهر الأطباء فيليب سيرازين. وفي أخر حياته يصف مواجهته له في شكل مديح فيقول: شخصية مرموقة لكن معرفته ناقصة.

عاد الى مدينة صولون في فصل الربيع التالى، ومات أحد المرضى الآغنياء وترك زوجته أرملة في سن الرابعة والعشرين فتزوجت نوستراداموس البالغ 47 عاما. وفى مذكراته كان يشعربالاشمئزاز من الطبات الدنيا فى الحضر وعمال الزراعة فى صولون الذين كانوا يسخرون منه هو وزوجته الجديدة من خلف ظهرهما لكن زوجته كانت ترى أن زوجها يجد احتراما وترحيبا من البرجوازيين في صولون..

لقد اجتاز شمالا حتى ميلانو وقام بترجمة قصة قديمة من افيلآرشيف الكلاسيكى. ويقال أنه بات في تورين في فيلا بات فيها دانتى الليجيرى قبل هذا بقرن من الزمان. لقد نام في فينيسيا أكثر من مرة. فينيسيا التي لا تقارن ذكرت باعتبارها مصدر وجبات الحلوى ولأنها كانت مركزطبع الكتب الإيطالية والمصدرالرئيسى للكتب الكلا سيكية سحرية أو غير ذلك التي كانت تطبع باليونانية.

يثال انه كان يسير على ظهربغلته في أحدى الطرق الموحلة في مدينة مارك دى أتكونا وراى جماعة من الرهبان ونظر ألى أحدهم ونزل من على ظهر بغلته حتى لاتطرطش عليهم الماء وراح ينحنى ويركع فى بالوحل مما أدهش الرهبان الاخرين. وحين سؤل عن سبب ذلك أجاب بأنه 1هذه نبوءة الراهب الذى انحنى له كان الأخ برتى الذى اختير بابا باسم البابا سيكتوس

الخامس سنة 1585 . كان مجرد قس صغير سنه 27 عاما حين رآه نوسترادامو‌س وكان من أصل فقيرراعى خنازير وترهبن من 12عاما.

بعد ذلك وصل نوسترادامو‌س إلى روما عاصمة المسيحية الغربية، ثم ذهب إلى فلورنسا حيث أراد أ يكتسب استنارة من مفكريها وفنانيها وهو يتجول في كعبة المكتبات الكبرى والمعارض حيث كان آل مديتشى يمجدون ويحتمون بحاضرة النهضة فلورنسا.

. لقد روت عطش نوسترادامو‌س للمعرفة –

. فقد نسخ بعض الكتب التي لم يستطع أن يكملها وحملها معه. وقامت زوجته بالدعاية لأدوات التجميل التي صنعها . وبعد نجاح المشروع تقاعد عن العمل في الطب.وقد أقبلت نساء الطبقة الغنية على هذه الوصفات عى أعتبار أنها منحة من الطبيعة أى من الله، التى تأتى كل خمسمائة عام ، وعند عودة هذه الدورة تتولد لدى الناس الرغبة في البحث عن إجابات عقلانية غير أرثوذكسية .(غيرمتزمتة) .

إنها عادة متباطئ lingering في الطبيعة البشرية، أنه عندما يواجه الناس عصرا جديدا من العجائب والأخطار يبحثون بياس للوصول إلى هؤلاء الذين يزعمون أنهم ينظرون إلى المستقبل، إذ كانوا يأملون في الحصول على نصيحة من عراف تساعدهم في السيطرة على حياتهم او على أن يفهموا كيف يواجهون المرحلة القادمة .

في منتصف القرن السادس عشر كانت طباعة الكتب والثورة الأدبية تضاهى ثورة المعلومات في نهاية القرن العشرين وأوائل القرن الحادى والعشرين التي حدثت بفعل الإنترنت. إن من كانوا يستطيعون القراءة وحتى الأميين الذين كانوا يريدون أن يقرأ لهم، اتجهوا إلى اختيار نوع من كتب التقويم االشعبية لقراءة الطالع ومعرفة التنبؤات .

يشير شيفينى أنه فى سنة 1549 كان نوسترادامو‌س يعمل فعلا فى أول تجربة فى مسيرته الجديدة ، تجربة كان يفكر فيها من زمن طويل حين بدأ الطلبة فى جامعة أفنيون يلقبونه بلقب " الفلكى الصغير "كان يجرب نفسه فى كتابة كتب التقويم . ربما تحوى مخطوطاته الأدوية الطبية المعتادة ، وكذلك معلومات عن الزراعة ، فهى تحوى توليفة منها الديتى والدنيوى كما تحوى تقويما قمريا

LUNAR EMPHEMERIS .

يحـدد أفضـل الأوقـات للزراعـة والحصـاد وهكـذا. وقـد تحـوى المقـالات المعتـادة المعلومـات الفلكيـة والتنبـؤات الخاصـة بالأحـداث الرئيسـية السياسـية والآجتماعيـة بالنسـبة للسـنة القادمـة . لكـن نوسـراداموس كـان يعتقـد بوضـوح أنـه يستطيع أن يقدم زوايا جديدة في هذا النوع من الكتابة يصب فيه مخزون عقل رجل تجول طويلا فى العالم خارجيا وداخليا. وكـان يـود أن ينـتج جهـاز إختبـار فذ لتشـخيص الـوعى عـن طريـق إنبعـاث تيـار مفـرح او مفـزع ، والتعبيـر عـن ذلـك بأسـلوب نثـرى أو رباعيـات شـعرية ، مـن التـي تحمـل تنبـؤات السـنة القادمـة. والمؤسـف أنـه لا توجـد أي مخطوطـة أصـلية مـن هـذه الروائـع الأدبيـة التـي كتبهـا نوسـتراداموس لكـن المؤلـف يؤكـد هنـا أن أقوالـه مبنيـة علـى دليـل من الجهود المتأخرة رغبة في نشرها.

ربمـا أخذتـه الرغبـة علـى ظهـر بغلـة سـارت بـه مسـافة بعيـدة شـمال ليـون، وهـى واحـدة مـن مـدن نجاحـه فـي الماضـى.لقد أصـبحت ليـون واحـدة مـن أهـم مراكـز الطباعـة منـذ أسـتعمل جـوتنبرج الأدوات الخشـبية والحديديـة لطبـع الحـروف علـى الـورق، وهنـا وجـد نوسـتراداموس ناشـرا لكتبـه الخاصـة بـالتقويم. وأصـبحت كتبـه فـي أيـدى سـيدات الأسـرة المالكـة اللاتـى يعـرفن القـراءة . وحققـت أعمالـه تجاحـا فائقـا وكانـت المكافـأة الماديـة مجزيـة دفعتـه لأن يكتـب نتيجة أو تقويما في كل عام.

7- الحب عند الفرنسيين

تأليف : نينا إبتون

هذا الكتاب من تأليف الباحثة الكبيرة الأستاذة نينا ابتون، وهو من امتع الكتب التي تعالج مشكلة الحب وتاريخ هذه العاطفة التي عرفها الانسان منذ اللحظة الأولى له على هذه الارض. وفى هذا الفصل الذي نقدمه اليوم تعرض الكاتبة قصة ظاهرة غريبة ظهرت في فرنسا في أواسط القرن الثامن عشر أي قبل قيام الثورة الفرنسية بحوالي أربعين سنة تقريبا، هذه الظاهرة الغريبة في فرنسا هي" نوادي الفضائح". وتحلل الكاتبة اسباب ظهور هذه النوادى المختلفة تحليلا علميا رائعا، ثم تتحدث الكاتبة بعد ذلك عن خمسة أنواع من الحب ظهرت في تاريخ فرنسا في عصر النهضة، مع الحديث عن النماذج الانسانية التي تمثل هذه الانواع العاطفية، وقد أصبح أصحاب هذه النماذج من أشهر العشاق في التاريخ اذا استثنينا القصص التي يعرفها الجميع مثل قصة انطونيو وكليوباترا وغيرها.. وهذه الأنواع الخمسة هي:

الحب النبيل، الحب الخيالي، الحب العفيف، الحب الرومانسي، الحب المرفوض.

وحديث الكاتبة هنا هو حديث العلم والبحث والفهم الدقيق وليس حديث العبث واللهو والتسرع في التفكيروالدراسة. وقد ترجمت الفصلين التايين من هذا الكتاب استجابة لطلب المرحوم رجاء النقاش رئيس تحرير مجلة الهلال وتم نشر هذه المقالات فى شهرى مايو ويونية 1977. والفصلان بعنوان:

1 - نوادى الفضائح وأشهرالعشاق فى التاريخ

2- أغرب قصص الحب والجنس فى التاريخ

كان القرن الثامن عشر في فرنسا عمرا فاضحا في عديد من النواحي، بل كان عصرا الترويج للفضائح ايضا. فقد نظم محررو ابواب الثرثرة في صحف

باريس انفسهم في ناد سموه. "لاباروا» أي نادي الرعاية. وفى هذا النادي كان الأعضاء يجتمعون كل مساء ليتناقلوا ما حصلوا عليه من اخبار فاضحة وحكايات ونوادر مسلية لاذعة. وبعد مناقشة عامة فيما بينهم يتم تدوين أحسن القصص في أحد الكتابين المفتوحين في الصالون. كان أحد الكتابين مخصصا لتسجيل الحكايات الحقيقية الموثوق بصحتها اما الكتاب الثاني فكان مخصصا للقصص المشكوك في صحتها. وفي نهاية الاسبوع كانت تنسخ هذه القصص على رفاع من الورق ثم يقوم «جاليز» الخادم الخصوصي لمدام

" دار جنتال» المحررة المعتمدة لهذا النادي، بتوزيع اوراق الثرثرة هذه على كل الزوايا والحانات في المدينة لكي تمد الناس باخبار الفضائح واهمها.. حديث ابن الزوج مع بنت الزوجة مثلا في الصباح الباكر اثناء ارتداء ملابسهم امام التسريحة ـ كانت التعليقات التي تحمل دهشة القراء ترسل الأعضاء النادي ليتسامروا بها في المساء.

في ١٧٥٢ حاول البوليس منع هذه المنشورات الفاحشة. لكن نادى الرعاية لم يهتم فكتب وزير الداخلية الى. بيريير، رئيس البوليس يلفت نظره الى عملية " النشر الفاضحة" فقبض على « جاليز» الموزع الخصوصي واودع في السجن عدة أسابيع

لم يتناقص عدد جمعيات المجون المرحة إلا ان احداها المسماة " جمعية البهجة" ابتكرت تقويما جديدا في شكل دليل للمحبين، اذ نزعوا اسماء القديسين ووضعوا مكانها أسماء سيدات المدينة المعروفات بمغامراتهن الجريئة، وكان من راى مؤلف هذه النتيجة أن أي فتاة شقراء جميلة تسعد الخيال أكثر من صورة القديس نقولا مثلا بلحيته الطويلة. لهذا قررنا احالة القديسين جميعا الى الفردوس اليعيشوا سويا مع الاحد عشر الف عذراء لنضع مكانهم على أوراق النتيجة نوعا من الجمال اقل قسوة. سوف يعطى النبلاء، المكان الأول في هذه النتيجة، والسلطة الثالثة أى رجال الحكومة سيخصص لهم يوم الجمعة من كل اسبوع، اما السبت والاحد فسوف يعطى للمحظيات، وسوف يحجز مكان الشرف للدوقات والماركيزات اللائي قمن دائما بأدوار الريادة في أمور اللذة الجسدية.

وسوف نترك أيام الشظف والضيق لابناء الطبقة الوسطى الذين اعتادوا على حياة التقشف والزهد، أما أعياد النحس الحزينة فسوف تحل محلها اعياد سعيدة مرحة تتناسب ومزاج عملائنا الجدد المرحين. وعلى الفرنسيين جميعا أن يظهروا الطاعة والولاء وسوف يعرف عيد الختان منذ الآن بعيد رفض الختان. أما عيد التطهير في ٢ مارس فسوف يسمى عيد الحمام، وهكذا.

واستمر مؤلف هذا التقويم في تشويه المقدسات بأسلوبه الماجن على نحو أكثر بذاءة. واظن انني اقتبست من كلماته أكثر مما يجب لاعطى فكرة واضحة عن

مقاصد هذه الجمعية. وهى تلقى ضوء جانبيا هاما على مناخ ما قبل الثورة الفرنسية. فقد استبدلت الرتب النبيلة بتوليفات ساخرة بذيئة.

ففي بداية القرن انشا الماركيز دي فيرتيليه جمعية. "اللهو" وهي تتكون من ثلاثمائة عضو من الطبقة الأولى وستة آلاف عضو من الطبقة الثانية جميعهم من صغار الشباب، وقد امتدت شهرة هذه الجمعية الى البلدان المجاورة. وظهر تأثيرهم في سلوك الشباب في أسبانيا فانشغل الشباب هناك بأمور الملبس وطريقة الكلام وأصبحت لهم "لزمات" خاصة تميزهم. وكانت التعليمات الصادرة الى أعضاء الجمعية تقول:

انشروا الذوق في الملبس وهذبوه حتى يصل إلى درجة الكمال - أرسلوا الوفود الى الاقاليم ليعلموا الناس الأساليب الجديدة في اللباس والكلام كما يعلمونهم المشية الصحيحة وتسريحة الشعر المفضلة. وان يستعملوا في تأليف الروايات عبارات غير مالوفة للتعبير عن انفسهم، وأن يبثوا في كلامهم وأعمالهم لمحات الغموض والشرود حتى يظهروا بمظهر الشذوذ الكامل

وقد أعطى أحد الفرسان واسمه. موسكو لاريس، مثالا كاملا لموقف جمعية. اللهو - من الحياة في كتابه الذي كتبه وجاء فيه:

أهدى الى " اسكالازور" المقدسة التي لم احمل لها أبدا الا عاطفة عابرة، لوحة عليها صورتي، وياقونتي الحمراء ونعجتي وارنبتي الوحشية ذاتا الاذنين السوداوين والسيقان الطويلة والذيل القصير، كانت (سكالازور) تحبني دائما حبا رقيقا. ومن هذا استنتج انها سوف تحب كلبي ايضا.

ساطلب اليها ألا تبكى فذلك يشوه جمال عينيها كما اطلب إليها أن تتحدث إلى صورتي كل يوم كما لو كنت حيا. انني أعلم انه ليس هناك ما هوأكثر ايلاما للنفس من الحديث الى رجل لا يتكلم ولا يتحرك. لكنني لا أهدى شيئا الى " مارثو" التي شوهها الجدري فلم تعد ذات فائدة بالنسبة للحي او للميت. اما مجموعة عطوري فانتي أهديها الى " سافوي" فتاة الأوبرا التي لا تحسن الشم بشرط ان تضع البارفان يوميا مرتين. ثم اهدى القا وثمانمائة، فرنك إلى بائعات الزهور في باريس ليقمن بتزيين الشارع الذي ستمر فيه فيه جنازتي بالورود. يجب ان يبدو الموت كشي، بهيج

اني اترك حياتي كلها التي تتكون من الزيارات والانحناءات والتحيات وأدوات الزينة ، والتهاني والهفوات وجلسات العشاء الحافلة بأحاديث المودة والحب وجولات سيرى القصيرة. أهديها جميعا الى من يكتبون للمسرح، فقد يستخرجون منها ما يفيدهم في تسلية الجماهير وتعليمها لأن الناس في حاجة ماسة لمثل هذه الدروس. بالاضافة الى هذا، كانت توجد جمعية سرية أخرى يلتقى اعضاؤها في منشآت خاصة، هذه الجمعية هي جمعية "افروديت" تحت رعاية

الماركيز دي بالماريه الذي احتفظ بمركز ادارته الرئيسي بباريس حتى اندلعت الثورة فتشتت افرادها، بعضهم سبق إلى المفصلة لقطع رؤوسهم الماجنة والبعض الآخر فر إلى أماكن أخرى ليمارس نشاطه فيها.

لم يكن الانضمام إلى عضوية افروديت، أمرا سهلا فضلا عن تكاليفه الباهظة. اذ كان على كل عضو جديد ينضم للجمعية أن يدفع رسم دخول يتناسب مع حالته المالية ثم يدفع رسوم العضوية التي تبلغ عشرة آلاف فرنك للرجل وخمسة آلاف للسيدة. أما المماطلون عن الدفع فكانوا يطاردون بلا هوادة حتى اذا تطرق الأمر الى مسألة شطبهم من قوائم الجماعة كانوا يسرعون بدفع ديونهم في الحال. ويهملون ديونهم الأخرى حتى لا يحرموا من المتع التي يوفرها هذا النادي .

كان لجماعة. افروديت، مقر ريفى في مونتمرن، خططت حدائقه بطريقة ملائمة تماما لقضاء أوقات المتعة. كان الموقع محاطا بالاسوار العالية من الخارج لتحجب عنه العيون. أما في الداخل، فكانت مساحته واسعة مقسمة بطريقة بارعة الى غابات صغيرة وأجنحة وزوايا تلفها الأشجار، الى جانب السراديب والمتاهات. أما المبنى الرئيسي المسمى. بالتكية، فكان مصمما على شكل استراحة رعوية. فصالة الاكل تمثل غابة طليت أغصانها بالوان صناعية، وهذه الاغصان تستدير الى اعلى لتصنع قبة زرقاء. أما يقع الحشائش وجذوع الأشجار المقطوعة ثم الاعمدة الرخامية فقد وزعت بمهارة شديدة تعطى الزائرين إحساسا بأنهم ينامون في إحدى القلاع.

هناك أيضا بناء دائرى كبير تحيط به ممرات ترتفع على جوانبها أعمدة كالبواكى، وكانت هذه القاعة مخصصة للإجتماعات حيث يوجد في وسطها مذبح تحيط به تماثيل آلهة وإلهات الحب. وعلى الجوانب توجد مجموعة من المقاصير الخاصة منجدة بقماش قرمزى اللون ومعلق عليها ستائر من شاش فضى اللون لتخفى جلسات الحب الخاصة. وكانت كل مقصورة مزودة بعدة فتحات موضوعة ببراعة شديدة لتتيح الرؤية.

مسيو بوساج، المهندس المعمارى الذى قام بتصميم هذا المبنى ، ابتكر أيضا قطعة من الأثاث لتهىء الراحة أكثر من السرير وسماعا الافتتاح، وقد أعدها اعدادا خاصا لتلائم اللقاءات الغرامية.

كانت عضوية الجمعية محصورة في مائتين من ابناء الاريستوقراطية. وكان الراغبون في الانضمام يتعرضون لاختبار حب عسير يفحصون خلاله فحصا دقيقا لمدة ثلاث ساعات. وكان يراس جلسات الاختيار كبار اعضاء الجمعية الذين لا يقبلون الرشوة.. كان الفائزون يعطون تيجانا، وكان العضو الجديد الذي لا يحصل على سبع تيجان في مدة ساعات الامتحان الثلاث لا يتمتع بتقدير باقي الاعضاء

على اعتبار أن معلوماته وخبراته الغرامية لا تؤهله لذلك. كانت حفلة الاستقبال شيئا رائعا وتنتهى عادة برليمة كبرى تليق بأحد آلهة الرومان الماجنين

لقد حفظت لنا الايام صحيفة لاحدى جماعات "افروديت" قدمت السيدة فيها قائمة تضم ٤٩٥٩ علاقة غرامية في مدة عشرين سنة - والعدد ليس كبيرا بالنسبة لسمعة هذا النادي - يشمل الرقم الحالات الآتية:

٢٧٢- اميرا وكاردينالا.

٩٢٩- ضابطا.

٩٣- حاخاما يهوديا

٣٤١- من رجال المال

429 -راهبا من طريدي الجزويت

٤٢٠ من رجال المجتمع

٢٨٨- من العامة

١١٧- من الخدم

٠٠٢ من الاعمام

١٢ . من أولاد الاعمام

١١٩ -موسيقيا

٠٤٧ - من الزنوج

١٦١٤ من الأجانب. اثناء غياب اجباري بلندن ربما أثناء الثورة

وواضح ان هذه السيدة مثل كثير من محترفات الخطايا كانت تهوى كتابة الاحصائيات.

ننتقل مع الكاتبة نينا إبتون من نوادى الفضائح الى الحديث عن أشهر العشاق فى فرنسا؛ والذين يعتبرون أيضاً من أشهر العشاق فى التاريخ؛ وهذه النماذج التى تقدمها نينا إبتون كلها ظهرت فى عصر النهضة.

1- الحب النبيل: فرنسوا الأول

فرنسوا الأول (1494 - ١٥٤٧) هو ملك فرنسا ما بين سنة ١٥١٥ الى سنة ١٥٤٧ ، دخل حروبا عديدة وكان محبا وراعيا للآداب والفنون.

حتى اللوحات التي رسمت لفرنسوا الأول في سنواته الأخيرة تكشف عن بريق مرح في عينيه، وابتسامة خبيثة على شفاه شهوانية وفم يميل قليلا إلى السخرية. وكذلك مزيج من الكياسة والشهوانية يميزه كما يميز اخته الاديبة مارجريت دى نافاري بل عصر النهضة كله. لكن فرنسوا كان قد قرا "اماديس" واماديس هي القصة الرومانسية الشهيرة التي تمثل الفارس المثالي والتي انتشرت في عصر النهضة، وكان فرنسوا يتمتع بموهبة شعرية وأيضا كانت لديه بقية من نبالة العصور الوسطى. فقد كان عاشقا للنساء لكن في" كياسة واعتدال" على حد تعبير مؤرخ معاصر له. فالنساء كن يزين قصره لكن لا يحكمن فيه، وقد فرض فرنسوا على رجال حاشيته احترام السيدات.

لم يكن ذلك بفعل قراءته لأماديس فقط بل جاء ايضا نتيجة لتأثره بسيدتين مرموقتين ربناه وهو صغير، وهما أمه لويزدى سافوى، واخته الشاعرة مارجريت نافاري فقد كانتا مسئولتين عن روح الفروسية المهذبة التي يتحلى بها. ففي تلك الايام كان معظم البنين يؤخذون لينشأوا بعيدا عن أمهاتهم. لكن فرنسوا كان استثناء من القاعدة، كذلك كان معلمه فرنسوا دى موليير لا يكف ابدا عن تذكير تلميذه الامير من أن (المرأة خلقت من ضلع آدم بالقرب من قلبه ولم تؤخذ من قدمه) ولم ينس فرنسوا هذا ابدا اذ كان يثني على السيدات ويقول انهن كالسيوف في مقدورهن ان يجعلننا شجعانا». وبسبب تربيته بين النساء لم يكن بوسعه ان يعيش بدونهن. كان يستمتع بجمالهن ولياقتهن وعطورهن. وفي الحالات النادرة اللاتي كن فيها يتمنعن عنه، لم يكن يلح عليهن. وصيفة شابة عفيفة، لم يغفر لها صده فقط، بل زوجها وأعطاها منحة يقول برانتوم مؤرخ اكبر فضائح القصر: إن الملك اعتاد ان يردد امامهم" ان أي رجل يحاول ان يخدش شرف سيدة في قصره سوف يعاقب بالشنق"

اما اشهر عشيقات الملك فرانسوا الأول فهي فرانسوا دى شاتوبريان. فقد تزوجت هذه الفاتنة في الحادية عشرة من عمرها وانجبت لزوجها طفلا بعد عام من الزواج، وبعد عشر سنوات اخرى سمع الملك عن هذه الجميلة التي تعيش في قلعة زوجها بمقاطعة بريتاني ، فصمم على أن يدعو الزوجين الى قصره. وكانت سمعة الملك الحبيب معروفة جيدا للجميع، فشك زوجها في الأمر ورد على دعوة الملك بأن زوجته خجولة جدا لا تستطيع الظهور في بلاطه، ولم يتراجع الملك بل زاد ذلك من اهتمامه فسرعان ما ارسل خطابا آخر، وهنا قرر الزوج أن يذهب إلى

القصر بمفرده. ولم يكد يراه الملك حتى شعر بخيبة الأمل وأمره قائلا: اكتب فورا الى زوجتك طالبا منها أن تحضر سريعا الى هنا. وفى الحال كتب جين الخطاب تم اطلع عليه الملك وراح يفرك يديه سرا. اذ كان قبل رحيله عن موطنه في بريتانى قد اتفق مع زوجته على حيلة بسيطة، فقد كان يملك خاتمين متشابهين تماما ترك أحدهما للزوجة وأخذ الخاتم الآخر معه ثم قال لها: "اذا كتبت لك خطابا بأن تحضرى للقصر دون أن أضع خاتمي هذا في داخله فاجيبي بانك مريضة ولا يمكنك الحضور. أما اذا بعثت بخاتمى داخل مظروف الخطاب فاعلمي أن الأحوال ملائمة لكي تلحقى بى.

وبعد أيام قليلة وصل رد الزوجة متأسف فيه لعدم حضورها بسبب مرضها. وفى الحال أمره الملك بأن يكتب لها رسالة ثانية، وكان جين قد ارتكب خطا فاحشا إذ كشف لخادمه الخاص عن حيلته التي اتفق مع زوجته عليها. وهنا ذهب الغلام وافشى السر للملك طمعاً في مكافاته.

وفى ذات ليلة والحاشية تتناول العشاء، سرق الملك الخاتم من جين واعطاء لصائغ القصر الذي صنع نسخة تشبهه تماما ثم أعاد الخاتم الى مخبته . وقد تم ذلك كله في وقت قياسى اذ استولت على فرنسوا حالة مرح خبيث مكنته من أن يطيل في وقت السهرة. إذ راح يغني أغنيات من تأليفه، ثم نظم مباراة في سرد قصص الفروسية وأشرك فيها الحاضرين - وفى النهاية قال لجين كم وددت ان تكون زوجتك معنا. ان ذلك سوف يفيدها كثيرا. اخرجها من فوقعتها لتحيا قليلا في القصر. ارجوك يا عزيزي ان تكتب لها ثانية الآن. وكان رد جين" امرك يا سيدي " وعلى الفور قال له الملك "اكتب خطابك الليلة وسلمه لي في الصباح لارسله سريعا مع رسول خاص"، ولم يكد يمسك الملك بالخطاب حتى وضع الخاتم معه في المظروف ثم راح يضحك كصبي صغير.

وصلت فرنسواز الى القصر وسط عاصفة مثيرة. فقد كان افراد الحاشية يتسلون برؤية الزوج وهو يحترق بغيظ مكتوم. أما الملك، فلم تكد عيناه تقعان على عيني فرنسوا البنفسجيتين حتى هام بها حبا - ولم تكن فرنسواز خجولة كما قيل، بل كانت سيدة فطنة لا تريد أن تستسلم لنزوات الملك بسهولة. فقد ظل الملك يحاول معها ثلاث سنوات حتى اقنعها في النهاية بالتجاوب مع رغباته.

كان فرنسوا محبا صادقا يتلق مع جيوم لوريس في قوله " ان من يفوز بالجائزة لابد أن يدفع الضريب، لان مذاق اللعبة يكون دائما احلى لمن انهكت اقدامهم سخونة السباق"، لم يكن فرنسوا يقبل على ذوى الفضيلة من الناس وكان

يعتبرهم منافقين، ومع ذلك، لم تكن من عادته أن يرغم امراة قسرا على شيء. فقد كان يؤمن بان اعظم متعة في الحب تتحقق فقط حين تقنع امرأة بأن تسلمك تفسها من طيب خاطر

وفى النهاية ارسل جين الى موطنه بريتاني حيث لحقت به الزوجة.. بعد وفاة الملك فرنسوا. وكأنه كان ينتظر هذه اللحظة لكي ينتقم لنفسه. فبعد قليل مانت فرنسواز في ظروف غامضة. وقيل انها قتلت بيد ستة أفراد من الخدم بناء على أمر الزوج الذي ارتمت وهي تنزف تحت قدميه حتى فارقت روحها الحياة. وهنا ارسل هنري الثاني ونتمرنس ليتقصى حقيقة ما حدث فلم يكتشف شيئا، وبرلت ساحة الزوج. لكن وصية الزوج كشفت بعد ذلك انه حرم ابناء اخونه وجميع أقارية من الميراث وفضل عليهم مونتمرنس. الذي كان يحقق في جريمة مقتل الزوجة والذي قرر براءة الزوج من دم زوجته، ومعنى هذا ان مونتمرنس كان مرتشيا وأخفى جريمة القتل.

لم تكن فرنسواز هي المرأة الوحيدة في حياة الملك فرنسوا الأول. كانت هناك زوجته إيانور الاسبانية وكذلك آن دوقة ايتامييز ذات الجمال الفتاك التي كانت تنافس به ديانا دى يويتييرز. وكان الملك يجد حوله في بعض الأحيان ثلاث نساء يردن ممارسة الحب وكتب ذات مرة قصيدة في هذا الموضوع تقول:

انا احب ثلاثة معا فانا مرغم وحزين

لسوء الحال لم تكن أمور الحب محصورة في أروقة القصر القريبة او داخل هذه الاماكن فقط بل كانت اصداقها تتردد في كل مكان من فرنسا، وبدات النساء يدخلن في لعبة السياسة حتى يمكن أن تكيد بعضهن لبعض. اذ قيل ان دوقة ايتامييتر قد اندفعت في حماة الحقد على منافستها ديانا الى تسليم بعض الأسرار العسكرية الى شارلي الخامس ملك اسبانيا حتى يتربص بهنري الثاني ولى عهد فرنسا وعشيق ديانا.

2-الحب ... الخيالي

هنري الثامن

هنرى الثاني (١٥١٩ - ١٥٥٩) حكم فرنسا من ١٥٤٧ الى ١٥٥٩،

وهو ابن فرنسوا الأول وقد مات مقتولا.

حين اطلق سراح فرنسوا من الأسر في اسبانيا، اضطر ان يترك ولديه فرنسوا وهنرى كرهائن. وقد نال هذان الشابان حريتهما حين وافق فرنسوا الأول على الزواج من اليانور، اخت شارلي الخامس التي وقعت في حب فرنسوا اثناء سجنه في مدريد. كان للقاء الوالد بولديه وخطيبة ابنه نتائج بعيدة الأثر في دنيا الحب. فحين تقدم الابنان لتقبيل ابيهما، احاطت بهما نساء القصر. كان هنرى في الحادية عشرة حينذاك. لكن حين تقدمت منه سيدة ذات نوع خاص من الجمال، احس بمشاعر النضج المبكر تغمره وتهزه. كانت هذه السيدة زوجة للويس دى بريز كونت دى سوليفرى كبير الخدم في نورماندي. وهذه السيدة معروفة جيدا في التاريخ باسمها العذري الجذاب ديانا دى بويترز. كانت هذه الفاتنة حين التقت بالامير تبلغ الحادية والثلاثين من عمرها. وشأت الصدفة العجيبة أن تصبح عشيقته لتسع وعشرين سنة.

فبعد عام من هذا اللقاء، أقيمت حفلة تتويج اليانور زوجه فرنسوا الأول. وحين انتهت مراسيم الحفل اهدته مباراة الشطرنج والتنس. وشارك فيها الأمراء الصغار. وحين جاء الدور ليتقدم كل واحد منهم ليحيى من يختارها من السيدات ازدادت دهشة الجميع وهم يرون هنري ينحني بقامته لديانا التي كانت تجلس مع الأخريات بما فيهن آن دى بيسيليين، ودولة ايتاميز ذات الجمال العصري المحبوب.

وفى نهاية الاحتفالات أجريب مباراة لانتخاب أجمل سيدة فنالت آن نصف الاصوات وذهب النصف الثاني لديانا، ولم تغفر آن لديانا هذا الموقف. فقد كانت ديانا في الحادية والثلاثين، وكان ينبغي أن تعتبر عجوزا بمقاييس ذلك الزمن.

ثابر هنرى اكثر فاكثر على هذا الحب فزواجه من كاترين دى مديتش وهي فتاة صغيرة السن بسيطة لم يبدل عواطفه نحو ديانا بل زادها نأججا اذا استمر في ارتداء ألواتها المفضلة "الاسود والأبيض" وظل يدعوها بسيدته ويرسل لها قصائد الشعر المليئة بغزل صبياني لا يصل الى مستوى موهبة أبيه الرقيقة.

وقيل أن ديانا قد اصبحت عشيقته بعد حياة فاضلة، وظلت كذلك لمدة تسعة وعشرين عاما قضتها مع هنرى في قلعة أن مونتمرنس كبير المعلمين بدعوة منه.

وكانت لهذه القلمة سمعة بذينة فشبابيكها قد ازدانت بمناظر مكشوفة جدا حتى أن الضوء كان يتورد خجلا وهو يكشف عنها» اقامت كاترين مع هذه المنافسة الشقراء بصير ودبلوماسية حتى وفاة زوجها. فكان أول شيء قامت به هو ان تامر ديانا بان تعيد جواهر التاج التي كان هنرى قد أعطاها لها مع باقي الهدايا الثمينة،

وقد ظلت كاثرين الحاكم الفعلي لفرنسا طوال حكم ابنائها الثلاثة الماجنين فرنسوا الثاني، وشارلي التاسع وهنرى الثالث.

ترى ما هو سر جمال ديانا دي بويترز ؟

في عصر لا يزال الناس فيه يعتقدون في السحر، قيل انها كانت تحتسى مشروبا ذي قوة خرافية على جذب المحبين. فكان كل انسان براها جميلة وكانت النساء جميعا يقلدن حركاتها، وتسريحة شعرها، ومشيتها حتى انها اصبحت نموذجا للجمال المثالي يحاول الجميع أن يحاكيه. ودامت شهرتها أكثر من مائة عام.

وقد تأكد لنا أن ديانا كانت تتبع علاجا لا تقوى عليه في هذه السن الا قلة قليلة من اشجع النساء. إذ كانت تستيقظ قبيل السادسة صباحا وتاخذ حماما باردا. وهذه العادة لم يكن يمارسها سوى التائبون النادمون من المسيحيين، وهناك كثير من القصص التى كانت تروى عن فائدة حمامات الماء البارد التي كانت تؤخذ لتحفظ طهارة الجسم. وكانت هذه العادة تمنح ديانا بشرة مشعة وحيوية نادرة " لم تستعمل اندا طلاء أو مساحيق" وحين كان هنرى ملكا صممت كاترين زوجته على أن تكشف سر فتنة ديانا الساحرة، فامرت بعمل عدة ثقوب في سقف حجرة ديانا في نفس القصر. وكتب برانتوم يقول «رأت من خلال الثقوب امرأة بيضاء رقيقة في عاية الجمال والحيوية» تستلقى نصف عارية لا يستر جسمها غير قميص شفاف، وتظل تداعب عشيقها وتلاطفه وتغمره بفيض من السحر والطيش اللذيذ مما يستجيب له العشيق ويبادلها اياه.

باختصار لا يوجد شيء جديد في هذا. فانا اعتقد أن فن الحب لم يكن هو سر سيطرة ديانا على هنرى. فلنبحث عن مفتاح السر في مكان آخر. كان سر ذلك يكمن في قوة الخيال المتقد عند هنرى نفسه. اذ كان حالما قضى سنوات صباه المبكر في سجن كتيب في اسبانيا، فزاد هذا من حدة خياله. كذلك قرا عددا لا يحصى من القصص وتشرب مثل العصور الوسطى بدرجة خيالية تتجاوز كثيرا حالة ابيه. وكانت ديانا هي اول امراة وقعت عليها عيناه الواسعتان المليئتان بالتفكير حين اتصل بالعالم لاول مرة. وجمالها الفضى البارد الصعب المنال جعلها تبدو (كإمرأة بعيدة جدا يصعب الوصول إليها) إنها المرأة المثالية التي كان يهفو الأمير إليها سرا في أحلامه. كانت تجسيدا لاسطورة وتحقيقا لحلم، ولا يمكن ان يوجد رباط اقوى من ذلك. لا غرابة اذن انها حكمت أطول من أى عشيقة اخرى.

ذهب برانتوم لزيارة ديانا قبل وفاتها بشهور قليلة في الخامسة والستين

فكتب يقول انها مازالت جميلة ولم تلجا لأى خداع بل أخبرته انها تشرب كل صباح حساء يتكون من ذهب مذاب مع بعض العقاقير الكيماوية الأخرى. ولقد صاح برانتوم الشجاع قائلا " من المؤسف أن يهال التراب على هذه الاجسام الباهرة».

ماتت ديانا فجأة بعد ستة أشهر وكان تأثيرها مهلكا. فظمؤها للمال كان لا يرتوى ابدا ووصل بها الى حد انها طلبت المال الذي جمع من الضريبة المفروضة على اجراس الكنائس. وقد جعل هذا رابيليه يعلق قائلا « لقد علق الملك اجراس مملكته حول رقبة فرسه.

3-الحب.. العفيف

مارجريت نافارى

« مرجريت نافارى» ١٤٩٢- ١٥٤٩ ملكة « نافار » واخت فرنسوا الاول ملك فرنسا، كان بلاطها ملتقى الادباء والشعراء. ألفت مجموعة قصص من ٧٢ قصة هي هيبتامرون تعد من روائع ادب عصرالنهضة.

لم يكن بالقصر سيدات فاضلات ابدا؟ كلا.. كن موجودات فعلا وكانت اشهر من هن جميعا مرجريت دى نافارى شقيقة فرنسوا الأول التي قيل أنها كان لها أكبر الأثر في تهذيبه وتمدينه. وكانت أحدى اديبات ذلك العصر القليلات. وكانت جريئة بدرجة اتاحت لها أن تدعو الى الحب العفيف بين الازواج. وكان هذا أمرا يثير الأعجاب كثيرا ، لان الاميرة المتالقة لم يكن لها أى تجربة سعيدة مع هذا الحب

كان عليها أن تناضل وتقاتل في سبيل الاحتفاظ بسمعتها النظيفة. يتضح ذلك من احدى المناسبات التي وصفتها وصفا مرحا في كتابها هيبتاميرون.

فقد وقع الادميرال دي يونيفيه في حبها.. وكان هذا الرجل من أقرب اصدقاء الملك، وقرر أن يفعل كل شيء حتى يجبرها على الاستسلام له، حتى لو اضطره ذلك الى استخدام المكر والحيلة لان محاولاته معها رفضت بحسم واصرار قاعد مخبا خاصا في إحدى حجرات النوم بقلعة دي شاتوليريه، ودعا الملك والحاشية لقضاء بضعة أيام عنده، وخصص هذه الحجرة لمارجريت التي كانت في صحبة الحاشية. وفي احدى الليالي، بعد أن نام الجميع، تسلل يونيفيه من الباب المسحور الى سرير مرجريت، فهبت الاميرة غاضبة ثم أطلقت صيحة مدوية تطلب النجدة. حاول يونيفيه ان يسكنها واستخدمت مرجريت أسنانها وأقدامها جيدا

لتتخلص من هذا المعتدى الجسور. وبعد قليل اندفعت الوصيفات الى حجرتها وهن يحملن المشاعل، فلم يجد يونيفيه بدا من القرار قبل ان تتكشف حقيقته. لم تذكر مرجريت هذا العمل الفاضح لاخيها الملك، ولكن لأنها أدبية بالفطرة، فلم تتردد في ان تروى هذه القصة في كتابها.

وضعت مرجريت كتابها " هيبتاميرون" في شكل مناقشات بين جماعة من الفرسان وجماعة من السيدات، اجتمعوا لهذا الغرض في واد جميل. ويعتبر هذا الكتاب استمرارا لمجالس الحب في العصور الوسطى. ومرجريت تعرض وجهات نظر الجماعة في الحب ثم تورد حكايات مسلية مليئة بالحيوية، منتقاة من حياة القصور والقلاع. أما أراء مرجريت الشخصية فنقصها على لسان سيدة وهمية اسمها بارلانت، وكانت بارلانت المع نساء الجماعة وارجحهن عقلا. اما هذه الأراء فقد كانت دينية في عمومها تعكس افكار الإصلاح ونظريات افلاطون التي كانت موضوعا لنقاش واسع في العصور الوسطى.

ماذا تسمين الحب الكامل؟

سؤال طرحته احدى السيدات هل تعنين هذه الارواح الباردة التي تتعبد في جمال المحتويات من بعيد دون ان يكتشفوا " أفكارهن"

وردت عليها بزلانت:

انا اسمى هؤلاء الرجال محبين كاملين، لانهم حين يحبون يبحثون عن بعض الكمال، سواء كان هذا في الجمال أو الخير او أساليب الرشاقة. انهم يناضلون دوما من أجل الفضيلة، يملأ قلوبهم هدف أسمى من كل شيء، حتى إنهم يفضلون لقاء الموت على ارتكاب أي عمل شائن. ذلك لأن الروح التي خلقت لتعود ثانية إلى منبعها الطاهر، تتشوق دائما وهي حبيسة الجسد، الى الرجوع الى هناك، لان الحواس التي تحصل عن طريقها على المعرفة لا ترينا ما هو اقرب الى الكمال سوى اشياء مرئية، والارواح تتبع هذه المرئيات ظنا منها أن تجد في الرشاقة المرئية والفضائل المثالية والجمال المثالي والفضيلة الاخلاقية هذه نموذج الرشاقة المثالية. وحين لا تعثر الروح على ما تصبو اليه، تترك هذه الأشياء الى غيرها كالطفل البرىء الذي يحب الدمى والاشياء التافهة، ويظن أن كومة من حصى الارض ثروة عظيمة لكنه حين يكبر ويصير رجلا ناضجا فانه يحب الدمى الحية والثراء الحقيقي. هكذا الروح حين تكتشف بعد تجربة قاسية انه لا يوجد كمال ولا سعادة في الأشياء الارضية، تتجاوزها وتروح تبحث عن الله ... مصدر كل سعادة وكمال».

4-الحب... الرومانسى

لويز دى لاجين

كانت لويز دى لاجين واحدة من أجمل وصيفات مرجريت ناڤارى . كانت شقراء رقيقة زرقاء العينين. تزوجت من نبيل اسمه انجوران، أتهم ظلما بخيانة وطنه وتسليم احدى القلاع لشارلي الخامس. وبسبب هذه التهمة ألقي به في سجن الباستيل. وسرعان ما اختفت زوجته لويز من القصر، واختفى معها في نفس الوقت خادمها الصغير روبين ليروكيس، وقد ادى ذلك الى كثير من الأقاويل الخبيثة. أما مرجريت التي كانت تعرف لويزجيدا فقد رفضت أن تصدق كلمة واحدة مما يقال عنها.

وفي ذات يوم جاء الى مرجريت رسول يحمل رسالة من انجوراند يرجوها فيها أن تستخدم نفوذها عند الملك حتى يوافق على مقابلته، لأنه قد أصبح يملك الأدلة الكافية لاثبات براءته. كلمت مرجريت الملك الذي لا يرفض لها طلبا، وارسلت الأوامر الى الباستيل لإحضار السجين ليمثل أمام الملك في اليوم التالى.

وفى تلك الأمسية علم الملك وهو بتناول غداءه أن رجلا قد وصل من جبهة القتال ويريد ان يراه فورا لانه يحمل للملك اخبارا من رئيس الأركان. دخل الجندي الى حضرة الملك وسلمه خطاب القائد الذي برف إليه أخبار انتصار باهر تحقق لهم ثم يعقبه بثناء حار على حامل الخطاب لأنه (فارس يقظ ساهم باكبر نصيب في نجاحنا) وهنا أمره الملك أن يرفع طرف الخوذة من على وجهه حتى براه جيدا، لكن الجندي توسل الى الملك أن يمهله الى الغد لانه اقسم للعذراء على ذلك ولا يستطيع أن يكشف عن وجهه الا في اليوم التالي. ووافق الملك على ذلك قائلا " اذن فاحضر غدا لتراني. "

وفي اليوم التالي حضر سجين الباستيل ودخل على الملك ملفوفا في عباءة واسعة ثم خر عند قدمي الملك ساجدا، ثم رفع رأسه فشهق الملك من هول المفاجاة، واقتربت مرجريت كثيرا. فقد نزع السجين قبعته، وظهرت خصلات شعره الاشقر الطويل تتدلى على كتفيه، وعيناه تترقرقان بالزرقة وهما تتصفحان عينى الملك يشوق ثم تتحول منجذبة الى مرجريت التي صاحت: " لويز..إنها لويز"

لقد اعطت لويز لحارس الباستيل رشوة حتى سمح لها أن تأخذ مكان زوجها الذي ذهب الى الحرب ليرد اعتباره. ولم يكن الجندي الغامض بالأمس الا زوجها انجو. وبعد أسابيع قليلة أقيمت مباراة رياضية تكريما لهذا الفارس وزوجته الشجاعة

التي شحبت وجنتاها بعد بقائها في السجن عدة أسابيع.

#####

وهناك قصة أخرى تكشف لنا عن هذا الموقف الرومانسي الشجاع في مجال الحب وبطلة هذه القصة امراة ايضا فقد كانت مبارزات النار لاتزال تعقد من وقت لاخر.. فارس يريد ان بثار لنفسه من فارس اخر فيدعوه للمبارزةزة. وكان فرنسوا يتلقى باستمرار طلبات الاذن بذلك. وفي ذات يوم جاءته رسالة موقعة باسم شوازيل احد النبلاء. قال ان زوجته اتهمت بالخيانة من قبل فاليران دى كوبى وهو يريد أن يتحدى هذا الفارس. ويرجو الملك ان يحتفظ بالاسماء سرا حتى يجنبه الفضيحة العلنية. وافق الملك وكانت هذه اخر مرة يستجيب فيها لمثل هذا الطلب. لقد اكتشفت حقيقة الطالب أذ به هو الزوجة المغتصبة ذاتها اليكس دي دريكان التي صممت على ان تقابل فاليران الحقير شخصيا وتنتقم الشرفها منه. ومع أنها كانت محاربة عظيمة إلا أنها لم تكن ندا لفاران الواثق من نفسه ـ لكنها قابلته فبينما كان سيفه يخترق طرف خوذتها، اذا بها تقفز بحركة رائعة امام الفارس المبهور ثم تغرز سيفها في رقبت.

5-الحب... المرفوض

اغنية بسيطة كانت تتردد فى شوارع باريس عام 1577 وهى واحدة من الاغنيات التى كان يرددها الشعب اعلاناً لصوته فى ذلك الوقت. ولا يوجد أمامنا مصدر أخر للتعرف على افكار الشعب ازاء احداث عصرهم هذا غير كتب اغاني باريس القديمة.

تقول تلك الأغنية

مونتمرنس. تذكر حبيبتك بين، التي لا تنام ليلا أو نهارا... لا تنس العهد الذي ترتبط به. كانت جان دى ببين وصيفة كاترين دى مديتش زوجة هنري الثاني ملك فرنسا. واحدة من جماعة مشهورة من السيدات الجميلات تعرف " بالسرب الطائر" اشيع ان الإيطالية الماكرة تستخدمها الاغراض سياسية. لقد عرفت كاترين قوة الجمال.. وذاقت هي الأمرين شخصيا من منافسة ديانا دي يويتييرز لها في حياة هنري فحولت الجمال الى سلاح لافساد أهم قادة البروستانت في ذلك الوقت. وقد لاحظ برانتوم ان هؤلاء السيدات كن في غاية الحرص حتى لا تنتفخ بطونهن. فلا تكاد تحمل احداهن حتى تطرد من البلاط او تزوج ان امكن لاحد نبلاء الاقاليم.

كانت جان دي ببين فتاة فاضلة رقم نظراتها العذبة، كانت شقراء طويلة صارخة

الجمال سوداء العينين هام بها فرنسوا دى ونتمرني حبا وكان هذا الشاب ابنا للكونتابل الشهيروتم زواج المحبين سرا حتى يتهيا له الوقت ليحرر إرادته من سيطرة والديه.

كان الزواج بالكلمة، شائعا في ذلك الوقت. وكانت مراسيمه بسيطة تتكون من تبادل للخواتم والقبلات فى الكنيسة أمام الله وهو خير الشاهدين. هذه الزيجات المزعومة؛ لم تكن شرع، ويمكن فسخها عن طريق الكنيسة او مجلس الحكم، وكانت تؤدى الى اساءة بالغة للمحبين.

وكان لهنري الثاني ابنة غير شرعية، هي ديانا دي فرانس التي تزوجت من دوق كاسترز ثم وافته المنية ففكر والدها في أن يزوجها من فرنسوا مونتمرنس، وناقش الأمر مع والده، فشعر الوالد بالفخر" يلاحظ ان هنرى الثاني كان اقل ملوكه فرنسا انجابا للابناء غير الشرعيين. لان زوجته گاترين دى مديتش وعشيقته ديانا كانتا تراقبان الوصيفات بحرص شديد "

ودهش الكونتابل مونتمرنس حين رفض ابنه هذا الزواج المقترح وغضب اكثر حين علم سبب الرفض، ولما عرف الملك بما حدث، اتخذ اجراء شاذا.

ففي ١٦ اكتوبر ١٥٥٧ انعقدت بقاعة اللوفر محكمة لمحاكمة العاشقين. وكانت هيئة المحكمة تتألف من كاردينال تورين واسقف اللوفر وأساقفة كل من سوسان وأوليانز بالاضافة الى مستشار الدولة ورئيس البرلمان الذي اخذ يسأل العاشقين الصغيرين، فصرح كل منهما بأنه قد نذر نفسه لهذا الزواج. وعارض أعضاء المحكمة أن يفرض على الابن وجوب الحصول على موافقة والديه قبل الزواج، فلم يصلوا الى قرار فرفع الكونتابل الأمر إلى روما. وكان البابا يطمع في أن يزوج ديانا دي فرانس ابنة هنري الثاني غير الشرعية لاحد ابناء أخونه فتردد في أول الأمر. ثم أعلن بعد ذلك انه يمكن ان يبطل هذا الزواج لو جاءه تقرير مكتوب من الزوج يتبرأ فيه من زواجه، وفي نفس الوقت ارسلت جان دى بيين الى دير بنات الله بباريس. واستمر الاب والام يجادلان أبنهما الشاب حتى ضعف في النهاية واستسلم لرغبتهما. اما خطابه البارد الى جان الذي يعلن فيه قطع علاقته بها فقد نقل الى حوزة ابنائه مع ردها الكريم.

ارسل فرنسوا خطابه الذي املاه والده عليه الى جان مع رسول. وحين وصل الرسول إلى دير الراهبات قرات جان الخطاب في حضوره " وقد اكتشفت الخطا الذي وقعت فيه دون روية، فانني اعتقد انه من الخطأ أن أسيء الى الله والى الملك والى والدى، ولهذا فاني اتبرأ من كل العهود والوعود التي قطعتها لك" وبعد قراءة

هذه الرسالة المبتورة تالقت الدموع في عينى جان فجففتها قبل أن تجيب: "هذه ليست النغمة التي اعتاد السنيور أن يكتب لي بها". ثم اضافت « ان االسنيور مونتمرنس يثبت هنا ان قلبه اضعف من قلب إمراة . وليس لدى ما اقوله اكثرمن هذا» وبعد ثلاثة أشهر تزوجت جان نبيلا من نافارى.

8-أغرب قصص الحب والجدنس

فى التاريخ

فانون المجلس الذى يقوم باختبار القدرة الجنسية للزوجين:

في ١٦ فبراير سنة ١٦٧٧ تقرر الغاء أحد قوانين النظام القديم للأسرة، وكان هذا القانون فاضحا جدا واسمه ((قانون المجلس، ويحدد قاموس. قورتير، معناه پايه ممارسة الجنس بأمر يصدر من أحد القضاة الدينيين بحيث يتم ذلك في حضور عدد من الجراحين والاطباء والمشرفات، وذلك للتأكد من وجود القدرة الجنسية لدى الزوج، واذا ثبت أن الزوج عاجز تقرر ابطال الزواج» وكانت الشخصيات المعروفة والبارزة في هذا العصر مثل. مدام دى سيمينى، نتابع اخبار هذه الجلسات بشغف واهتمام، وفي سنة ١٦٦٣ حدثت موجة من السخط في فرنسا أثارتها بعض هده الجنسات وبالذات حين تقدمت. المركيزة دى لاجى، بوقاحة نادره ووضعت نفسها موضع الفحص عن طريق المشرفات. لكن هذه العروض الفردية كانت تتم لتسلية العامة وكانت مصدرا لا ينقطع لسلسلة من النكات البدينة والقصص الفاحشة.

كان ذوو الحساسية المفرطة من ضحايا هذه الجلسات يوشكون على الموت حجلا من هذا الفعل الشائن. ويصرف النظر عن سخافة هذه الجلسات وشذوذها قاله لا يمكن لهذه الجلسات ان تكون حكما على القدرة الجنسية أو برهانا سليما على العجز الجنسي لاحد الأشخاص. فالملابسات المحيطة بهذه الجلسات والفضيحة العلنية، والنكات الخليعة. كانت كلها كفيلة بتجميد اعنف مشاعر الحب عند أقوى عشاق العالم. وقد أصبح ذلك معروفا بشكل عام في سنة ١٦٥٩ حين أصدر المجلس، المسئول عن تقرير سلامة الرجال للزواج قرارا بابطال زواج المركيز دى لاجى، على أساس انه عنين، أي عاجز جنسيا

تم تزوج المركيز نفسه للمرة الثانية من الانسة ديانا دى نافاي، وأنجب منها

ما لا يقل عن سبعة أطفال، وقد علق احد المعاصرين على هذه الحادثة بقوله: ان هذه القصة تدل دلالة واضحة على ان الانسان لا يمكنه دائما السيطرة على افعاله، خصوصا حين يتعلق الأمر بمداعبة النساء علنا أمام الآخرين. فاعضاؤنا لا تطاوعنا حين تريد منها ذلك، وتقل طاعتها كثيرا لنا في حضور القضاة. ويبدو هذا المجلس، الغريب قد أنشيء حوالى سنة ١٠٥٠ ، ففى كتاب (احاديث العجزالجنسي) يشرح مؤلف الكتاب فينست تاجيرو، طريقة عمل المجلس.

مدام ريكامييه:

كانت مصدر الهام للفنانين الكبار في عصرها

المجلس الذي يقوم باختبار القدرة الجنسية للزوجين. قبل الزواج!

»المجلس» ودون الغوص في التفاصيل التي لم يغفلها المؤلف يمكن تلخيص الطريقة على النحو التالي:

يقوم مجلس القضاء الديني باختيار أحد الاماكن لاتمام هذا الاجراء، وليكن ذلك احد حمامات البخار، مثلا، ويتم استبعاد منازل اقارب الزوجين وأصدقائهما تماما من الموضوع، ثم يحضر كل من الزوج والزوجة منفردا بصحبة عائلته المحترمة إلى المكان المختار. وتبقى العائلتان خارج الحجرة. خارج الحجرة التي تقرر اجراء الاختبار فيها، وذلك في انتظار قرار المحكمة. أما الزوجان فيتقدمان لمواجهة الخبراء، وكان عدد الخبراء في العادة أربعة وان كان يحدث أحيانا أن يصل العدد إلى اثنى عشر.

يقوم الموظف المسئول بيده الاحتفال أو الاختبار بأن يطلب الى الطرفين حلف اليمين بأن (يقوما با تمام عملية الجنس بنية صادقة خالية من الرياء ودون السماح لاى عائق ارادى بالتدخل من جانب اى منهما، وبعد ذلك يقسم الخبراء أنفسهم بأن يقدموا تقريرا أمينا عن العملية للمجلس. ويكون ذلك في حضورمحامى الزوج ومحامى الزوجة وبعض مندوبي برلمان الاقليم. او المجلس المحلى. والمحامون والمندوبون كانوا ينتظرون في حجرة ملحقة بالمكان المعد لاجراء الاختبار. وكان أحيانا يسمح للزوجين بالبقاء منفردين. بحيث تتم مراقبتهما من مكان بعيد نسبيا، ولكن في أغلب الاحوال كان يبقى بينهما الخيراء ، وهم الاطياء والجراحون والمشرفات ، وكان هؤلاء الخبراء يبداون العمل باجراء فحوص طبية للزوجين ، وكان التركيز في هذه الفحوص الطبية على الزوجة بالذات وذلك للتأكد من أنها لا تضع أي مواد قابضة لمنع تزيف الدم او افساد العملية، وبمجرد أن ينتهى هذا

الفحص يستلقى الزوج والزوجة على السرير ثم تنزل الستائر، وتجلس المشرفات بالقرب من السرير ، وتبدأ العملية وكان يحدث غالبا أن يتشاجر الزوج والزوجة شجارا عنيفا ويصبح المشهد مضحكا جدا ومهينا لكرامة الانسان . وبعد ساعة أو ساعتين كان يتم استدعاء الخبراء لانهاء العرض، أو يقوم هؤلاء الخبراء بدون استدعاء من أحد برفع الستائر والشروع في اتمام أبحاثهم الكريهة، والتأكد من صلاحية الزوجين للحياة الزوجية

ظاهرة الشياطين

كان الاهتمام يبحث أسرار الجن والشياطين في القرن السابع عشر في فرنسا. وكان هذا القرن يتميز بنزعة قوية تحاول أن تعرف طبيعة الانسان. وكانت كل انواع الاسئلة تناقش علنا في اجتماعات عامة، ومن بين هذه الاسئلة كل ما يتصل بالجن والشياطين. وحول موضوع الشياطين بالذات عقدت سلسلة من أكثر المؤتمرات الشعبية نجاحا، وقد قام بتنظيم هذه المؤتمرات دكتور نيو فراست رينو، وقد اقام الدكتور رينو هذه المؤتمرات سنة ١٦٣٧ وأطلق عليها اسم " المناظرات المفتوحة لكل ذوى العقول المتطلعة للمعرفة". وفي هذه المؤتمرات أو المناظرات كانت العقيدة القديمة التي أمنت بها القرون الوسطى والتي تقول، يتزاوج الانس والجن» تخضع للمناقشة لآخر مرة في اوروبا، حيث رفض العقل الاوروبي هذه الفكرة بعد ذلك ، وان كانت هذه الفكرة عن الزواج بين الانس والجن قد ظلت سائدة في الاقاليم الريفية حتى القرن التاسع عشر.

وفي هذا المؤتمر الذي عقده الدكتور رينو، طرح اعضاء المؤتمر سؤالا يقول:

هل تستطيع الشياطين أن تنجب؟! وقد تولى الاجابة على السؤال اربعة من المتحدثين الذين عرضوا اراءهم على الجماهير. وكان أول هؤلاء المتحدثين طبيبا، وكان من رايه ان ضحايا هذا الزواج بين الانس والجن، يعانون من مرض (البخار النخامي)، الذي يمنع صاحبه من التنفس الصحيح. ويخلق لديه احساسا بالضغط كما لو كان يحمل حملا ثقيلا على بطنه وليس للشيطان أي دخل في هذا الأمر.

أما المتحدث الثاني فكان موقفه مختلفا اذ بدأ يدافع عن الشياطين، ثم شرع في حديث طويل عن المخلوقات التي قيل ان الشيطان أنجبها مثل «بان» وهو في الاساطير القديمة إله الرعاة، ومثل ساتيرز، وهي شخصية خرافية نصفها الأعلى بشر والنصف الاسفل ماعز الى اخر هذه الكائنات الغريبة.

واتخذ المتكلم الثالث موقف المصالحة، فهو يعتقد أن الشيطان يمكنه أن

يمارس العلاقة الجنسية مع البشر، لكن هذه الارواح لا يمكنها الانجاب لانعدام ه السائل المنوى، عندها

أما الرابع فقد أنكر وجود الشياطين، وأنكر كل الافعال المنسوبة الى هذه الشياطين. وهاجم" الخيال الشهواني" عند البشر، ونصح افراد الجمهور بأن يحصنوا أنفسهم ضد هجمات الشياطين المزعومة وذلك بأن يناموا على جنوبهم بدلا من ظهورهم، فان في ذلك ما يساعدهم على الاقلال من خيالات الشهوة، فالخيال الشهواني يحرك الغريزة الجنسية ويخلق أوهاما وصورا جميلة تحرك هذه الغريزة، ومن هذه الأوهام صورة الجنية الجميلة والجنى القوى المثير. ولم يكن هذا الشرح قليل الاهمية وخاصة اذا تذكرنا انه بعد ثلاثمائة عام اكتشف فرويد، لطريقته في التحليل النفسى الذي يعتمد على ما يخفيه الانسان في، «لا شعوره» من دوافع جنسية.

دليل الحياة الزوجية

كتاب يثير ضجة في فرنسا منذ 300 سنة.

ظهر كتاب « دليل الحياة الزوجية، لمؤلفه الدكتور. فينيت، لاول مرة في عام ١٦٩٦، ثم اخذت طبعاته تتوالى حتى سنة ١٧٩٥، عندما بدا علماء الاجتماع الجادين في ذلك الحين يعلنون فزعهم من أن هذا الكتاب "البغيض" لا يزال يقرا تقريبا، في كل بيت في فرنسا سواء في المدن أو في الريف.

كان مؤلف الكتاب دكتور «فينيت»، مقتنعا تمام الاقتناع بفائدة كتابه. اذ يقول: «ان في هذا الكتاب لكل انسان موضوعا يهمه، ثم يقول في المقدمة ايضا: وان العجائز من الرجال سوف يتعلمون من هذا الكتاب كيف يتصرفون مع زوجاتهم الصغيرات، بحيث يصبح هؤلاء الرجال المتقدمون فى السن قادرين على انجاب الاطفال دون التعرض لاى خطر يهدد صحتهم؛ وسوف يصرف رجال الدين «وآباء الاعتراف»، كل شيء عن أسباب تماسك الحياة الزوجية وتفككها، وسيعرفون الرذائل التي يجدها الانسان في بعض الزيجات، والخطايا التي يرتكبها البعض أحيانا أثناء المتع المباحة. أما المنحرفات المحترفات فسوف يعرفن من هذا الكتاب الامراض التي ليست قابلة للشفاء، والتي يمكن أن تسببها حياة الحب المضطربة، وسوف يجد الفلاسفة والقضاة والاطباء أمورا كثيرة تستحق التفكير، وسوف ينتفع الملحدون بهذا الكتاب الذي يدفعهم إلى تغيير آرائهم حين يقرأون عن عجائب الطبيعة في تركيب الانسان، وصوف تعرف الزوجات سبيل الوفاء بواجباتهن الزوجية وتقديم الرعاية الواجبة للمحافظة على سلامة الزوج وحيويته .

على أن الهدف الاساسي من الكتاب كما شرحه مؤلفه الدكتور فينيت" هو أن يتعلم الشباب كيف يتعرف كل منهم على شخصيته الخاصة وعلى مشاعره الفطرية نحو العفة والزواج. انهم سوف يعرفون هنا فى اى سن يصبح الزواج مناسبا، حتى لا يتعرضوا للخمول والكسل في بداية حياتهم الزوجية، وحتى يكون بامكانهم أن يستمتعوا بحياة طويلة مليئة بالمتعة والبهجة. وسوف يعلمون - ان كتابي - فى أى فصل، وفى أى ساعة من الليل والنهار يحق لهم ممارسة الحب اذا أرادوا أن ينجبوا للعالم أطفالا أصحاء موفوري الذكاء".

وبعد أن وضع الدكتور فينيت نفسه في مقدمة الكتاب موضع المصلح الاجتماعي قدم مجلدين حافلين بالتفاصيل التشريحية والأوصاف الطريفة الخاصة بالحب والجنس ، مما يعتبر كنزا من المعلومات بالنسبة للمؤرخ وعالم الاجتماع. وحين ظهر هذا الكتاب لأول مرة، كانت أساليب السحر، منتشرة في أوروبا وفرنسا على وجه الخصوص، وكان الناس يمارسونها بهمة ونشاط. ففي الكتاب يذكر المؤلف أنه هو شخصيا قد غضب من عامل في مزرعة أبيه، وتوعده بأن "يعقد له عقدة" في لاسته، حين يتزوج. ويعبر مؤلف الكتاب عن دهشته عندما علم أن هذا العامل قضى عاما بعد الزواج غير قادر على الوفاء بواجباته الزوجية وبعد هذا العام لجا العامل المسكين، الى القسيس الذي سبق وقام با تمام مراسم زواجه. واستطاع القسيس كما يقول مؤلف الكتاب أن يطرد الشر الذي تسببت فيه لعنة الدكتور فينيت. وقد نجح القسيس في أن يفك. التعويدة، خلال أربعة وعشرين يوما دون أن يضطر العامل إلى اللجوء للحل الذي كان شائعا في تلك الايام وهو التبول من خلال خاتم الزواج لمدة طويلة،

كان الحب، طبقا لمفهوم دكتور فينيت، وكل أطباء عصره يتركز في "الكبد". لانه ملىء بالنار والكبريت، والرجال أصحاب الشهوة القوية لابد أن تكون اكبادهم نارية ملتهبة بحيث تكون قادرة على اشغال الأعضاء الأخرى المجاورة لها. وان كانت هذه الأكباد النارية تؤدى ايضا الى تجفيف المخ والجمجمة واحداث الصلع قبل اوانه

ويقول المؤلف أيضا أن أصحاب الأمزجة الصفراوية والسوداوية هم أكثر الرجال شهوانية. أما أصحاب الأنوف الطويلة من الرجال فهم يتميزون عادة بالقوة والحيوية. ويتحدث المؤلف عن النساء فيقول: ان المرأة هي لعبة الرجل. والمرأة - في رايه - لا تحتفظ طويلا بالصحة والحيوية نتيجة لما تعانيه المرأة من حرارة داخلية تنهك طاقتها وتستهلك حيويتها ببطء

ثم يقدم المؤلف عدة وصفات. تساعد المرأة على مقاومة الترهل الذي يصيب جسدها. فترهل الصدر ليس مرغوبا فيه لانه يجعل الرجال يظنون أن صاحبته شهوائية وبعض النساء يحملن صدورا منتفخة تسبب لهن الحيرة والحرج. ولعلاج هذا الترهل يقدم دكتور فبنيت، وصفة مكونة من عصير ه البقدونس» و«المر» و«العليق، المغلى مع النبيذ الأحمر وبعض المواد المهدئة. كذلك يمكن للمرأة أن ترتدى قوالب، من الرصاص مدهونة بزيت البنج الاسود لتقليل حجم الصدر المترهل.عقب ذلك احاديث تفصيلية عن.الجنس، في كتاب دليل الحياة الزوجية، وعن علاقة الجنس بالطعام، وأنواع الطعام المنيرة مثل صفار البيض واللبن والجميري، ثم التماسيح المصرية الصغيرة، التي يعتبر الحصول عليها أمرا صعبا، ومن يمكنه الحصول عليها، فعليه أن يجفف كلية التمساح ثم يطحنها ويخلط المسحوق بكمية من النبيذ الأحمر.

ثم يعقب ذلك بحث طويل عن أفضل فصول السنة بالنسبة لممارسة الحب. فالشتاء بعد فصلا رديئا، لأن الثلج والجليد والامطار الباردة تؤدى إلى نوع من التجمد في الجسم. وفي الشتاء تعانى النساء من الخمول، والطبيعة في هذا الفصل تكون نائمة، ونوم الطبيعة لابد أن يؤثر على الانسان.

وفي الصيف تكون المرأة أكثر استعدادا للحب من الرجل. ولا يميل المؤلف إلى فصل الخريف أيضا. والربيع وحده هو الذي يدفع بالنشاط والحيوية إلى الانسان. ولكن على الانسان أن يتذكر أن الطبيعة في هذا الفصل تصاب ببعض الجنون. والاطفال الذين تتكون أجنتهم في ابريل يصابون غالبا بالجنون والبلاهة فليس من الحكمة أن تفكر في انجاب الاطفال والانسان في فورة الانفعال والاثارة. ومن أجل هذا السبب كان الرومان يحرمون الزواج في أواخر الربيع. وامتلأ الكتاب بعد ذلك تفاصيل عن تحديد المواعيد المناسبة لممارسة الحب. وهذه التفاصيل هي التي جعلت علماء الاجتماع يرفضون الكتاب ويطالبون بمصادرته، ويجدون فيه نموذجا لمصر من عصور الانحلال في التفكير، حيث كانت الشهوة، في هذا العصر تسيطر على الحياة والانسان وتستولى على عقله ووجدانه.

الحب والجنس في عصر نابليون

بعد الثورة الفرنسية بدأ عصر جديد بلا ملك ولا حاشية ولا صالونات، ولكنه كان عصراً زاخرا بالابطال العسكريين وبموارد جديدة لتزويد الجيش بالرجال والسلاح. وفي هذا العصر كانت الطباع خشنة والحب وحشيا، وكانت طباع العصر الملكي الرشيقة قد تم اكتساحها بقوة لم تترك منها أثرا ملحوظا.

بدا المجتمع الجديد الذي تلعب فيه المرأة دورا بارزا، وكان هذا المجتمع ينمو شيئا فشيئا حول الزعماء الخمسة فى" حكومة الإدارة" التي أعقبت الثورة. كان باراس الشهواني هو العقل المحرك الحكومة الادارة وللمجتمع الجديد. ولم يكن، نابليون، هو المحرك لهذه الحكومة أو لهذا المجتمع، وقد كان تاليون حتى ذلك الحين قليل الخبرة بالنساء. وكان يرى أن «الأمة التي تترك نفسها لسيطرة المتع الجنسية لابد أن تنهار. ولكن سرعان ما «انغمس» نابليون في مجتمع النساء في باريس، فصاح قائلا، من بين جميع الاماكن في الدنيا، فهذا المكان الوحيد الذى تحتل فيه المرأة مكان الصدارة. هنا أجمل نساء الدنيا. وما أسرع ما تصبح النساء هنا شغلنا الشاغل.

اتسم عهد حكومة الادارة بالتحرر والمرونة. ففى هذه الفترة انحدر الحب إلى رغبة مثيرة يتم اشباعها دون ابطاء. كان غياب الرشاقة في السلوك والطباع متوازيا مع غياب الرقة في أمور الحب، حتى الزواج لم يعد قبدا يربط الأزواج واصبح كما وصفه كاميا سيريز، في عبارته القاسية: "الطبيعة في حالة فعل. والزوجات ينتقلن بالصدفة - من زوج الى زوج."

على ان " نابليون" كان يقول في البداية: الحب هو شغلة الكمالى" وانحراف المحاربين ومصيدة الحكام " وكان نابليون يعيش في ظل المعارف التي ساورته مما جره الحب من آثار ضارة على الملك - هنرى الرابع " والملك لويس الرابع عشر. وكان نابليون مصما حين تولى السلطة ألا يسمح للنساء بأى دورفى السياسة. ولكنه في نفس الوقت كان ، مفرما، بممثلات الكوميدي فرانسيز، وبخاصة هؤلاء اللاتي كن يلعبن الأدوار الكبرى مثل دور، فيدرا، و اندروماك، وإفيجينيا» و« هرميون، وكانت الآنسة جورجيه أشهرهن جميعا. وقد تركت في مذكراتها وصفا دقيقا للقاءات الغرام الخاصة بينها وبين نابليون. وكانت تعشق نابليون الى حد العبادة، وقد بلغ من حبها له ان وضعت شعاره المكون من زهرات البنفسج في صدر فستانها.

وقد استمرت العلاقة بينها وبين نابليون من ١٨٠٢ الى ١٨٠٤ مما جعل جوزفين المسكينة " زوجة نابليون الأولى"، تنقلب في نيران الغيرة إلى حد الجنون. وكانت كلما هاجمها الشك في أن الامبراطور يستقبل الانسة جورجه. تتتسلل على أطراف أصابعها إلى أعلى السلم حيث باب الجناح الخاص بالامبراطور، وهناك كانت جوزفين تقف لتستمع إلى الهمسات الدائرة بين زوجها وعشيقته.

ومع ذلك فقد كان نابليون يقول عن "جوزفين ": أنا لم أحب قط غير جوزفين. انها المرأة الوحيدة التي أحببتها وساحبها إلى الابد. ولكن الذين سمعوا هذه العبارة لم يصدقوها وأحسوا بالشك فيها.

ثم يبدو على نابليون انه كان رفيقا في الحب، فقد كانت النساء ناتي اليه فاذا كان مشغولاً بأمور الدولة، فرض عيهن الانتظار. واذا استغرقته امور الدولة طلب إلى خادمه اعادتهن ثانية إلى بيوتهن. واحيانا كان يتصرف بسفاهة. وكانت الراقصة - تبريز يورجون» سفيهة أيضا في علاقاتها به، اذ كانت تتصرف معه بغير حرج. وذات مرة رآها وزير الداخلية "شاتيال" تتصرف أمام الامبراطور بهذا الاسلوب فلامها ووبخها على ذلك ، فقرر نابليون أن يعاقب الاثنين.

ففي ذات ليلة جاء رسوله يطرق باب شاتيال في الحادية عشرة يدعوه للحضور الى قصر "التيليرى" المقابلة الامبراطور نابليون ، ولم يكد الوزير يترك بيته حتى ذهب رسول آخر ومعه دعوة من الامبراطور يطلب الى الراقصة تيريز، الحضور إلى القصر. وتشاغل نابليون بمناقشة بعض الوثائق مع وزير الداخلية حين جاء الخادم ليقول للامبراطور: « لقد حضرت السيدة يا مولاى. فقال نابليون اطلب اليها أن تأتى الى هنا، ، وأخذ نابليون يراقب دهشة الوزير وخوفه وكان نابليون شديد الفرح بما أصاب الوزير، ولكنه نوع خبيث من الفرح، وعندما دخلت الراقصة تبريز، على الامبراطور ومعه وزير داخليته اشار الامبراطور اليها وقال لها انتظريني في غرفة النوم، ثم التفت الى الوزير بهدوء وسأله في ود. الى اين وصلنا، ولم يبق لدى الرجل المسكين وزيرالداخلية، قدرة على التركيز، ومع ذلك أبقاه نابليون معه ساعة أخرى - وحين غادر الوزير مبنى مقر. التيليرى، استدعى نابليون خادمه وقال له . قل للسيدة انه يمكنها الآن أن تذهب الى بيتها فقد انتهى دورها. وفي اليوم التالي استقال وزير الداخلية!

لم يتعود نابليون على سماع النقد. لكن مدام ريجنو دي سانت انجلى. تجرأت يوما على نقده بطريقة لم يتعودها من قبل. ففي ذات مساء اقترب الامبراطور منها أثناء حفلة رقص وعلق بصوت مسموع "الا تعلمين يا سيدتي أنه يبدو عليك أنك اكبر كثيرا مما تتظاهرين به" فاحمر وجهها خجلا وردت عليه - ولم يكن أحد يستطيع أن يرد عليه الا اذا سأله وطلب منه الاجابة قالت مدام ريجنو، لنابليون: " كان يصعب على احتمال ما قاله جلالتكم الآن لو انني حقا كبيرة بدرجة تجعلنى انزعج من هذه الملاحظة". وكانت ريجتو إذ ّذاك في الثامنة والعشرين من عمرها وقد اعتبر الجميع ردها على نابليون جرأة خارقة للعادة. والذي حظى بالتمجيد في عصر نابليون لها انطونيو كازانوفا تمثالا سجل عليه تفاصيل جسمها

المملوء بسحر الأنوثة.:

كان ، بونابرت » جافاً في علاقاته الانسانية كلها. الا أنه سرعان ما ادرك حين ارتفع من منصب القنصل الأول إلى مرتبة: «الامبراطور» ان مجتمع ما بعد الثورة الفرنسية يحتاج إلى التهذيب والتربية.

فالكونتيسة " دى جنليسط" التي كانت لاجئة في الخارج، أحست عند عودتها بعار الفضيحة اذ لاحظت أن أرقى النساء لا يستقبلن زوارهن فقط وهن مستلقيات على الارائك، بل وأيضاً بغير غطاء أو جوارب يسترن بها اقدامهن. وكانت أقل حركة تكفى للكشف عن مفاصل الاقدام والسيقان بأكملها. وانعدام الحياء بهذه الدرجة يقلل من سحر الأنوثة عند النساء ويجعل سلوكهن ومظهرهن العام مخجلا بدرجة كبيرة. كان رجال المال الجدد الأثرياء من أمثال او فراراد. الذي اشترى قصور رينس، و «مارلى، و لوشيين، وسانت جراشيين، يكترون من اقامة حفلات الشاي والحفلات الساهرة . وكانت الاحاديث في هذه المناسبات تنحصر في اخبار المودة والطلاق واخر حالات الافلاس.. وفي هذه الحفلات كان يتم الفصل بين الجنسين فيسهر الرجال في مكان، وتسهر النساء في مكان آخر.

منح نابليون "مدام دى مونتسون" دخلا سنويا قدره مائة وخمسون ألف فرنك لتنشيء في بيتها صالونا تديره وتقدم له النصائح فيما يخص حفلات الاستقبال في قصر" التيليرى" واستدعى نابليون أيضا "ديزيرو" الذي كان يعلم " مارى انطوانيت" الرقص، من منفاه ليعلم نساء القصر الجديدات كيفية الانحناء.

طرأ التغيير على الملابس أيضا، فاخذت النساء في ارتداء جوالات، تصل إلى ما تحت الركبة، وجوارب حريرية واحدية مزينة "بالتوك " المعدنية وقبعات تحملها النساء تحت الذراعين. كل هذا حل محل البنطلونات والبونيهات، التي كانت تزدان بشارات، الثورة. وفي حفلات نابليون كان على النساء أن يرتدين ملابس فاخرة. وكان الامبراطور يوبخ أي سيدة تحضر مرتين بنفس الفستان، وكان يقول لها في قسوة أهذا هو الفستان الوحيد الذي تملكينه يا مدام؟ الا تستطيعين أن تطلبي الى زوجك أن يشتري ثوبا آخر؟

كان موقف «بونابرت»، من النساء عسكريا في جوهره فهو يناصر مبدأ الزواج. لانه كان يريد جنودا، وكان القانون المدنى الجديد حريصاً على ترسيخ فكرة ان الزوجة مدينة لزوجها بالطاعة. وكان التجديد الوحيد الذي دخل على هذا القانون هو تسهيل عملية الطلاق. وربما تم ادخال هذا التعديل على القانون المدنى الفرنسي يوحى من يونابرت، نفسه عندما أدرك أن ، جوزفين ، ليس بمقدورها أن

تمنحه ورينا للعرش . وقد طلقها بالفعل فيما بعد وكانت الحفلات التي يقيمها نابليون في مقره تتلالا بالازياء العسكرية ... وكانت النساء يهمن حبا بضباطه المتأنقين. ولم يحدث قبل عصر نابليون ان أحدثت البزة العسكرية هذا التأثير في مسائل الحب. وهذا ما لاحظه هنرى دالميراس، حين قال:

« كان عصر نابليون مليئا بالحب لأن هذا العصر كان مليئا بالعديد من الارياء العسكرية» كانت الزوجات والعشيقات يتبعن: الجنرالات، الى المعارك في زي الرجال العسكرية وكان دولاب كل سيدة في بلاط الامبراطورية وأتباعها يحتوى على زي رجالي خاص بهذه المغامرات الخطيرة. وكانت. العشيقات عاليات التكاليف، فراقصة الاوبرا كلونيد. كانت تتقاضى مائة وخمسين الف فرنك شهريا من عشيقها الأمير" بيجنا تيللى" فقدم الادميرال مازاريد، لها أربعمائة ألف في العام بالاضافة الى المبلغ السابق فذهبت الراقصة لمنعيش معه وتضاعفت حاجة السيدات للنقود حتى يتمكن من ملاحقة أساليب الموضة، التي كانت تتغير بسرعة مذهلة. وكان متوسط حساب النفقات للفتاة التي تعيش في هذا الجو يشمل:

٦ فستان في العام.

٣٦٥ زوجا من الاحذية في العام أيضا

ما قيمته ٥٠ الف فرنك للاثاث الذي يتجدد كل سنة

ثم ٢٠ ألف فرنك لسرير واحد. يتجدد أيضا كل سنة.

ومنذ نهاية الثورة نتابع ظهور سلسلة من الانماط النسائية الجديدة في المجتمع الفرنسي، وقد أطلق على هؤلاء النساء أسماء متعددة حسب أوصاف كل منهن: ومن هذه الأسماء "الرائعات " "الحوريات" المدثرات بغلالات رقيقة شفافة، و"اللامعقولات" ، "البيتي ميتر" والاخيرات كن يتميزن برى غريب وبرطانة غير مفهومة في الحديث ، ولو حاولنا أن نتعرف على أحد هذه الانماط لوجدنا أيضاً أوصافا غريبة ، فالحورية مثلا ، كما كتب سانت مرسير: كانت تقضى وقتها في قراءة الروايات والرقص دون أن تعمل شيئا، ومنذ عشرين عاما مضت لم تكن هناك فتاة تجرؤ على الخروج من بيتها الا في صحبة أمها ، أما الآن فقد انطلقت الفتيات بحرية كالرياح ، من الصباح حتى الليل .. فوداعا لحياة البيت الهادئة.وداعا للمقص والكستبان.

أما النساء اللاتي أطلق عليهن اسم "اللامعقول"، أو«الانكروبابل، فقد كن يرتدين كرافتات، ضيقة ونظارات، وكانت خصلات شعرهن مربوطة باحكام من

الخلف، وكن يمسكن بعصى قصيرة اثناء المشى ، وكن على قدر كبير من الوقاحة والجهل، فقد كن ثمرة لاهمال شأن التعليم عدة سنوات متتالية انشغلت فيها فرنسا بالاحداث السياسية والعسكرية بعد الثورة.

أما ذلك النمط من النساء الذي كان يسمى باسم "الرائعات" أو "المرقيبه" . فكن يرتدين أروابا شفافة من أرقى أنواع المنسوجات ومن القطن المصادر من السفن الانجليزية أثناء الحصار. بل ان مدام "هاملين" تجرأت على الخروج "عارية" الا من هذا الروب الشفاف فحاصرتها سخرية العامة ومنعتها من الاقتراب من قصر الإليزيه، حيث كانت تتجه الى هذا القصر. وكانت هذه السيدة تقول انها تنفذ تعليمات "جين جاك" بصورة حرفية حيث كان يقول للنساء:

«ان الاطراف يجب أن تتحرر من الثياب بحيث لا يعوق حركتها شيء، وبحيث لا يبقى شيء ملتصق بها كما لا يجب استخدام أى نوع من الاربطة في أي جزء من أطراف المرأة وقد ذهبت سيدة شابة في هذا الزى الى حفلة رقص، فاعقب وصولها عدد من المراهنات على وزن التياب التي ترتديها بما فيها الحلى، وتعددت التقديرات. واتجهت الغالبية الى تقدير وزن هذه الثياب برطلين فقط. وبعد أن دخلت السيدة الى حجرة ملحقة بقاعة الحفلة، وخلعت ثيابها تبين أن وزن ثيابها بما فيها الحلى لا يزيد عن رطل واحد، وقد قوبل الاعلان عن حقيقة وزن ثياب السيدة وحليها بموجة من التصفيق الحاد. تحية لها على قلة ما كانت تليسه على جسدها !!

كانت الحياة مرحة وصاخبة، وكانت شهوات الطعام مستمرة، حتى من كن يسمين بالحوريات. كن يا كلن بشراهة. وقد كتب أحد المعاصرين يقول لو رأيت هؤلاء الانيقات اثناء تناول العشاء، ولو لاحظت كثرة ما تلتهمه الحوريات من الطعام، فانك لا تستطيع أن تفهم كيف يمكن لشباتنا أن يصبحن بهذه النحافة وحين يرى المرء هؤلاء الجميلات النحيفات، ويحسب كل ما ابتلعنه من لحم وفطائر محشوة، ودجاج ومشويات وحلويات من كل نوع يصبح من حقه أن ينتظر منهن أذرعا أكثر استداره واكثافا أكثرامتلاء ولكنهن للعجب كن نحيفات رغم هذه الشراهة في الطعام.

كانت وجبات العشاء أثناء عهد نابليون تتم بين الثانية والثالثة بعد منتصر الليل. وكانت الحياة الاجتماعية حافلة. كانت الجميلات يترددن مع عشاقهن أو أزواجهن على حفلات الرقص التنكرية الفخمة في الأوبرا، وكانت الولائم تقام في ميدان بيكاديللى، وفى حدائق تيفولى» المضيئة ـ حفلات لا تعد ولا تحصى. يستمر فيها

الرقص حتى الساعات الأولى من الصباح. وكانت الرقصات المفضلة رقصة تسمى الجافوت، وهي رقصة سريعة مرحة، والفالس، وهي رقصة يجب أن تكون " كالزيت على الرخام الاملس" حسب التعريف الغريب لهذه الرقصة في ذلك العصر.

أما سحر الأنوثة فقد حظى بالتمجيد في ذلك العصر، في كتاب "قيمة المرأة" الذي ألفه مسيو ليجوفى، ودعا فيه الفرنسيين إلى الاهتمام بتثقيف انفسهم بثقافة الحب، وكتب دوبراكو، مجلدا عن أشهر نساء عصر الثورة، وأدى كل هذا التمجيد الأدبي إلى تشجيع النساء في عصر نابليون على الظهور بمظهر البطلات، فكان هناك دوقة " دى باساتو" « بولين بورجيه ، و" كارولين موراه "، و"مدام تاليين"

اما اشهر نساء هذا العصر فقد كانت «مدام ريگامييه» وقد كانت هذه المرأة استثناء فلذا ، لانها كانت تنتمى الى القرن الثامن عشر أكثر من انتمائها الى القرن التاسع عشر الذي كانت تعيش فيه. كانت أول سيدة تفتح صالونا وتقيم حفلات للرقص بعد الثورة. وقداصبح صالونها وشخصيتها نموذجين يحتذيهما مجتمع باريس. وكانت مصدر الهام فنى لكبار الرسامين في عصرها حيث رسم لها جيرارد ودافيد لوحتين خالدتين. ولم تكن هناك امرأة أخرى في مثل رشاقتها حينها تستلقى على - كنبة وكانت تفضل - الزهور» على "الماس" وكانت رقصتها التي تؤديها وهى ملئمة رقصة تسحر الجميع وفوق الاساور الذهبية التي تزين ذراعى مدام ريكامييه كانت هناك أغنية شعبية محفورة على هذه الاساور، وكانت هذه الاغنية قصيرة وبسيطة واسمها متعة الحب ، وفي ديكور شقتها الداخلى تجلى ما يمكن أن تسميه بالجمال الامبراطوري، وفى هذا الديكور ظهر حب مدام ريكامبيه، للاثار الأفريقية ثم الاثار المصرية التي أوحت بها حملة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨ .

في هذا العصر كتب بلزاك عبارة يقول فيها (السرير هو مسرح الحب). وكان السرير، في عصر نابليون يصنع كانه قطعة من ديكور الأوبرا العظيمة. فيه فخامة وجلال. وكان سريرمدام ريكامييه، من لونين: ابيض وذهبي، وكان يرتفع على منصة عالية ويختفى نصفه خلف ستائر عالية معلقة في تيجان من الزهور البرونزية، وعلى احدى الدرجات يقف تمثال لجنى اسمر اللون فوق حامل من الرخام الأبيض وهو يمسك بمصباح ذهبي، وعلى الجانب الآخر تمثال يرمز الى الصمت. وحول ذلك كله يوجد، بيانو، وكتبة، و "مكتب" وجميعها مبعثرة في حجرة تهوى صاحبتها استقبال الضيوف في جو بلون الشفق الغامض.

في هذا المجتمع الجديد الذي كان يتشكل على عجل، كانت العلاقات سهلة. وكان الناس لا يبذلون جهدا لمعرفة بعضهم البعض بعمق، أو لعلهم كانوا لا يجدون وقتا لذلك، وقد نظر مسيو - لياردو، بحزن عميق إلى كثرة اعداد العوانس وغير المتزوجين والارامل، فقرر أن يفتح. وكالة للزواج، لقد ظهرت قبل ذلك مكاتب " للمربيات " و الممرضات ، فلماذا لا تظهر مكاتب أخرى للارامل والعذارى، ولتحديد قيمة المهر، وقد انشأ المسيو لياردو ، نفسه جريدة اسمها دليل الزواج ، وكانت تظهر بانتظام يومي الثلاثاء والاحد وعلى صفحاتها قوائم طويلة بالقلوب المهيأة للزواج ، ثم ظهر منافس اخر اكثر جرأة افتتح مدرسة للشابات المقبلات على الزواج حيث كان يقيم لهن حفلات للرقص ثلاث مرات في الاسبوع ،وكان يدعو الشبان الذين هم في سن الزواج الحضور تلك الحفلات ، وكان الجو مهيا تماما لخلق الصلات بين الشابات والشيان، وكانت زوجة صاحب المدرسة تقوم بدور المضيفة.

وكان هناك شخص اسمه مسير فوليام، وكان من انجح مديرى مكاتب الزواج في عصر نابليون. وكان مكتبه في ٤٦ شارع" نيف سان اوستاش" غاصا دائما بالشباب والشابات الباحثين عن الزواج، وكان يلجا حين يقل عدد المعروض، من النساء الى نشرات الحروب التي كان يخوضها نابليون ليعرف منها أسماء الذين قتلوا في هذه الحروب. وكان يصبح كلما نظر في القوائم آه. ذهب كولونيل فلان وفلان وجنرال فلان وفلان. أريد أن أعرف إلى أي مدى كانت زوجاتهم سعيدات معهم»

ثم يبدأ في القيام بعملية استفسار ذكية. فاذا اكتشف أن الزوجين كانا على ونام، وكان هذا أمرا نادرا في تلك الايام، ترك للأرملة ثلاثة أسابيع لتكفكف دموعها قبل أن يدعوها للحديث بشأن ما يمكن أن يقدمه اليها من عزاء. اما اذا عرف ان الزوجين كانا على خلاف ولم يكن احدهما يبالى بالآخر فانه يترك للارملة وقتا اقل حتى تنتهى مراسم الحداد التقليدية قبل أن يعرض خدماته في البحث عن رجل آخر ليحل محل. «المرحوم» .

9- العلاقة بين العلم والدين

فرنسيس كولينز رئيس برنامج الجينوم البشرى يقبل المسيح كمخلص

هذا عالم فيزياء يترأس مشروع الجينوم البشرى، ويبدو أن إعلانه الإيمان بالمسيح قد أثار قلق واهتمام بعض العلماء الملحدين وبعض الكتاب المهتمين بهذه المسألة. ومن هؤلاء مستر هورجان وهو كاتب مشغول بقضية العلاقة بين الدين والعلم، ومن أجل هذا أجرى معه حوارا بالغ الأهمية وكتب له مقدمة يقول فيها:

"إن علاقة العلم بالدين التي يغلب عليها التوتر دائما صارت في الفترة الأخيرة محل صراع، إذ نجد علماء مثل ريتشارد داوكينز واستفن بنكر ينظرون إلى الدين كشعيزة خرافية متخلفة من عصر ما قبل العلم ويجب على البشر أن يتخلوا عنها. وعلى الجانب ألاخر نجد مؤمنين بالدين يتهمون العلم بتمير القيم الأخلاقية بحيث لا يصلح وسيلة لفهم عجائب الوجود، *وكمحاولة لرأب الصدع بين الطرفين يقدم دكتور فرنسيس كولينز نفسه كدليل على أن العلم والدين يمكن أن يتصالحا* معا. وباعتباره رئيس مشروع الجينوم البشرى فهو واحد من اهم العلماء فى العالم. لأنه يرأس برنامج بحثى تبلغ ميرانيته عشرات الملايين من الدولارات، وهو مشروع يهدف إلى فهم طبيعتنا البشرية وعلاج مافينا من نقص واضطرابات موروثة.

مع ذلك ففي كتابه الأكثر رواجا وعنوانه " لغة الله" يحكى د. فرنسيس كيف أنه قبل المسيح مخلصا له في سنة 1978، وصار مسيحيا مكرسا منذ ذلك الحين. وفى رأيه،

"إن إله الإنجيل هو إله الجينوم يمكن عبادته في الكنيسة أو في المعمل" وفى هذا الحوار يشرح دكتورد. فرنسيس إيمانه لمسترهورجان الذى حاول في أبحاثه أن يستكشف الحدود بين العلم والإيمان الروحى كما هوواضح في كتابه " نهاية العلم والتصوف العقلى" إن هورجان الذى

يصف نفسه بأنه غنوصى يزعجه كثيرا تتدخل الدين في شئون الحياة البشرية. لانه يدير مركز أبحاث المؤلفات العلمية في معهد استفن للتكنولوجيا بمدينة هوبكن في ولاية نيوجيرسى:

هورجان: بصفتك عالم ينشد الوصول إلى تقديم شرح طبيعى للأشياء ويطلب الدليل، كيف يمكنك أن تؤمن أيضا بمعجزات مثل القيامة أو البعث؟

كولينز: ليس لدى مشكلة بخصوص فكرة المعجزة. إن المعجزات قد تحدث أحيانا في لحظات شديدة الأهمية والدلالة لكى توصل لنا إحدى الرسائل المرسلة من الله، وأنا كواحد من العلماء أضع المعجزة في مستوى عالى جدا.

هورجان: إن - مشكلتى مع المعجزات أنها لاتفسد فقط المعلومات التي يقدمها لنا العلم بل إنها أيضا تظهرالله كحاكم متقلب الأطوار صاحب نزوات. ودليلى على ذلك مثالان، أحدهما كثير من الناس يعتقدون أنهم لو صلوا كثيرا لله فسوف يتدخل ويشفيهم أو يشفى مريضا عزيزا عليهم. لكن أليس ذلك يعنى أن الذين لا تتحسن صحتهم غير جديرين بذلك.

كولينز: في تجربتى الشخصية كطبيب لم أشهد حتى الآن واقعة شفاء واحدة عن طريق المعجزة، ولا أتوقع أننى سوف اشهد واحدة. أما الصلاة بالنسبة لى فإنها لا تعنى أن نوجه الله لكى يفعل لنا ما نريد منه ان يفعله.. الصلاة بالنسبة لى هى شيء أكبر من ذلك، هي إحساس بمحاولة الدخول في علاقة صداقة مع الله. إننى أحاول أن احدد ما ينبغي على أن أفعله لا أن أُقول لله الكلى القدرة مايجب عليه أن يفعله، انظر الى الصلاة الربانية حيث يقال: "لتكن مشيئتك" ولم تكن: أبانا الذى في السماء، من فضلك أعطنى قطعة ارض أعملها جراج.

هورجان : لآبد أن اعترف أن مخاوفى قد ازدادت مؤخرا من التأثيرالضار للدين بسبب إرهاب الإسلاميين في 11 سبتمبروبسبب إزدياد قوة اليمين الدينى في الولايات المتحدة.

كولينز : وإين هوالإيمان الذى لم يستخدم كعصا في يد الد يماجوجوجيين لضرب رؤوس الآخرين؟ لكن لايجب علينا ان نقيس الإيمان النقى بأساليب التطبيق التي يستخدمها البشر كما نقيس الحب الخالص بحالة

زواج نكدة. نحن كأبناء لله قد منحنا هذه المعرفة الخاصة بالصح والخطأ، هذا القانون الأخلاقى الذى أراه كعلامة قوية على وجود الله الخالق، ولكننا نملك أيضا هذا الشىء المسمى بحرية الإرادة التى نستخدها طول الوقت لكسر ذلك القانون، فلايجب علينا أن نلوم الدين بسبب الطرق التي يطبقها البشر لتحريفه أو إساءة استخدامه.

هورجان: كثير من الناس يواجهون أوقاتا عصيبة مع الإيمان بالله بسبب مشكلة الشر فإذا كان الله يحبنا لماذا تمتلىء حياتنا بالكثير من المعاناة؟.

كولينز: هذه هي المعضلة الأساسية التي يجب على جميع الباحثين أن يتصارعوا لحلها. أولا وقبل كل شيء إذا كانت غايتنا النهائية هي أن ننمو ونتعلم ونكتشف العالم من حولنا ونعرف حقيقة الله، فحياة الراحة لسوء الحظ ليست هي التي توصلنا الى هناك. الإنسان لا يعرف سوى القليل عن الله حين يكون كل شيء على ما يرام. فلا نستطيع أن نتهم الله بأنه مسئول عن القدر الأكبر من الألم والمعاناة في العالم. فالله منحنا حرية الإرادة، ويمكننا ان نختار فنستخدمها بالطرق التي تؤدى إلى منع الأذى عن الآخرين.

هورجان: إن عالم الطبيعة ستفن وينبرج، الملحد يسأل لماذا كان يجب على ستة ملايين يهودى بما فيهم أقاربه، أن يموتوا في الهولوكست لكى يتسنى للنازيين أن يمارسوا حرية الإرادة.

كولينز: لو كأن على الله أن يتدخل بمعجزة كلما أختار أحدنا أن يقوم بعمل شريرفسوف يتحول العالم إلى حالة غريبة من الفوضوى لايمكن التنبؤ بها. فحرية الإرادة سوف تدفع القائمين بالأعمال الإرهابية ضد بعضهم، ويموت الأبرياء نتيجة لذلك. فلايمكنك أن تلوم أحدا آخرغير فاعلى الشر.فهذا ليس خطأ ربنا. المسألة الأصعب عندما تأتي المعاناة من خارج دائرة البشر السيئة. كأن يصاب طفل بالسرطان، هذا ابتلاء طبيعى، عاصفة طورنادو أو سونامى، لماذا لا يتدخل الله لمنع حدوث مثل هذه الأشياء؟

هورجان: بعض الفلاسفة، مثل تشارلس هارتشورن، الذى يقول ربما كانت قدرة الله على السيطرة والتحكم في خليقته غير كاملة. والشاعر أنى ديلارد قد عبر عن هذه الفكرة بقوله:

" الله نصف الفادر" .God the semi-competent

كولينز: هذا شيء ممتع – وربما كان تجديفا! والفكرة البديلة تقول إن الله كائن خارج الطبيعة وخارج الزمان ولديه منظور يرى به طرفة العين التي تذهب بعيدا الى الوراء وإلى الأمام. هناك بعض الحالات الميتافزيقية الصريحة التى تسمح لى بالقول أن معنى المعاناة ليس واضحا دائما بالنسبة لى.. فهناك أسباب لما يحدث من أحداث رهيبة لا أستطيع أن أعرفها.

هورجان: أنا غنوصى وقد أزعجنى كثيرا قولك أن الغصنوصية هى لهو اواستخفاف بالأمور " cop-out". فالغنوصية لاتعنى أنك كسول أو لامبالى بل تعنى أنك غير مقتنع بأى إجابة متاحة لما هوأسرارغامضة غموضا مطلقا ultimate mysteries

كولينز: كان كلامى تحقيرا للمستهترين والذى لاينطبق على الغنوصيين الجادين الذين فحصوا الأدلة وما زالوا يبحثون عن إجابة مقنعة. بل كان رد فعل منى لما أراه من اللامبلاه فى المجتمع العلمى التي لم يتم الوصول إليها نتيجة فحص الشواهد والأدلة بطريقة دقيقة. لقد مررت بمرحلة كنت فيها غنوصيا عايرا، ومن التسرع الشديد أن افترض أن الأخرين لايتعمقون الأموراكثر منى.

هورجان: أن حرية الإرادة هي مفهوم هام جدا بالنسبة لى كما هي بالنسبة لك. إنها القاعدة التي تقوم عليها اخلاقنا كما يقوم عليها البحث عن المعنى. ألآ يقلق ان العلم بصفة عامة وعلم الأجنة بصفة خاصة – وعملك أنت كرئيس لبرنامج الجينوم البشرى تدمرون الإيمان بحرية الإرادة.

كولينز: انت تتكلم عن الحتمية الوراثية، التي تعنى أننا مجرد عرائس ماريونيت تحكمنا خيوط منسوجة بأشكال لولبية مزدوجة. وهذه أموربعيدة جدا عما نعرفه علميا! فالوراثة لها تأثيرليس فقط على مخاطراتنا الطبية بل أيضا على بعض اشكال السلوك والسمات اشخصية، لكن انظر ألى التوائم المتشابهين. الذين يحملون بصمة دم واحدة، لكنهم في أغلب الأحوال لايتصرفون بطريقة متشاهة ولا يفكرون أيضا بطريقة متشابهة. وهم بهذا يظهرون أهمية التعليم والخبرة – وحرية الإرادة. أظن أننا جميعا سواء كنا متدينين أو غيرمتدينين فإننا نعترف بأن حرية الإرادة هي حقيقة واقعية. هناك بعض االشخصيات الهامشية التي تقول" لا، هذا كله

وهم، نحن ليس إلا دمى في لعبة كمبيوتر" لكننى أظن أن ذلك لن يذهب بك بعيدا جدا.

هورجان - مارأيك في التفسيرات الدارونية لمشاعر الإيثار، أو التي تسميها أنت أغابى agape أي مشاعر الحب المطلق والشفقة الخالية من الأنانية تماما نحو بعض الناس الذين لا تربطك بهم أي علاقة مباشرة؟

كولينز- كان من العدل ألى حدما- أن نتناول هذه القصة الآن. فالكثيرون سوف يزعمون أن نظرية التطور قد وفرت الدعم لمشاعر الغيرية والإيثارلأنها تساعد الجماعة على البقاء. لكن هناك بعض الناس الذين يكرسون أنفسهم طواعية من باب التضحية لآخرين من خارج جماعتهم والذين لاتربطهم بهم أي علاقة على الإطلاق.مثل الأم تريزا وأوسكار شندلر ، وكثيرون غيرهم. وهذاهو النبل الإنسانى في أنقى صوره، والذى يستعصى تفسيره بأى نموذج للدارونية. لكننى لاأعلق إيمانى على شيء من هذا كله.

هورجان: مارأيك في الدراسات العصبية التي تحاول تحديد او تعريف قاعدة الأعصاب الخاصة بالتجربة الدينية؟

كولينز: أظن أنه أمر ضارب في الخيال لكنه لايدهشنى خصوصا وأننا نحن البشرمن لحم ودم لذلك فإنه امر لايزعجنى---إذا قدرلى أن امر أنا شخصيا بتجربة صوفية- فأكتشف أن شحمة أذنى قد أحمرت. وهذا لايعنى أن هذه التجربة ليس لها أى مغزى دينى حقيقى. فالذين ينظرون إلى هذه التجربة بافتراض أنه لايوجد شيء خارج العالم الطبيعى سينظرون ويقولون "ياه ماذا نرى؟" فى حين أن أولئك الذين ينظرون إلى هذا بافتراض أننا كائنات روحانية سوف يتقبلونه "ببرود" هناك علاقة طبيعية متبادلة مع هذه التجربة.

10--البيزنطيون والبربر والعرب في ليبيا
القرن السابع الميلادي

R.G. Goldchild

ومستر جولد تشيلد كان إلى وقت قريب مديراً لمتحف الآثار في قورينة Gyrenaica فى ليبيا، وهو يعمل الآن أميناً لقسم الأبحاث بمتحف كلسي بجامعة ميتشجان قبل أن يتولى منصبه كأستاذ للآثار الرومانية بجامعة لندن. وفي هذا البحث يناقش العلاقات المتداخلة بين البيزنطيين والبربر والعرب في ليبيا القرن السابع الميلادى.

وهو يرى إن السرعة غير العادية التي تم بها غزو العرب لساحل شمال أفريقيا بين الإسكندرية وطرابلس لا تزال موضع تساؤل حتى عصرنا هذا الذي شهد الجيوش الحديثة وهي تتقدم بسرعة أكبر على نفس الطريق. إذ يؤكد أحد الكتاب المحدثين، ممن يؤهلهم علمهم التحدث جيداً عن الحروب العربية "إن الترحيب الذي لقيه العرب في الصحراء الغربية وبرقة يوحي أن الناس في هذه الأقاليم كانوا أنفسهم عرباً إلى حد ما" (1)، أما بالنسبة لمسار الأحداث الواقعية أثناء الحملات الأولى للغزو (642 – 45 ميلادية) فإننا لا نملك مع ذلك، إلا معلومات أولية جداً.

حتى المصادر العربية التي تفيض بالتفاصيل الخاصة عن غزو مصر، تكاد أن تجف تماماً بمجرد أن تذكر أن جيش عمرو بن العاص تحرك من الدلتا نحو الغرب في طريقه للاستيلاء على برقة. ولا نجد شيئاً يذكر أكثر من الإشارة إلى الاستيلاء على برقة، إلى جانب أقل القليل من التقارير الموضوعية الخاصة بالغزو العاصف لطرابلس وصبراطا، ولا نجد أي إشارة لأي "ترحيب" بالعرب في قورينا. وبالمقابل لا نجد أي إشارة لمقاومة السكان للعرب مقاومة طويلة قبل وصولهم إلى طرابلس. فكيف تحقق هذا النصر الملحوظ؟

قد لا يقدر لنا أبداً معرفة الحقيقة كاملة فيما يتعلق بالحملة الأولى في شمال أفريقيا التي ضمنت للعرب راس جسر ثابت لما تلا ذلك من نجاح في المغرب

وأسبانيا. هكذا يبدو لنا أن الأمر يتطلب تحليلاً جديداً للمصادر العربية والقبطية في ضوء دراسة ما تكشف من شواهد أثرية عديدة ومتزايدة عن أوضاع الحياة في ليبيا القرن السابع الميلادى.

فحين وضع بتلر كتابه العظيم "فتح العرب لمصر" منذ نصف قرن أو أكثر، لم يكن يعرف عن الآثار البيزنطية في ليبيا إلا الشيء القليل، لأن عمليات المسح الهائلة التي قام بها إخوان بيتش Beechy Brothers في عام 1821 كشفت عن وجود عديد من الكنائس البيزنطية في مدن البنتا بوليس (المدن الخمس الغربية Pentapolis) كما كان متوقعاً (2) لكن الرحالة الذين أتوا بعد ذلك لم يفعلوا سوى القليل من أجل توثيق الثراء الباهر الذي تفيض به المباني البيزنطية المنتشرة في كل أنحاء ليبيا سواء العسكرية أو الكنسية منها.

واليوم، قد أصبح لدينا صورة مكتملة جداً لقورينا عشية الغزو العربى. فنحن نعرف أنه كان في هذه البلاد مستوطنات كثيفة بالسكان تشبه ما كان موجوداً في سوريا أو آسيا الصغرى، وقد تم اكتشاف كنائس في المدن والقرى وكانت في الريف كثيرة جداً حقاً. كذلك تم الكشف عن قلاع وأبراج للمراقبة مبنية من أشد أنواع الحجر صلابة ومعظمها كشفت عنه عمليات المسح الحديثة.

ففي مدينة أبولونيا سوسا، عاصمة البنتابوليس الليبي في الفترة من حكم أنستاسيوس إلى هرقل، قد تم التعرف على قصر الحاكم واستكشافه (3) وفي توشيرا، حيث أقامت الحامية البيزنطية آخر مقر لها، أخذ ينكشف الضوء عن قلعة بها قصر شاسع ينتمى لأواخر التاريخ البيزنطي أو أوائل التاريخ العربي (4) فالعرب الغزاة، لسوء الحظ، يصعب التعرف عليهم بواسطة رجال الآثار وتمييزهم من البيزنطيين الذين أزيحوا عن مواقعهم. فنشاط الفرسان في غياب وجود مباني الحصار لم يترك أثراً على الطبيعة بالإضافة إلى أنه في وقت الغزو العربي لليبيا لم تكن هناك عملات إسلامية مميزة أو أواني فخار إسلامية شائعة الاستعمال في ذلك الوقت. لهذا يصعب التمييز بين موقع احتلال عربي في المرحلة الأولى، وبين موقع بيزنطي في مرحلته الأخيرة، فعملة هيرقل المتوفرة جداً كانت شائعة التداول عند البيزنطيين والعرب.

وحيث لا يمكننا لهذا السبب، أن نعيد بناء مسار الحملات العربية من الشواهد الأثرية فقط، فإننا على الأقل، نستطيع أن نقوم أثرها المحتمل، ليس فقط من ناحية الدفاعات العسكرية التي كان لابد أن يحسب حسابها بل أيضاً من ناحية التركيب السياسي والديني للسكان الذين وقعت أرضهم تحت أقدام الغزاة.

وقد يساعد هذا التقييم في توضيح بعض الأخبار الغريبة التي وردت في المصادر القبطية التي تؤرخ للغزو العربي لليبيا، بما فيها عبارة للمؤرخ يوحنا النيقيوس John of Nikiu التي يبدو من غير المحتمل أن يحرفها أو يتجاهلها

المترجمون المحدثون (انظر الملحق) إنها تلقي الضوء على الاستراتيجية الموجودة وراء اندفاع عمرو بن العاص إلى برقة 642 ميلادية.

الحملة الأولى لاتحاد المدن الخمس (صيف 642)

من المعقول أن نفترض، كما فعل المعلقون، أن أول حملة عربية إلى اتحاد المدن الخمس لم تتحرك قبل استيلاء العرب على الإسكندرية (في 8 نوفمبر سنة 642) والشك الوحيد هو فيما إذا كان عمرو بن العاص قد انتظر حتى جلاء البيزنطيين عن الإسكندرية (في 17 سبتمبر سنة 642) قبل أن يتحرك إلى الغرب. ويتمسك بتلر بوجهة النظر القائلة بأن الاستيلاء الكامل على الإسكندرية كان خطوة لابد منها قبل غزوة البنتابوليس، Pentapolis (7) أما كيتانى Caetani (8) فقد افترض أن الحملة قد تمت في صيف 642 بينما كان العرب لا يزالون في انتظار تسليم المدينة لهم.

هذه النظرة الأخيرة تبدو بالطبع أكثر احتمالاً لأن عمرو بن العاص، على فرض أنه حصل على معلومات كافية عن الأحوال الجوية في شرق ليبيا، قد اختار بالتأكيد أن يوجه ضربته قبل موسم سقوط أمطار الشتاء الذي يبدأ في شهر نوفمبر. فحرارة الصيف لم تكن عائقاً أمام الفرسان العرب الأشداء مثل ما كانت أوحال الشتاء ومياه الوديان التي كان من الممكن أن تقف عائقاً أمام تقدمهم. وبالنسبة لحاجتهم من المياه ففي الأقاليم الساحلية تتوفرعادة كثير من الخزانات التي تحتوي على ماء حتى زمن الصيف حيث تختزن بداخلها بقية من أمطار الشتاء السابق.

والمصادر العربية التي تذكر هذه الحملة لا تعطي أية تفاصيل عن طريقة تسييرها. وأكمل المصادر التي يمكن الاعتماد عليها هو بن عبد الحكم (في القرن التاسع الميلادي) (9).

فبعد أن يقرر هذا المؤرخ أن بربر اللواتاح Luatah قد احتلوا أناتابولس Anatapuilus أو البنتايوليس Penatapolis أو برقة منذ وقت طويل يضيف "والآن دخل عمرو بن العاص البلاد ووصل بفرسانه إلى برقة التي عقد مع سكانها معاهدة وافقوا بمقتضاها على دفع 13000 دينارا (ثلاثة عشر ألف دينار) جزية سنوية مع شرط يسمح لهم بأن يبيعوا أولادهم لدفع الجزية.

وهناك مصدر ثان (10) يذكر أن العرب قد حاصروا هذه المدينة لبعض الوقت قبل أن يتم عقد هذه المعاهدة، وواضح أن جميع المصادر تتفق على أن الجزية السنوية كانت تدفع تبعاً لذلك بانتظام، ولم يتطلب الأمر إرسال جامعي الجزية أبداً إلى برقة، ونتيجة لذلك اعتبر هؤلاء السكان أكرم الشعوب وأكثرها ميلاً للسلام.

وعلى الجانب القبطي الذي يجب أن يكون محل اعتبارنا الآن، نجد أن المؤرخ يوحنا النيقيوس يشير باختصار إلى غزو البنتابوليس، لكنه لا يعطي أي إشارة إلى مدينة برقة أو إلى معاهدة السلام التي وقعت بين العرب والبربر. والواقع ان هذا المصدر التاريخي الذي ترجم ترجمة حرفية من اللغة الحبشية (هو المصدر الوحيد لدينا الآن) يعطي تقريرا مختلفاً جداً عن هذه الحملة.

"إن عمرو بن العاص قهر مصر، وأرسل يطلب سكانها ليحاربوا سكان البنتابوليس، لكنه بعد أن حقق النصر، لم يسمح للمصريين بالبقاء هناك. ثم أخذ من هذا القطر الغنائم والأسرى بأعداد كبيرة."

أما أبوليناروس حاكم البنتابوليس فقد انسحب بقواته مع أثرياء الإقليم إلى مدينة دوشيرا أوتشويرا، بعد أن حصن أسوارها تحصيناً قوياً وأغلق أبوابها، لذلك عاد المسلمون إلى بلدهم بالغنائم والأسرى.

هذه القصة تأتي في التسجيل التاريخي مباشرة قبل ذكر وفاة البطريرك ساويرس (مارس 642) لكننا لا نستبعد أن تكون هذه الحملة قد تمت فعلاً بعد ذلك بعدة شهور في فصل الصيف. والجدير بالملاحظة أن جون النيقيوس يلمح إلى أن المصريين الأقباط قد أرسلوا إلى النبتابوليس لمعاونة الحملة، لكنهم حرموا من ثمار النصر الذي تحقق نتيجة تعاونهم مع العرب الذين احتفظوا لأنفسهم بكل الغنائم والأسرى.

وعلى الرغم من الانتصار الأول الذي أشار إليه جون النيقيوسى فإن البيزنطيين لم يهزموا تماماً بل ظلوا مسيطرين على توشيرا وربما على بعض الأماكن الأخرى البعيدة في الغرب، وقد ظل خطر وصول التعزيزات البيزنطية براً عن طريق طرابلس أو البحر عن طريق كريت والقسطنطينية حتى تم القضاء نهائياً عليهم. وانتهى الاحتمال الأول بالاندفاع العربي الخاطف نحو طرابلس في سنة 643، وتعطل الاحتمال الأخير بحملة ثانية إلى البنتابوليس ويبدو أنها تمت في 644 م أو 645م.

الحملة الثانية (644 – 645 ميلادية)

لا تذكر المصادر العربية أي شيء عن هذه الحملة ونحن نعلم بها من فقرة في "تاريخ بطاركة الكنيسة القبطية الذي ينسب عادة إلى الأسقف ساويرس أسقف الأشمونين (القرن العاشر الميلادي) والذي يجسد لنا بعض أجزاء السجل التاريخي المبكر الذي وضعه أبو جورج أرشيدياكون وسكرتير البطريرك سيمون (689 – 701) على جبل القديس مكاريوس بوادي حبيب.

ويقرر المصدر التاريخي (13) أن عمرو بن العاص قد رتب الأمر مع الدوق سانوطيوس (الذي سنتحدث عنه فيما بعد بالتفصيل) لكي يتخذ الترتيبات اللازمة

لدعوة البطريرك القبطي بنيامين الذي ظل مختفياً مدة طويلة نتيجة لعمليات القمع ضد العقيدة الأرثوذكسية. وفي أول لقاء لهما خاطب عمرو البطريرك قائلاً:

" استأنف حكم كنائسك كلها ورعاية شعبك، وإن شئت فصلي من أجلي حتى اذهب غرباً إلى البنتابوليس وأستولي عليها كما استوليت على مصر وأعود سالماً وسريعاً." ثم صلى الأب القديس بنيامين لعمرو وألقى خطبة بليغة بهذه المناسبة. بعد ذلك زحف عمرو خارجاً من الإسكندرية وزحف معه سانوطيوس محب المسيح.

وتستمر القصة فتشير إلى وقوع بعض المعجزات فعندما أوشكت سفن المؤن التابعة للحملة أن تتحرك من الإسكندرية فإن السفينة التي ركبها سانوطيوس نفسه رفضت أن تبحر لأن قائدها قد أحضر خلسة رأس القديس مرقس، المسروق من قبره الذي تحطم وفتح أثناء غزو الإسكندرية فأوقف سانوطيوس السفينة التي يركبها القائد عمرو وعاد ليفتش سفينته هو، ووجدت رأس القديس التي أعيدت إلى القبر (رتب سانوطيوس أن تسترد على نفقته) ثم تحرك الأسطول في طريقه دون صعوبة تذكر.

وعلى الرغم من هذه المعجزة فليس هناك من الأسباب ما يدعونا للتقليل من جوهر الحقيقة التاريخية لهذه القصة (فإعادة بناء مزار القديس مرقس لابد أن يكون قد تم بناء على ذكرى معينة قد اقترنت في تاريخ الكنيسة القبطية بشخصية ما وبمناسبة ما) وشخصية سانوطيوس كما نرى شخصة تاريخية ولو صح أن عمرو احتاج فعلاً لاستخدام السفن، فمن الضروري أنه احتاج لقبطي لقيادتها. أضف إلى ذلك أن بنيامين قد عاد من المنفى الذي استمر 13 عاماً في خريف 644م. فهذه الحملة إذن لا يمكن أن يختلط أمرها بالحملة التي وقعت في 642 م كما أوضحنا سابقاً.

هامش:

1- يشير بتلر (11) إلى حملة ثانية إلى البنتابوليس وقعت في عام 25 هجرية وربما كان يقصد غارة الفرسان التي اتجهت إلى المغرب في تلك السنة بواسطة عبد الله بن سعد بن أبي السرح (12) لكن اهتمامنا ينصب هنا على حملة مدعمة من البحر خرجت من الإسكندرية التي لابد أنها تركت الإسكندرية قبل إعادة فتحها لفترة قصيرة التي قام بها ما ينول في أوائل 25 هجرية.

+ - فى عام 1979 كنت أعمل فى مدينة بنغازى وفى ذلك الوقت قدم لى الأب بنيامين راعى كنيسة بنغازى القبطية هذا النص باللغة الإنجليزية وطلب منى ترجمته وأعطيته الترجمة واحتفظت لنفسى بهذه النسخة

11- هذا العصر وثقافته

للدكتور زكى نجيب محمود

هذا كتاب من الكتب النافعة حقا، لأنه يحرك عقل القارىء ويحفزه للبحث فى مشاكل مجتمعنا المصرى بصفة خاصة والمجتمع العربى عموما، والكشف عن جذورها الكامنة فى مناخ حياتنا الثقافية. فقد شغلنا كثيرا بمشكلة الأصالة والمعاصرة، وصار السؤال المطروح بإلحاح فى الربع قرن الأخيرهو: " كيف أصون تراثى ليبقى فى حياتى الحاضرة كأنه حيا " ثم كيف يتفاعل هذا التراث نفسه مع مقومات العصر، تفاعلا يجعلنى أحيا الجانبين معا بغير تكلف ولا ادعاء فاظل عربيا كما كنت دائما وأكسب صفة المسايرة لعصرى حتى لا أتخلف فيصيبنى الركود فالجمود والموت؟

وهذه الأزمة كما يقول د. زكى نجيب محمود " لا يتأزم بها بلد من البلاد المتقدمة، وتعليل ذلك واضح وبسيط، فالحضارة العلمية الجديدة وليدة تلك البلاد المتقدمة، انبعثت من عقول رجالها وقلوبهم وبالتالى فقد جاءتهم موصولة بماضيهم صلة طبيعية"

والإشكال الضخم هو إشكالنا نحن، فحضارة هذا العصر ليست من صنعنا ولا شاركنا فى ذلك الصنع بقليل أو بكثير، بل هى حضارة فتحنا عيوننا عليها فوجدنا عملاقا متكامل البناء والأجزاء. فقد عزلنا عن العالم ثلاثة قرون أو أكثر فى ظل الاحتلال التركى العثمانى لبلادنا وانقطعت صلتنا بالعالم الخارجى وبالعلم وانجازاته حتى فوجئنا بذلك كله عند مجيء الحملة الفرنسية الى مصر. وحدثت الصدمة الحضارية التى أخذت تحرك حياتنا منذ ذلك الحين.

ورغم حركات التنوير والتعليم التى ظهرت منذ ذلك الحين إلا ان رواسب العصر التركى قد اصابت العقل المصرى والعقل العربى فى الصميم بصورة قوية أعجزته عن المساهمة الحقيقية فى ثقافة العصر وانتاجه الفكرى النظرى الذى يحررنا من قيود عبودية التقاليد ويدفعنا الى السير بخطى ثابتة الى الأمام. فكل ثورة للتحرر تجهضها حركة رجعية للتخلف. فثورة عرابى كانت ثورة مصرية

صحيحة تنزع الى التحرر من الاستعمار والاستقلال فأجهضها التحالف الانجليزى التركى مع الخديو توفيق وقوى الرجعية المصرية فصدرت الفتوى بتكفير عرابى ورفاقه. وجاءت ثورة 19بقيادة سعد زغلول تقود مصر على طريق الاستقلال والدستور والديمقراطية ونجحت هذه الثورة فى تغييير بعض المفاهيم الخاصة بحرية الفرد وتحرير المرأة ونشرالفكر العلمى والعلمانى فى مصر.
وهذه الأزمة فى رأى الدكتور زكى نجيب مجمود أخطر من أن تترك بلا حل. لكن كيف؟

أن أوضح ما يميز هذا العصر هو العلم وتكنياته، والحل المقترح هو صب هذا المضمون العلمى فى وعاءين من عندنا -

1- وعاء اللغة فننقل الى اللغة العربية نتاج الفكرالعصرى كما هوفيصبح هذا النتاج عربى القسمات والملامح.
2- أما الوعاء الثانى هو قواعد السلوك من تشريع وعرف على شرط ألا تتعارض هذه القواعد من تشريع وعرف مع ما تقتضيه علوم العصرعلى اختلافها. فان تعارضنا وجب الابقاء على علوم العصر وحذف ما يتعارض معها من قواعد التشريع والعرف.

المصاعب:

1- البعض يعارض ترجمة العلوم الى اللغة العربية ويصرخون بأن هذا ضرب من المحال.
2- وعاء السلوك والتشريع كذلك يجد من يحتجون من الجامدين بأنه إما يبقى قديمنا كله واما ان تلقوا بعلومكم كلها فى النار.

تحولات فى المناخ الفكرى

لم يحدث أى تحول فى حياتنا الثقافية يساير تحولات حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية – فالمناخ الفكرى أصبح يسوده الشك والوسوسة والارهاب بل عدنا نناقش قضايا انتهينا منها فى عشرينات هذا القرن مثل أسس الدولة المدنية وحق المواطنة بل وحق المرآة فى التعليم والعمل – فإذا اجرينا مقارنة تحليلية بين أوجه نشاطنا الفكرى خلال العشرينات من هذا القرن، وما يقابلها خلال الستينات والسبعينات. فلن نجد بينهما فارقا نوعيا يستحق أن يوصف بأنه " ثورة " أى تحول فى عالم الفكرأو أوجه النشاط الفكرى. هى أقرب الى المبادىء الفكرية والقواعد التى نقيم عليها حياتنا الفكرية القريبة من ميادين العمل فى دنيا السياسة والاقتصاد والاجتماع.

ومن ثم فان الكثيرين منا يعيشون حالة ازدواج فكرى أو ازدواج الشخصية فلا تتسق مبادئهم مع دنياهم فى هذه الميادين، فيعيشون النتائج من شكل ويحتفظون بالرؤوس من شكل آخر كالذى يحفظ قواعد النحو والصرف ولكنه يخطىء حين يكتب فينصب الفاعل ويرفع المفعول به.

يقترح الدكتور زكى نجيب محمود تسمية مجموعة المبادىء والقواعد الأساسية "بالمناخ الفكرى" أو "النمط الفكرى" ويرى ان حياتنا المعاشة تغيرت بصورة ملحوظة وأما المناخ الفكرى العام فيوشك ألا يصيبه تغير ذو بال. فالثورة الفكرية لا يتم تحقيقها ،إلا بتحول " المناخ " أو النمط " من حال الى حال.

فلكل عصر نمط فكرى يعرف بالمناخ العام. وهذا هو الطابع الذى يميز كل عصر. فالنمط الأرسطى كان يغلب على التفكير فى العصور الوسطى – وكانت نظرية ثبات الأرض من فكر بطليموس. فلما جاء كوبرنيكوس تغيرالنمط العام أو المناخ العام. فالأرض هى التى تدور حول الشمس. وحدثت الثورة الفكرية وتم فصل السلطة الزمنية عن السلطة الدينية - فلابد من ثقافة عصرية – عقلانية بالمعنى الصحيح الذى يربط الفكر بالمستقبل وعلى أساس النظريات والمبادىء. وكان د. محمد كامل حسين يقول:" نريد العقل العلمى الذى يحلل ويعلل ولا نريد العقل الاقطاعى أو عقل العصور الوسطى الذى يسلم ويستسلم " 4

- معايير الحضارة فى مجتمع ما:

يبدأ الدكتور زكى نجيب هذا المقال باشارة الى كتاب " يوتوبيا " أو المدينة الفاضلة الذى ألفه الكاتب الانجليزى توماس مور فى القرن الخامس عشر. فى الحياة المثلى لا يكون للمال دخل فى تقدير الناس ارتفاعا وانخاضا، فقد يتكدس الذهب أكواما عند انسان لاقيمه له بمقاييس الحياة المرهفة المهذبة، وقد لا يملك انسان آخر قيراطا من الذهب، ولكنه بمقاييس تلك الحياة يحتل المكانة العليا.

لقد أخذ رجال الاقتصاد والاجتماع متوسط دخل الفرد كمعيار للتقدم أو التخلف. وهو مقياس غير كاف. فى ظل غياب عدالة التوزيع – إن ارقام الكسب والانفاق قد لا تدل وحدها على ما يراد قياسه. هل زيادة الانفاق على التعليم تدل بالضرورة على مقدار ارتفاع الناس فى درجات الاستنارة والحضارة؟ المهم هومناهج التعليم.

البحث عن معاييرأخرى، تمكن من معرفة الدرجات المتفاوتة بين حياة وحياة يشترط أن تؤخذ غزارة الحياة فى الحساب، ولا يكتفى بقياسها طولا وعرضا، بما ينعم به الانسان من يسر بأوسع معانى هذه الكلمة.

لأن الحياة الميسرة تتطلب- الى جانب ارتفاع المستوى الاقتصادى جوانب أخرى قد يصعب قياسها بدقة الحساب كالصحة والخلو من المرض، وكالتربية التى تعمل على تطور الشخصية الانسانية بكل ممكناتها، وكذلك تكافؤ الفرص بين الناس فى العمل وفى التمتع بأوقات الفراغ.

12- المحاور اللولبى ....مفيد فوزى

مقال لم ينشر

لاينكر أحد شهرة الاستاذ مفيد فوزى العريضة بين الجماهير العربية ولا يشك أحد فى أنه استحق هذه الشهرة نتيجة قدرة عجيبة على السير بين المتنا قضات السياسية والثقافية والاجتماعية. ورغم هذه الشهرة فإنه يصعب على أى متابع لمفيد فوزى وكتاباته وأحاديثه أن يحدد مكانه بين تيارات المجتمع المصرى السياسية والاجتماعية المتلاطمة.

ففى ميدان الكتابة نجد له عددا من الكتب أهمها كتابه عن الأستاذ حسنين هيكل الذى يعتبره مفيد فوزى نموذجا للصحفى الحقيقى الذى يحتذيه فى منهجه وأسلوبه. وهو شىء نستطيع أن نفهمه لأننا نتابع هيكل منذ عشرات السنين ونعرف أن الرجل كاتب قدير له منهج وخط سياسى معروف وأسلوب فى الكتابة لايدانيه أحد فى مجال الصحافة ، كما أن له نظرة وطنية وقومية واضحة، ارتسمت خطوطها منذ أن اقترب من الزعيم جمال عبد الناصر وتبنى فكر ثورة يوليو حتى لو ظهرت فى كتاباته الآن بعض المراوحات.

لكن ماذا عن مفيد فوزى؟ إن المحاور اللوذعى يتميز بالبراعة واللباقة فى كثير من الأحوال، فهذه أدواته وعدته فى النجاح. ولن أطيل الوقوف حول استخدامه لهذه الأدوات المتاحة له، ومدى نجاحه فى تقديم شىء ينفع المجتمع أويساعد فى الكشف عن المشاكل الحقيقية وكيفية حلها . كان حياء الرجل يتحاشى هذه الأمورمع أصحاب الأيدى االناعمة والجباه العالية. قارن بين هذه الكياسة والرقة فى الأسئلة اللينة التى يطرحها على

وجوه المجتمع وأرباب السلطة وتحاشيه لكل سؤال جاد أو محرج، وبين جرءته فى طرح الأسئلة المحرجة والضغط على أعصاب الضعفاء والمحبوسين الذين لاحول لهم ولاقوة . وكذلك طرح الأسئلة الجارحة لبعض السيدات الفاضلات فى الشارع مثل ،... هل ختنتى بنتك ؟ وغير ذلك مما لاتحصيه الذاكرة. ولانذكر أنه حاور أحدا من رجال السلطة وكبار المسئولين الفاسدين وواجههم بما يقوله الناس عنهم. فبرنامج " حديث المدينة" ماهو إلأ برنامج من برامج التسلية وتجميل وجه الوزراء والمحافظين وإتاحة الفرصة لهم لاستعراض عبقرياتهم ومآثرهم على الشعب المسكين.

كانت معظم حواراته مع ذوى السلطة والمال تأخذ شكل تمثيلية حوارية خفيفة لامتصا ص غضب الجماهير ودغدغة مشاعرهم . تذكر أحتفاله كل عام بعيد الشرطة ووزير الداخلية حبيب العادلى الذى عقد فور توليه منصبه صفقة سرية مع الأرهابيين تم بمقتضاها السماح لهم بالعدوان على المسيحيين وقتلهم ونهب اموالهم بشرط ألا يتعرضوا لضباط الشرطة والسياح . وقد تأكد ذلك فى المجازر التى أقاموها لعشرات من المسيحيين فى القرى والنجوع وأغتصاب أراضيهم تحت سمع وبصر رجال الشرطة والأمن . لم يقدم مجرم واحد للعدالة فى هذه القضايا ، ولم يحكم على أحد . لعدم كفاية الأدلة وعدم العثور على الأسلحة المستخدمة فى هذه الجرائم لأن القتل كان يتم بالتواطىء مع رجال الشرطة فى بعض الأحيان . وكان حبيب العادلى يكافىء رجال الشرطة الذين يساهمون فى هذه الجرائم ويلفقون التهم للأقباط الغلابة.

خذ مثلا مذبحة الكشح التى قتل فيها إثنان وعشرون رجلا من أبناء المسيحيين تمت بهندسة وتدبير حبيب العدلى ورجاله فى الأمن والمباحث ضمن برمجة عمليات قتل الأقباط وتعذيبهم بدءا من عام 1998 وما بعدها حتى مذبحة كنيسة القديسين 2010، وعلينا أن نهتم بهذا التوقيت : ففى 17 نوفمبر 1997 أقيل اللواء حسن الألفى من وزارة الداخلية بسبب مذبحة السياح فى معبد الدير البحرى بالاقصر ، وتم فى نفس الوقت اختيار حبيب العدلى وزيرا للداخلية وبعدها تمت الصفقة بين العدلى والجماعات الاسلامية على أن يتوقفوا عن قتل رجال الشرطة والسياح وفى المقابل يترك لهم حرية ترويع المسيحيين وقتلهم.

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا ألم يلاحظ المحاور اللولبى بذكائه الفذ ، لماذا يقوم رجال المباحث بالتغافل عن عمليات قتل المسيحيين وترك الجناة فى كل جريمة طلقاء، وكانت نتيجة ذلك أنه لم يحكم على مجرم واحد فى هذه القضايا ورغم شكاوى المسيحين وصرخاتهم كان الحبيب الندل المسمى بالعدلى يرقى هؤلاء الضباط وينقلهم إلى أماكن أفضل ؟ ونتيجة لهذا التشجيع كان بعض الضباط المتعصبين يقومون بارتكاب هذه الحوادث الإجرامية ضد الأقباط بأنفسهم كما حدث فى واقعة خطف كاهن واثنين من مساعديه من منازلهم بعد منتصف الليل فى عربة المباحث واغراقهم فى مصرف مياه بسمالوط ولم تتم اى محاسبة للضابط الذى قام بهذه الجريمة.

والمحاور اللوذعى يشيد بعظمة هذا الوزير وقدرته على ضبط الأمن فى المجتمع بل بلغت به الوقاحة أن يصرح لإحدى الفضائيات بعد ثورة الثلاثين من يونية وقيام الأخوان بالعدوان على مؤسسات الدولة وقتل الأفراد وحرق كل مايستطيعون حرقه ، فى هذه الظروف يصرح مفيد فوزى بأنه لوأطلق سراح حبيب العدلى فسوف يعيد الأمن والنظام فى ظرف يوم أو يومين . يا سلام يارجل !

فكل ما فعله اللواء محمدابراهيم وزير الداخلية ورجاله الذين يستشهدون كل يوم والذين شاركوا الجيش فى دعم ثورة 30 يونية لم يكن كافيا ولا مقنعا للسيد مفيد فوزى، فأراد أن يعيد نظام مبارك مجسدا فى أبشع رموزه وهو حبيب العادلى وكان الأمر يحتاج الى حبيب العادلى الذى حمى الجماعت الدينية الإرهابية من أخوان مسلمين وسلفيين وأوصلهم ألى البرلمان فى ظل حاكم ذاهل وحكومة فاسدة لايهمها سوى نهب أموال هذا الشعب المغلوب على أمره . وكيف تغافل مفيد فوزى عن العنف والقسوة التى كانت تمارس ضد أفراد الشعب فى أقسام الشرطة وضد المعارضين للسلطة ومنتقديها ؟ لماذا لم يسأل حبيب العدلى عن مصير الكاتب الصحفى البارز رضا هلال ؟ ألم يحس بقرصة ضمير حين يختطف زميل له صحفى شاب فى قيمة رضا هلال ؟

المهم هو البراعة فى الكلام وخداع البسطاء فلا يهم المحاور اللولبى سوى النجاح الجماهيرى واكتساب الشعبية، ولكن كيف استثمر مفيد فوزى هذه الشعبية فى الاعلام؟ .

مفيد فوزى هو خادم سيدين هما حبيب العدلى وزير الداخلية وصفوت الشريف وزير الإعلام وهما من أحط الشخصيات أخلاقا فى تاريخ السلطة فى مصر، وسيرتهم معروفة للكثيرين.

ففى حين أن استاذ الصحافة الكبير والمثل الأعلى حسنين هيكل لم يحد عن طريقه فى الكتابة السياسية والبحث فى أخطر مشاكل هذه الأمة وطرحها على الرأى العام، نجد مفيد فوزى قد تحول إلى منافق لأن أستاذه الكبير هو شيخ المنافقين موسى صبرى. فلم يكتف بمتابعة الأحداث الوطنية كصحفى نشيط وذكى وهو كذلك، بل تحول إلى متابع لشئون الرقص والغناء والتمثيل بل وحتى كرة القدم . وبهذا أصبح صديقا للمشاهيرفى كل هذه الميادين.

ولكن طموحه لم يقف عند هذا الحد بل أراد ان يكون حكما فى كل لون من ألوان الفن ، ونسى أن دوره له حدود ولايجب أن يتعداه إبدا وهو أن يقدم الرأى المبتى على قراءة موضوعية للعمل الفنى الذى يشاهده او يتكلم عنه بحيث يمدح ولا يجرح ، لكنه انزلق إلى الهجاء وضرب كل من لايسير على هواه.

يا سبحان الله !! كاتب صحفى يجهر بأنه حر ونصير للحرية ويفخر بأنه لايقبل أن يفرض عليه راى أو توجيه ...هكذا يدعى ، ويحاول فى نفس الوقت أن يتسلط على الآخرين.ليس كلهم طبعا بل البعض منهم . وهنا لحسن الحظ أن السيد مفيد فوزى قد دخل منطقة الهزل والعبث وهى منطقة يتحرر فيها الإنسان من الضوابط والقيود، وينفك فيها أسره فيرتدى جاكتة مزركشة أو مخططة مثل أثواب البهلوان ويرقص ويغنى إعجابا بنفسه مثل نيرون والكاميرا تصور واتفرج ياسلام .

وفى هذه المنطقة لايقف الرجل وحده بل لابد أن يصطفى له شلة من الفنانين والفنانات الذين تتوافق مصالحه معهم قيمدحهم ويقوم بالدعاية لهم تلميحا وتصريحا، وهذا حقه ، لكن يتم ذلك فى مقابل التشهير بآخرين ممن لايعجبن وحيد زمانه. ومن سوء حظ الجماهير فى مصر والعالم العربى ان الفضائيات كانت تبحث عن الفضائح والخناقات التافهة جذبا للجماهير والإعلانات وذلك نتيجة لضيق مساحة الحرية والقيود التى كانت مفروضة على الآعلام لكى تحول بينه وبين الدخول فى القضايا الجادة التى تمس حياة الناس ومشاكلهم الحقيقية. فأصبحت المهازل والعبث هى الأشياء المظلوبة فى هذا المجال وأصبح المحاور اللولبى هو النجم المفضل للحديث فى هذه الأمور وفى كثير من الفضائيات لكى يستمر العرض واتفرج يالاسلام.

بدأت نرجسية المحاو اللولبى تتجلى بصورة بشعة، فأخذ يتحدث عن نفسه وعن عبقريته، وعن قدرته على الإلهام، فزوجته رحمها الله،كانت سيدة فاضلة فعلا، وبمحبة نادرة كتبت تعليقا فى سبعين صفحة عن مقال لفارس الزملن ووحيد العصروالأوان مفيد فوزى، لتلفت نظره إليها فتزوجها، ... وابنته الشابة صحفية ناجحة أثبتت وجودها بقوة بارزة وأصبحت يشار إليها بالبنان، وأنا أدعو لها بمزيد من التقدم والنجاح ، وحفيده شريف صبى نابغة وارث لعبقرية جده، وقد أخذت ملامح العبقرية تظهر عليه وتلفت إليه الأنظار على طريقة هذا الشبل من ذاك الأسد. وبالمناسبة أنا أدعو للإستاذ مفيد فوزى بطول العمر وبالسعادة والسلام مع إبنته الكريمة وحفيده المحبوب الذى أتمنى أن أراه واحدا من أبرز علماء مصر المستقبل. ولكتى أعود وأتساءل:

هل يحق لمفيد فوزى فى الوقت الذى يفخر فيه بابنته الشابة وإبنها الجميل أن يشن هجوما على مطربة ناجحة فى سن أبنته ويحرض عليها، فيقول إن نانسى عجرم بنت مايصة. هل يصح أن يقول هذا الكلام على الهواء فى برنامج " مايسترو" الذى يقدمه المذيع الخفيف الظل نشان ، وقد حاول هذا المذيع اللبق أن يحد من هجوم مفيد فوزى الذى يصر ويؤكد رأيه بإجراء مقارنات بينها وبين فنانات أخريات يعجبون المحاور العبقرى.

فالرجل يستغل المساحة المتاحة له لفرض ذوقه على الجماهيرأو لمحاربة فنانة شابة صاعدة فى طريق الشهرة لصالح زميلات لها من كبار الفنانات. وهذا هو الانحراف بعينه. وبالمناسبة، أحب أن ابين أننى لست طرفا فى هذه المسائل ولا علاقة لى بهذا الجو الفنى، ولا بأى أحد من المطربين والمطربات، وأحمل للجميع – كمستمع – كل محبة وتقدير. وقد أوافقه على إشادته بديانا حداد و بالمطربة أصالة ولطيفة التى لم يذكرها فى معرض مدحه، هذه واحدة . أما وقفته الثانية كانت فى نفس البرنامج، كانت أمس (الأحد 18سبتمبر 2000) حيث ظهر العبث بأجلى معانيه .

فقد اتخذ الفارس الهمام موقع القاضى وبدأ فى محاكمة المذيع نشان وأتهمه بالنرجسية ثم دخل فى الحديث عن علاقاته بالجنس ألآخر. ثم قال مفيد فوزى عن نفسه إنه يريد واحدة فى حنان فلانة ونعومة علانة وجمال فلانة وعذوبة ترتانة وذكر السيد مفيد فوزى ما لايقل عن عشرة أسماء لفنانات محترمات ومحبوبات لاأريد أن أنزلق فى طريقه، واذكر أسم واحدة منهن. وأقف لأسأل كيف عرف مفيد فوزى أو أحس بحنان فلانة ونعومة علانة أوعذوبة ترتانة. إن الصفات التى ذكرها مفيد فوزى تخدش الحياة، فهل وصل العبث إلى هذا الحد؟!

ثم انتقل الرجل من هذا الموقف الهزلى الغريب ألى الهجوم على نانسى عجرم مرة ثانية واتهم نشان بأنه عجرمى الهوى والهوية فرد نشان بأنه عجرمى الهوى فعلا أما الهوية فهو لبنانى . وهكذا سار الحديث فما هى عقدة الكراهية التى تتفجر بعنف عند مفيد فوزى حتى وهو يقف موقف القاضى ليحاكم زميل شاب فى مجال الإعلام. ؟

لقد أضحكنى هذا الموقف وأضحك من كانوا يشاهدون البرنامج معى، ولكنه ضحك كالبكاء . فضربت كفا بكف. هل وصلت حالة مفيد الى هذا الحد؟!! هل انساحت عنده الحدود بين الأنشطة الصحفية وانداحت القواعد الإعلامية وصار من حقه أن يرفع من يشاء ويهبط بمن يشاء على هواه. أنا واحد من الناس أرفض هذا العبث والطغيان من أى أنسان يريد أن ينصب نفسه قوميسارا للفن والفنانين ويفرض ذوقه عليهم فى وقت يبحث الناس فيه عن االحرية والتنوع فى الإبداع .

إننى إيمانا منى بحرية التعبير لآ أدعو ألى منع مفيد أوأمثاله من الكلام فى مثل هذه المواضيع وإنما أدعو إلى الإلتزام بقدر من الحياء. لقد ثبت أن الحياء الآجتماعى له تأثير كبير فى حماية المجتمع من التحلل وانتشار الجريمة ...

(راجع كتاب التاريخ البيولوجى للإنسان لمؤلفه الدكتور كامل حسين جراح العظام الراحل)

كما أطالب بفتح النوافذ لمناقشة سطوة الفكر الدينى المغلوط على حياتنا وتهديده لقضية حرية التعبير وحرية النشر، وأطالب بفصل الدين عن الدولة حماية لحرية الفكيروحرية الضمير وإلغاء قانون إزدراء الأديان الذى يعنى إزدراء الإنسان . وعندما تنفتح هذه النوافذ يصبح مثل هذا الهزل الذى يردده مفيد فوزى وأمثاله أمرا ممجوجا ويعتدل ميزان الاهتمامات الفكرية والثقافية للمجتمع، ويستقيم الحوار.

أما مشكلة مفيد فوزى مستفحلة، فالرجل لايشبع من الشهرة ومن التشهير أيضا ،فإذا كانت نانسى عجرم قد أخذتها نشوة النجاح والشباب فتمادت قليلا فى الظهور بفستان يكشف بعض مفاتنها، فهل هى الوحيدة التى تفعل ذلك، ولماذا يركز هجومه على هذه الفنانة الصاعدة التى تصغر ابنته بسنوات ويتابع الهجوم عليها على مدى شهور؟! ولماذا لم يتجه تفكيره ألى أسباب انتشار العرى والبذاءة فى الأفلام والمسلسلات وفى كثير من البرامج التليفزيونية، ويسأل عمن عملوا على نشر الفن الهابط والفكر الهابط ؟

هل مفيد فوزى لايعرف حقا من هو صاحب هذه السياسة الإعلامية والثقافية المدمرة. إذا كان لايعرف فليسأل أستاذه وراعي برنامجه السيد صفوت الشريف . ألا يعرف مفيد فوزى أنه كان واحدا من من كتيبة العمل على تدمير الحياة الثقافية وكل ما أنشاته ثورة عبد الناصرالذى يكرهه مفيد فوزى شخصيا - لأنه منع من الكتابة فى عهده لمدة ستة شهور- ألا يعرف أن التليفزيون المصرى باعتباره القائد لعمليات الإعلام والنشر فى المنطقة العربية كلها هو الذى روج وشجع على نشر العرى والبذاءة والإسفاف بإذاعة المسرحيات التافهة والأفلام التافهة .. ومنع إعادة عرض الأفلام العظيمة والمسلسلات العظيمة التى أنتجتها فترة الستينات ، بدعوى تسلية الجماهير وإلهائها حتى لاتنشغل بمشاكل السياسة والاقتصاد والفساد المالى والإدارى، أو تنتبه لسرقة ونهب القطاع العام عن طريق جماعات الإنفتاح والنهب العام .

وزيادة فى تعمية الجماهير عمل عباقرة الإعلام على زيادة الجرعة الدينية فى البرامج والمسلسلات الاسلامية التى كانت تزيف الواقع والتاريخ والتراث المصرى من أجل التعبئة العاطفية ، ونشر التعصب الدينى والطائفى إرضاء للتيار الأسلامى المتطرف بل والمزايدة عليه على حساب استقرار المجتمع وسلامه وأمنه. كانت هذه المسلسلات تصف أجدادنا الفراعنة الذين سنوا قواعد القانون والأخلاق وبنوا أعظم حضارة وعلموا العالم كله، بأنهم كفرة وعبدة أصنام وبهذا يحرضون على تدمير التماثيل والمسلات ،بل والأهرامات أيضا باعتبارها تراث حضارة وثنية بائدة.

وقد كشفت الأيام أنه تخطيط قديم وضعته عقول شيطانية وجاءت عقول انتهازية لتقوم بتنفيذه. إن داعش وما تفعله الأن من حرق وتدمير لتراث وادى الرافدين فى سوريا والعراق يربط الحاضر بالماضى ويؤكد كل ما أقول. وفى المقابل وضعت سياسة نشر البذاءة والتفاهة والعرى فى الفن والأدب بدعوى التسلية والمتعة لتضع الشعب أمام خيارين لا ثالث لهما إما القمع الدينى أو الانحلال الأخلاقى. لم يكن صفوت الشريف ساذجا وهو يقود هذه السياسة الإعلامية المدمرة بل كان يجد فى إلهاء الناس عن مفاسده هو واولاده. والذين اصطفاهم هذا الوزير من أمثال مفيد فوزى وغيره كانوا يعلمون ويعملون بدافع المصلحة الشخصية ولتذهب مصلحة الوطن ومستقبله إلى الجحيم .

لماذا لم يتململ مفيد فوزى مرة واحدة ويسأل رعاته سواء وزير الداخلية الهمام الذى قمع أقباط مصر وأحزابها جميعا لصالح الإخوان وجماعات الآرهاب السياسى، أو الوزير صفوت الشريف أو الرئيس مبارك الذى كان يقيم له مهرجانا

سنويا بمناسبة عيد جلوسه أو عيد ميلاده فى برانامجه، لم يزلف لسانه مرة واحدة ويسال عن خطورة هذه الاتجاهات، هذا المحاور والمداور الذى يعلن أنه حر وصاحب رأى وأنه أشجع من عنترة ابن شداد فى زمانه، مع ذلك لم يخطىء مرة واحدة ويخرج على البروتوكول فى وقت كان هناك العشرات من الصحفيين والكتاب المغضوب عليهم والمسجونين والمضروبين فى الشوارع لأنهم اعترضوا على الفساد . لكن البهلوانات هى فقط التى ظلت فى الصورة حتى سقط النظام ووضع رئيسه فى السجن .

يقول المثل الصالح : إذا لم تستطع أن تقاوم الشر ، فعلى الأقل، لاتغنى له ولا تتغنى به . هل نانسى عجرم هى التى أفسدت الإعلام والمجتمع والفن بفستانها المفتوح، وقلبت القيم الأخلاقية التى يغار من أجلها عبقرى الزمان ووحيد العصر والأوان مفيد فوزى. يا أخى والله عيب!!

إن شهية مفيد للشهرة ليس لها حدود. وإشباعا لهذه الرغبة فإننى أدعو التليفزيون المصرى لانتاج مسلسل فوازيرخصوصى يكون بطله الأستاذ مفيد فوزى وسوف يكون حدثا فنيا واجتماعيا يشد الجماهير من المحيط إلى الخليج لأن مفيد فوزى يملك من المواهب الشىء الكثير، وسوف يبدع ويتجلى بحيث يتفوق بشعبيته على الفخرانى واللنبى وغيرهما خصوصا إذا حرص المخرج على إظهاره فى القمصان الحمراء والصفراء المخططة والجاكتات المزركشة التى أعتاد أن يظهر بها على شاشات التليفزيون. وسوف يقارن الناس بينه وبين الفخرانى فى مسرحية "البهلوان " ويطالبون بإعادة أخراجها للبطل الجديد المكتسح .

أحدث تصريحات المحاور اللولبى مفيد فوزى :

بتاريخ 2020/5/18 وفى برنامج شيخ الحارة الذى تقدمه المخرجة المشهورة إيناس الدغيدى قال : لقد ظلم صفوت الشريف كثيرا لأنه صاحب أعظم منظومة إعلامية حكمت العقل والوجدان المصرى على مدى سنوات طويلة ، والسؤال الذى يطرح نفسه هنا : لحساب من فعل صفوت الشريف هذا ؟ لقد حكم صفوت الشريف العقل والوجدان المصرى لحساب الفساد الداخلى والفكر الوهابى وتجريف عقول الشباب وإغراقهم فى الغيبات ونشر الفتنة الطائفية وكراهية الآخر . وابعادهم عن الفكر العقلانى . وقد سبق للعبقرى الأعلام وفارس العصر والأوان أن قال إنحبيب العدلى كان أهم وزير داخلية تولى هذا المنصب فى تاريخ مصر حتى الآن لأنه الوحيد ألذى أدخل الإخوان المسلمين الشقوق . سلامة عقللك يا مفيد لأنه

أدخلهم مجلس الشعب بعدد 88 عضوا بنسب تقرب من ربع المجلس . وللكلام بقية
202 /5/20

13 - هل صحيح انها حالة ردة فكرية ؟

يطرح الدكتور حسين مؤنس على صفحات ، الهلال . موضوع تدهور الفكر العربي المعاصر ، ويفتح الباب لمناقشة. هذه القضية القومية الخطيرة بغية الوصول الى طريقة لايقاف هذا التدهور السائد فى الانتاج الفكري والعلمي بكل أشكاله ووجوهه . . فى العلم وكتب العلم ، والأدب وأعماله شعرا ونثرا وقصصا ومسرحا ، والمسرح بكل نواحيه ، والسينما وكل ما يتصل بها . ، ثم يشير الى عدم ظهور مواهب بين أجيال الشباب . ويكتفى الدكتور مؤنس بالاشارة الى أعراض هذه الظاهرة الخطيرة دون البحث في أسبابها . بل هو يميل الى عدم الخوض في هذه الأسباب اذ يقول في صدر مقاله « لا يهمنا البحث عن أسباب هذا التدهور لأن المهم أن نجد طريق ايقافه ..

فهل يمكن ايقاف هذا التدهور دون الكشف عن أسبابه القريبة والبعيدة في تراثنا الفكرى وتاريخنا الثقافي؟ وكيف يمكن شفاء علة بدنية أو اجتماعية قبل التعرف على أسبابها ؟ ان اغفال الأسباب يجعل العلاج صعبا بل مستحيلا لأنه يخرجنا من الاطار الصحيح لتناول هذه المشكلة المزمنة ، بل ان فترات النهضة التي اشار اليها الدكتور مؤنس والتي ظهر فيها طه حسين والعقاد وعلى عبد الرازق وسلامة موسى وأحمد أمين وغيرهم تردنا إلى أصل المشكلة فنتساءل: (1) مجلة الهلال - نوفمبر سنة ١٩٧٧ .

(1) مجلة الهلال - نوفمبر سنة ١٩٧٧ .

كيف اتيح لهؤلاء أن يظهروا بهاماتهم العالية وقاماتهم المنتصبة ؟ هل كانت مجرد عبقرية فردية دفعت بكل واحد فيهم الى موقعه الشاهق في حياتنا الفكرية

والثقافية أم أن هناك ظروفا أخرى أنضجت هذه العبقريات وأتاحت لها جميعا أن تبدع وتتألق ؟

قال أحد مفكرينا أن العقل العربي كان أكثر حرية في التفكير منذ مائة عام وقال الدكتور حسين فوزى « نحن في حالة ردة فكرية منذ وفاة الملك فؤاد ، اذن فغياب مناخ الحرية الفكرية يعد أهم أسباب هذا التدهور الفكرى لكن توافر مناخ الحرية لا يكفى وحده لظهور مثل هذه العبقريات التي صنعت تاريخا وخلقت نهضة . بل لابد من وجود مثل هذه العقليات الجسور التي تعطى ولاءها الكامل للحرية الفكرية والحرية الاجتماعية وتوازن بينها في صدق وأمانة فى اطار رؤية مستقبلية واضحة.

هذا هو ما صنعه طه حسين وعلى عبد الرازق وسلامة موسى ، ان عظمة هؤلاء تتجلى في أنهم جميعا ومن زوايا مختلفة قد اتجهوا الى جذور المشكلة وحاولوا اقتلاعها. فنادى طه حسين بفحص التراث الأدبي في ضوء العقل على أساس من الشك حتى نصل الى اليقين. وطالب على عبد الرازق بالفصل بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية ، ودعا سلامة موسى للايمان بالعلم وبالحضارة الغربية وبالاشتراكية

ومن قبل هؤلاء بعشرات السنين ، نادي قاسم أمين بتحرير المرأة من الجهل ومن التبعية واعطائها حق التعليم والعمل . فأين نحن اليوم من هؤلاء ؟ هل انعدمت العبقريات بيننا ؟ لا أظن ذلك طبعا .. فقد برزت كثير من الاسماء في سنوات الثورة الأولى وشهدت الحياة الفكرية والثقافية ازدهارا عظيما فأبدع توفيق الحكيم ، ونجيب محفوظ واحسان عبد القدوس، ويوسف السباعي ، ويوسف ادريس ويوسف جوهر ، وعبد الرحمن الشرقاوى ، والفريد فرج ، وقدموا أعظم أعمالهم. كانت محاولة لتأصيل فنون القصة والمسرحية في أدبنا العربي الحديث .

وواكب هذا الازدهار حركة نقدية نشطة كان على رأسها مندور ولويس عوض ورشاد رشدى تحاول من زوايا مختلفة أن توصل لمدارس النقد الغربي وتواصل ما بدأه جيل طه حسين .

كان مندور يركز على النقد الايديولوجي الذي يهتم بالمضمون الاجتماعي . وكان رشاد رشدى يركز على الشكل دون المضمون متعللا ببعض شذرات من فكر اليوت وكلينيث بروكس .أما لويس عوض فكان يحاول الجمع بين النقيضين على أساس فكرة أن الفن للحياة لا للمجتمع ، والحياة أوسع أفقا ، ومن ثم كان الاهتمام بشكل العمل الفنى ومضمونه في آن واحد .

ازدهر فن و فكر هؤلاء وغيرهم فى ظل سنوات الثورة الأولى حين توافقت أفكارهم وأفكار قادة الثورة . لكن هذه الحالة تغيرت بعد تطور الأحداث وظهور مراكز القوى ونكسة يونية ١٩٦٧ ، والتي هزت العقل العربي حتى أعماقه وألبسته هواجس الشك والخوف والتردد بصورة لم يتخلص منها تماما حتى بعد نصر أكتوبر سنة ١٩٧٣

ان ما نراه من تدهور وردة هي الثمار المرة لسنوات التمزق والنكسة فهل أن لنا بعد الانتصار وفي بداية مرحلة التحول الديمقراطي أن نتخلص من آثار الهزيمة .

وهل آن لنا أن نعيد مسيرة طه حسين وجيله مرة أخرى ؟

لقد وجد هؤلاء النوابغ الافذاذ تحديات فتحدوها وحملوا أمانة الكلمة كما حملها الانبياء في صدق وثبات فمضوا في طريقهم غير هيابين فوصل فكرهم الى القلوب والعقول وغدا كالتيار الجارف الذى لا تقوى على صده كل معاقل الجهل والظلمات .

لقد تميز جيل طه حسين عن الأجيال التي أنت بعده بشدة التزامه بأمانة الكلمة التزاما اخلاقيا تهون دونه الحياة ، وهذا سر قوتهم ، فلم نسمع أن أحدا منهم قد باع نفسه لهذا أو ذاك مثلما فعل ويفعل بعض خلفائهم اليوم من الكتاب .

وهكذا يتضح لنا أن رواد النهضة الفكرية كانوا سببا ونتيجة . فتوافر مناخ الحرية لا يكفى وحده اذا لم يلتزم حملة الأقلام بأمانة الكلمة وسلامة السلوك وبالثقة بالله وبالنفس حتى يمارسوا الحرية حقا ، ويتصدوا لكل الأفكار المتخلفة والمنحلة في آن واحد. ان حرية الانسان لا تنفصل عن حرية التفكير والتعبير بكل صورها . واعلاء سيادة العقل هي أعظم تعبير عن كرامة الانسان وسيادته على جميع المخلوقات وهى فى نفس الوقت اعلاء لقدرة الخالق العظيم الذي منحه هذا العقل ليتدبر به أموره ويسود به الكون . وعلى هذا الأساس قامت كل الحضارت وأبرزها الحضارة الأوربية الحديثة .

ونظرة عابرة الى حياتنا الثقافية الراهنة تؤكد حقيقة واحدة وهي غلبة التيارات السلفية وما يتولد عنها من حركات فكرية متعصبة ومتطرفة لعل ابشعها حركة التكفير والهجرة وما كشفت عنه من ارهاب أسود . والأجدر بنا جميعا ان نعيد دراسة تاريخنا وحضارتنا لنكتشف الأسس الصحيحة التي قامت عليها هذه الحضارة العربية ، فهذا أجدر باهتمامنا الآن :

ولنستمع الى رأى أحد الباحثين الغربيين عن هذه الحضارة .

في كتاب « من الظلمة إلى النور ، يحدثنا دونالد لندساي عن الاسكندرية حين فتحها المسلمون في ٦٤٢ م وكانت تضم خليطا من شعوب واجناس مختلفة من المصريين والفينيقيين والكدانيين واليهود واليونانيين جمع بينهم حب اللغة والأفكار الاغريقية وربط بينهم برباط قوى فأنشأو مركزا عظيما للعلم والعرفان وهو ما يعرف بمدرسة الإسكندرية وعاش هؤلاء حياة هادئة حتى بدأ الفتح العربي . وهنا يقول المؤلف " أهم ما يتميز به هؤلاء الفاتحون المسلمون هو أنهم كانوا يحترمون الحياة الفكرية للشعوب التي غزوا أرضها . فالاسلام عقيدة سمحة وقد أقبل المسلمون على الفكر الاغريقي باستعداد عظيم وبدأ العصر العظيم للحضارة العربية . ، وكما هو معروف بدأت حركة ترجمة الكتب الاغريقية في الطب والفلك والفلسفة والرياضيات والأدب التي وضعت الأساس الذي بني عليه العلماء العرب بعد ذلك ، وعنهم عادت الى أوربا .

لم تقم هذه الحضارة على التشكك والخوف بل قامت على أساس الثقة فى العقيدة والثقة بالنفس أي على أساس الانفتاح الفكرى والنفسى والرغبة في تحقيق القوة والتقدم واللحاق بالأمم التي سبقت في هذا المضمار. وعلينا ان نسير في نفس الطريق فتنفتح على العالم كله نأخذ أفضل ما عنده وندرسه وننتفع به في بناء تقدمنا دون حساسية أو خوف فليس ثمة أفكار مستوردة وأفكار غير مستوردة ، فالتراث الانسانى كله ملكية مشتركة لأنه انتاج مشترك للمصريين والأوربيين والعرب وغيرهم

هناك فكر صحيح وفكر خاطى . وعلينا أن نكف عن تعاطى هذا الفكر الخاطئ سواء كان نابعا منا أو قادما من الغرب أو الشرق لأن هذا الفكر الخاطئ هو المسئول عن تدهورنا . ولكي نتخطى هذه المرحلة لابد لنا من اعتماد العلم والطريقة العلمية لاختبار الأفكار وفرزها .

وفي هذا الصدد يقول برتراند رسل ان اكتشافات العلم العظيمة ليست الا نتيجة لاحلال المشاهدة والاستنتاج محل الثقة ، وكل محاولة لاحياء الثقة في المسائل الفكرية هي خطوة رجعية ، ومن خصائص السلوك العلمي أن المنطوق العلمي لا يدعى أنه مؤكد ، بل أنه أكثر الأشياء احتمالا. بناء على ما يتوفر من أدلة . وأن من أعظم الفوائد التي أكسبها العلم أولئك الذين يفهمون روحه هو أنه يمكنهم من أن يعيشوا دون أن يخدعوا أنفسهم بالثقة المطلقة .

فالثقة المطلقة بالأفكار تقود الى الانغلاق والتعصب والى قيام الحكومات العنصرية والديكتاتورية وكل أشكال النظم الشمولية . وهذه النظم لا تقيم حضارة

ولا تبعث مدنية . ولعل هذا واضح مما عانته شعوب أوربا في ظل محاكم التفتيش وما عاناه الشرق العربي في ظل الخلافة العثمانية .

لقد استطاع الارهاب العثماني المتستر بأقنعة الدين ان يعطل العقل العربي عن التفكير زهاء أربعة قرون كاد يفقده فيها قدرته النهائية على التفكير . ولعل ما نعانيه من تدهور يرجع في معظمه الى هذه الفترة الحالكة السواد في تاريخنا . وانتشار التيارات الرجعية المتطرفة . قد هيأ المناخ لبعض الحاقدين ان يحاولوا تصفية حسابات قديمة - فراجت بيننا تهمة تجريم التفكير وتكفير المفكرين والفنانين مما أثار الخوف والبلبلة . فسكتت بعض الأقلام الجادة ، وهاجرت بعض المواهب الفنية والأدبية، وانخرط الباقون فى انتاج المشهيات والمسليات مجاراة لمطالب السوق حتى وصلنا الى هذه الحالة الغربية والعجبة. انقلب الفن من رسالة تثقيف وتنوير وبناء للانسان الى تجارة وشطارة ووسيلة للثراء . وتنافس الكثيرون في ارضاء زبائن هذه الأيام من الباحثين عن المتعة والتسلية فساد تيار الانحلال والبذاءة في الأفلام والمسرحيات ارضاء للعقول الفارغة والجيوب المنتفخة واقتحم هذا التيار جدران المنازل عن طريق التليفزيون وراح يهدد كل قيمنا الحضارية والاجتماعية والدينية .

انها الثمار المرة لمرحلة الهزيمة والتمزق وسيطرة الشلل الانتهازية ، مما عطل مؤسسة السينما عن دورها القيادي في مجال الانتاج ، وانحرف بهيئة المسرح عن مسئوليتها الحضارية فى تقديم مسرحيات راقية تعلى من كرامة الانسان وتزيد وعيه وتدعوه الى احترام عقله وحريته . وضاع الشباب أو تمزق فى ظل هذه الظروف الغريبة .

من يحكم على أعمال الشباب فى ضوء ما نشر أو عرض منها انما يظلم هؤلاء الشباب فكثير من الأعمال الجادة الواعدة لم تتهيأ لها فرصة النشر أو الذيوع لأن أجهزة النشر ومؤسسة المسرح والاذاعة والتليفزيون لم تهتم بهذه الأعمال لانشغالها بأعمال ذوى النفوذ ومراكز القوى واتباعهم .

واذا شئنا ايقاف التدهور ، فلابد من ازالة هذه العوائق في مجال الثقافة واتاحة الفرصة لأعمال الشباب عن طريق النشر فى شكل كتب أو عرضها عن طريق المسرح والتليفزيون ، ولابد من وضع خطة لاعطاء الشباب الفرص المتاحة حتى يكون لنا مستقبل في مجال الفكر والثقافة .

14- اللامعقول فى التعديلات الدستورية

المادة الثانية من الدستور هى مصدر التناقضات الواضحة فى معظم التشريعات المصرية، ويؤسفنى أن أقول إنها أشبه بحائط الفصل العنصرى بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى، بل وبين المسلمين بعضهم بعضا.

والأدهى من ذلك، أن الذين يدافعون عن هذه المادة من أعضاء لجنة الصياغة فى مجلس الشعب، يعرفون ذلك جيدا، ويعرفون أيضا أن هذه المادة تتناقض مع الإعلان العالمى لحقوق الانسان ومع المواثيق الدولية التى وقعت عليها مصر، ولا يجرؤون على الجهر بذلك، ثم يلجأون الى تصريحات غريبة من أجل التضليل والتبرير. لأن معظم هؤلاء لاتنقصهم المعرفة بحكم أنهم درسوا القانون والنظم السياسية بل وتعلموا فى فرنسا التى تعلم فيها الطهطاوى وطه حسين وغيرهما ممن استناروا وأناروا الفكر فى حياة مصر فترات طويلة.

ولكن الفرق بين هؤلاء وبين الرواد أن رفاعة الطهطاوى كانت له رسالة استمات فى سبيل تحقيقها حتى نفى الى السودان. وكذلك أخذ طه حسين موقف التحدى الصارخ ضد التخلف والمتخلفين ولم يبال بما تعرض له من أهوال لأنه كان يؤمن بالوطن وبأن له رسالة لابد أن يدافع عنها. فمابالك بالشيخ على عبد الرازق الذى تحدى الملك فؤاد الذى كان يسعى للخلافة، وقال إنها ليست من الدين فى شىء. لكن هذه الفئة من ترزية القوانين الذين يعيشون بيتتا الآن لا هم لهم سوى ارضاء الحاكم والدهماء حتى يستمروا فى مواقعهم، دون تفكير فى عواقب هذا النهج وما سيجلبه على هذا الوطن من خراب ودمار. فالدستور هو صمام الآمان لوحدة هذا الشعب وتماسكه فى وجه العواصف. ولابد للدستور أن يعبر بحق عن طموحات أمة عريقة سبقت جميع الأمم فى ارساء الأسس الأخلاقية وفى بناء الحضارة.

*+ جريدة وطنى2007/8/3 / نشر في نفس اليوم بالأهالى بعنوان " المادة الثانية فصل عنصرى"

وفى ضوء هذا الواقع المحزن، فقد كنا نتوقع أن تأتى المبادرة والحسم من جانب الرئيس حسنى مبارك، فيخطو بنا خطوة تاريخية تحسب له. فيطلب إلغاء المادة الثانية من الدستور أوعلى الأقل إعادتها الى صياغتها الأولى قبل 1971, التى كانت تنص على أن "مبادىء الشريعة الاسلامية مصدر من مصادر التشريع".

أما الابقاء على المادة الثانية بوضعها الحالى الذى ينص على أن "الاسلام دين الدولة وأن مبادىء الشريعة الاسلامية هى المصدرالرئيسى للتشريع" ففى ظل تغول الأصوليين والمتعصبين وشراستهم يمكن اتخاذها مبررا لقلب التشريعات وتحقيق مآربهم فى إقامة الدولة الدينية.

لأن عبارة " المصدر الرئيسى للتشريع" تجعل الشريعة الإسلامية هى المعيار الوحيد لقبول أو رفض أى مصدر من مصادرالتشريع الأخرى حسب مايرى القائمون على التشريع بحكم انتماءاتهم الدينية والسياسية. بما يعنى وضع مصير الشعب كله تحت رحمة فئة من الفقهاء ورجال الفتوى المتعصبين، وهو مايعرض مصير الوطن للأهواء. ونتيجة لما رأيناه من تجربة العقود الثلاثة الماضية من تجريح للمسيحية والمسيحيين ومن عدوان على أرواحهم وأملاكهم واقصائهم عن المناصب القيادية بتشجيع من أجهزة الدولة. فإن الاصرار على إبقاء هذه المادة بصورتها الحالية لايبشر بأى اصلاح حقيقى.

وإذا كان بعض المدافعين عن هذه المادة الذين تأخذهم نشوة العنصرية الدينية يتصورون أن هذه المادة سوف تضمن لهم التفوق والاستعلاء على الأقباط مثلا واعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية، فإنى أقول لهم إنهم خاسرون. لأن السادات أراد بهذه المادة أن يقسم المسلمين الى طائفتين: مؤمنين وكفرة، وأن يحارب خصومه السياسيين من الشيوعيين والناصرين باسم الدين، وقال قولته الشهيرة "أنا رئيس مسلم لدولة مسلمة" وفى ظرف أسابيع قليلة لقى السادات مصرعه على أيدى بعض المؤمنين من أمثاله. والعبرة لمن يعتبر.

وحسبى ان أشير هنا الى المقال البليغ الذى كتبه الشاعر الكبير الأستاذ أحمد عبد المعطى حجازى فى حديثه حول المادة الثانية حيث ختمه بالفقرة التالية: "هناك من يظن أن المواطنة تهم المسيحيين وحدهم، لأنها تحميهم من الاضطهاد، والحقيقة أن المواطنة تهم المصريين جميعا المسلمين قبل المسيحيين، لأنها إن كانت تحمى المسيحيين من الاضطهاد فهى تحمى المسلمين من الانقراض".
(الأهرام –24 يناير 2007) .

وقد أثبت قادة الحزب الوطنى ومفكروه تعصبهم ونزعتهم الطائفية البغيضة فتقريرهم حول التعديلات الدستورية وتجاهلهم لما دعا إليه الرئيس من تمكين المرأة والأقباط من حقوقهم فى مختلف مناحى الحياة، فإذا بهم يجمعون على ضرورة تمكين المرأة ويرفضون ذلك بالنسبة للأقباط بناء على حجج سخيفة وصفها المناضل الشجاع والشريف الدكتور رفعت السعيد فى حواره معهم بحجج(سائلة) حيث قال البعض منهم" إن تمكين الأقباط لايأتى إلا عبر حراك ثقافى وتغيير فى المناخ وتمادى البعض الآخر فى القول بأن هذه المطالبة تكرس الثقافة الطائفية"

(الأهرام - هوامش على بدايات الحوار -12 يناير 2007)

ولا نملك إزاء هذه الأقوال الغريبة إلا أن نقول "إذا لم تستح أفعل ماشئت" وانا أسألهم من الذى يكرس الطائفية الآن؛ الأغلبية أم الأقلية؟ من الذى أفسد

الثقافة والتعليم وخلق مناخ التعصب الدينى؟ اليس هو تليفزيون الحزب الوطنى وإذاعاته وجرائده، منذ أن وضع السادات الأسلحة والخناجر فى أيدى الجماعات الدينية وحرضهم على ضرب خصومه السياسيين من اليساريين والناصريين والأقباط. فمن المسئول عن الحراك الثقافى؟ أليس هذا هو واجبكم أنتم بالدرجة الأولى وأنتم تتصدرون الحكم والتشريع؟ هل يملك الأقباط قناة تلفزيونية حتى تطالبونهم باحداث هذا الحراك الثقافى؟ وكيف يمكن تغييرهذا المناخ الثقافى الردىء ونشر روح التسامح وقبول الأخر دون أن يستند ذلك الى أساس فى الدستور؟

من هنا تبدو خطورة المادة الثانية التى لا تقل عن خطورة حائط الفصل العنصرى الذى أقامته اسرائيل فى فلسطين. لأن حائط اسرائيل هو حاجز مادى يمكن إزالته فى أى وقت دون أن يترك وراءه أثرا، أما المادة الثانية فتأثيرها نفسى واجتماعى يمتد الى أجيال وقد يؤدى الى مآسى تصيب حياة الوطن فى الصميم. وهذه الخطورة ليست فقط فى المسيحيين مواطنين من الدرجة الثانية بل فى تسليطها بعض المسلمين على بعض، وإيقاع الفتنة والتنازع بين أبناء الوطن الواحد كما حدث أيام السادات. لأن هذه المادة أدت وسوف تؤدى الى التناقض فى التشريعات وفى أحكام المحاكم والهيئات القضائية كما حدث فى الفترة الأخيرة وإليكم الأمثلة:

المثل الأول فى الحكم بتطليق الدكتور نصر حامد أبو زيد من زوجته الأستاذة الجامعية على الرغم من أن أحدا من الزوجين لم يطلب ذلك ولم يذهب للمحكمة. ولم يكن أمام القاضى أى نص قانونى يجيز له اصدار الحكم بالتفريق بينهما سوى الادعاء بأن نصر أبو زيد خرج عن حدود المعلوم من الدين فى أبحاثه العلمية، فحكم القاضى استنادا إلى تفسيره الخاص لهذه المادة التى تقول إن الشريعة الاسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع. لقد تحول القاضى الى مشرع وقاضى فى الوقت نفسه وحكم. ولم يجرؤ أحد على مراجعة الحكم، لأنه استند الى الدستور الذى يعلوعلى كل القوانين.

وبناء عليه فإنه فى حالة بقاء هذه المادة كما هى يمكن لأى متعصب أن يطالب بتطليق أى كاتب من زوجته بحجة أن أراءه المنشورة تخالف الشريعة الاسلامية، وبين ليلة وضحاها يجد المسكين نفسه محروما من زوجته وأولاده إلا إذا امكنه الهجرة الى بلاد الفرنجة كما فعل الدكتور نصر حامد أبو زيد.

أما المثل الثانى الذى يثبت التناقض فى بنية الدستور والقوانين فقد أشار إليه الأستاذ فهمى هويدى فى الأهرام (23 يناير 2007) بخصوص التقرير الذى قد مته هيئة مفوضى الدولة عام 1991،

وقصة التقرير كما يرويها فهمى هويدى، أن أحد الدعاة (السيد يوسف البدرى) تقدم لتأسيس حزب باسم الصحوة، ولكن لجنة الأحزاب رفضت طلبه. فطعن فى القرار أمام مجلس الدولة عام 1998.

وحين عرض الموضوع على هيئة المفوضين التى كان يرأسها وقتذاك نائب رئيس المجلس المستشار طارق البشرى فإنها خلصت من بحثه الى أن

"الدستور حين يقر فى صدر أحكامه باسلامية الدولة ويقر بالشريعة الاسلامية كأصل للشرعية – كما ذكر فى تقرير المفوضين – فلا يصح فى الأفهام القول بأن الدستور ينظم وضعا طائفيا لأن الدستور هو أول تعبير تشريعى عن الأصول المرجعية للمجتمع. وإذا كانت الاسلامية لاتعبر فى الدستور عن وضع طائفى فإن ماورد فى قانون الأحزاب من حظر قيام الحزب على أساس طائفى (أوغيره) لا يشكل حظرا متعلقا بالدعوة الاسلامية للمجتمع أو الدولة المنصوص عليه والمقرر بالدستور ذلك أنه لايصح بأى معيار أن يمنع قانون الأحزاب ما أوصت به وأرشدت أحكام الدستور " ثم يضيف:

"إن قانون الأحزاب الذى حظر قيامها على أسس طائفية أو طبقية نص أيضا (فى مادته الرابعة) على ألا تعارض مبادىء الحزب وأهدافه مبادىء الشريعة الاسلامية التى هى المصدر الرئيسى للتشريع. ولا يصح فى العقول أن يحظر القانون الأمر ونقيضه. فيحظر التعارض مع الشريعة الاسلامية ويحظر الدعوة الى نظم يستخلص منها أو يحظر الدعوة الى تطبيقها."

ومعنى هذا أن هذه المادة لاتحظر قيام حزب اسلامى وإنما تمنع قيام حزب مسيحى. ومن هنا لابد من إضافة عبارة الى هذه المادة تقول "حظر قيام أحزاب طائفية اسلامية أو مسيحية على أساس الدين"

وبصرف النظر عما يحتويه هذا التقرير من تناقض حين يقول إن وجود المادة الثانية فى الدستور لا تنظم وضعا طائفيا، فهو قول خاطىء تماما لايقبله أى قارىء للفكر السياسى أو القانونى إلا إذا قرر أن يتجاهل أن خمس الشعب المصرى من المسيحيين؟ لكنه تفسير المستشار طارق البشرى الذى بدأ حياته مفكرا الليبراليا ثم تحول بعد السبعينيات الى أصولى مدافع عن مطالب الأصوليين.

ومع ذلك فإن تقريره على جانب كبير من الأهمية لأنه يثبت وجود التناقض بين مواد الدستور ذاته: بين النص على" أن الشريعة الاسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع " وبين المواد التى تحظر قيام أحزاب دينية. فإذا كان هذا التقرير لم يتحول الى حكم نافذ المفعول لأن االحزب الوطنى وحكومته كان فى وضع يضمن لهما إبطال مفعول مثل هذا التقريرفإن التغير الذى حدث نتيجة دخول الآخوان الى مجلس الشعب بهذا العدد الكبير واختراقهم لمعظم أجهزة السلطة، سوف يمكنهم من تحقيق أهدافهم وإقامة حزب اسلامى طالما بقيت المادة الثانية فى الدستور بوضعها الحالى. والبوادر واضحة على امكانية تحقيق ذلك.

ولنأخذ واقعة الحجاب مثلا، حيث سجل مائتان وخمسون عضوا من أعضاء المجلس الموقرحضورهم في التهجم على وزير الثقافة وذبحه من أجل رأى نسب إليه فى إحدى الصحف. ورغم أن فاروق حسنى من أقدر وزراء هذه الحكومة على الابتكار والإنجاز فى اختصاصات وزارته فلم يشفع له ذلك. فقد خصص رئيس المجلس جلسة كاملة لمحاكمة الوزير على رأى شخصى نطق به حول حجاب المرأة. وبصرف النظر عما نال المجلس من نقد وسخرية، بل وأيضا ماقاله مرشد الأخوان نفسه الذى وصف الجلسة بأنها حفلة تهريج إلا ان الجانب المحزن فيها أنها أكدت بمالا يدعو مجالا الى الشك بأن الأخوان المسلمين يسيطرون

ويتحكمون فكريا في الغالبية العظمى من أعضاء المجلس بمافيهم أعضاء الحزب الوطنى. الذى أثبت أنه هيكل فارغ لاتحكمه نظرية فكرية ولاإطار حزبى ينظم حركة أعضائه سواء فى داخل المجلس أو فى المجالات الأخرى.

إن المهمة الأساسية لمجلس الشعب هي التشريع والرقابة أى وضع االقوانين والرقابة على أعمال السلطة التنفيذية التى تقوم بتطبيق هذه القوانين، وليس من سلطته محاسبة الناس على أرائهم. فالمفروض أن يكون المجلس هو الداعم والحامى لحرية الرأى. لكن الذى حدث فى تلك الجلسة الغريبة كان على العكس تماما. وكان مناقضا لكل التقاليد البرلمانية فى الدول الديموقراطية المحترمة. لكنه كان يستند أيضا الى المادة الثانية التى تقول أن الاسلام دين الدولة وأن الشريعة الاسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع.

وهكذا، فما الذى يمنع – حياكم الله – أن يتكرر هذا الموقف وتجمع الآغلبية على تطبيق العقوبات الدينية الاسلامية برجم الزانى وقطع يد السارق وحرمان المرأة من حق التعليم والعمل، وقتل المرتد وفرض الجزية على الأقباط. وهذا كل مايريده دعاة الشريعة الأشاوس من هذه المادة. ولو كان لهم نوايا خيرة أو مطالب نافعة لقبلوا في تواضع المؤمنين ووداعتهم بالانضمام الى غالبية أفراد الشعب المصرى وأكدوا على وحدته الوطنية وعلى حق الجميع فى المساواة الكاملة على أساس المواطنة.

إن بقاء المادة الثانية بوضعها الحالي الذى قرره السادات فإنما يعنى شيئا واحدا هو تكريس الطائفية الدينية والمذهبية أيضا. ففى مصر ذات الغالبية السنية، يمكن وضع التشريعات التى تميز بين المسلم السنى والمسلم الشيعى فيعامل معاملة المسيحى باعتباره مواطنا من الدرجة الثانية اما البهائى وأصحاب المذاهب الأخرى فهم مرتدون أو كفرة ويطبق عليهم حد الردة. ولعل مايحدث كل يوم فى العراق وفى فلسطين وفى السودان والصومال بدرجات متفاوته نتيجة هذه التفرقة يكشف لنا أن النار ليست بعيدة عنا.

فإذا كان حرص الرئيس حسنى مبارك على الاستقرار هو الذى يدعوه الى التدرج فى عملية الاصلاح وبالتالى يمنعه من طلب إلغاء هذه المادة، فلا بأس أن يطلب إعادتها الى صيغتها الأصلية قبل 1971، التى تنص على "ان الاسلام دين الدولة وأن الشريعة الاسلامية هى إحدى مصادر التشريع" وبهذا تنفتح الطريق أمام التطور الديموقراطى الصحيح الذى يضمن حرية البحث العلمى وحرية التعبير ويحفز المواطنين جميعا على الاسهام والمشاركة باخلاص فى خدمة هذا االشعب وحماية وحدته الوطنية.

وفى هذا السياق يحضرنى قول الدكتور فتحى سرورفى نقابة الصحفيين السودانية " إن مصر دولة قانون، والكلمة فيها للدستور، وليست للمسجد أوالكنيسة " ولكن القول الأجمل له هو أن" الاسلام فوق الدستور" وهذا حق. فالاسلام كدين وعقيدة ينبغى أن يكون فوق الدستور وفوق جميع القوانين البشرية التى تتطلب الحوار والاختلاف، وأن يكون مكانه الحقيقى فى قلوب المؤمنين به وفى ضمائرهم التى ترفض الكذب والغش والظلم والفساد وتسوى بين الناس جميعا

دون تفرقة على أساس الجنس أو الدين أو العرق. هنا يعلوا الاسلام ويزدهر الإيمان الحقيقى بعيدا عن النفاق والرياء وتأليه الحاكم. ومن أجل هذا فإننا ندعو الى دستور دولة مدنية يضمن المساواة للجميع فى مجتمع ينزه الدين عن مجالات التفاخر أو الاستعلاء والمتاجرة.

إن إدخال الدين فى السياسة هو ظلم للدين وظلم للسياسة. وقد عانت الأمة العربية ألأمرين من هذا الخلط ومازالت تعانى والشواهد ماثلة فى مئات القتلى الذين يفقدون أرواحهم كل يوم فلماذا لا نتعلم من تجارب الدول التى سبقتنا فى التقدم والعمران، ولماذا نصر على تكرار تجاربنا الفاشلة؟

لقد عاشت أوربا هذه التجارب الحزينة في العصورالوسطى، لكن الأوربيون استطاعوا فى لحظة حاسمة أن يخوضوا تجربة الاصلاح الدينى بنجاح وأن يجتازوا عصور التخلف عن طريق قطع الصلة بين السياسة والدين نهائيا، فانطلقوا فى طريق التقدم: تحرر البحث العلمى من سلطة الكنيسة، وتحررت العقول فى كل مجالات الحياة وهكذا. وصارالأساس" اعطوا ماالله لله وما لقيصرلقيصر". أي الفصل بين المؤسسات المدنية وبين المؤسسة الدينية فصلا كاملا.

وإذا كان هذا الفصل يفسر سر تقدم الغرب، فإنه كاف بنفس الدرجة لتفسير سر تخلف العرب وتقهقر الحضارة العربية الاسلامية بعد أن بلغت ذروة من ذرى التقدم العلمى والانفتاح الفكرى والانسانى في زمن الدولة العباسية.

15- فهمى هويدى
ومجتمع المادة الثانية

اعتدت أن أقرأ مقالات الأستاذ فهمى هويدى باهتمام شديد لأنها كثيرا ما تتسم بالجدية والميل الى الموضوعية وكذلك بالشجاعة فى النقد والاعتراض. ولا أنسى موقفه المشرف فى الاحتجاج على مذبحة الكشح التي راح ضحيتها اثنان وعشرون قبطيا حين كتب مقاله الفريد الذى يعتذرفيه نيابة عن الأغلبية المسلمة التي حملها تبعة هذه الجريمة البشعة. وهوموقف شريف وشجاع لم يشاركه فيه أحد من المسئولين عن تحريرالأهرام الذين رفضوا نشر المقال مما اضطره لنشره فى جريدة الأهالى.

وقد انتقد فيه بشدة موقف كثير من الجهات المسئولة عن تدهورالعلاقة بين المسلمين والمسيحيين، كما انتقد فيه أجهزة الأمن والإعلام الحكومية وغيرها بسبب أسلوب التعبئة العدائية ضد الأقباط والتحريض عليهم. مما أدى الى كثير من الحوادث المؤسفة. والأدهى أن القضاء لم يأخذ بحق الضحايا العادل ممن قتلوا فى هذه المذبحة. هذا الموقف الأخلاقى الشجاع النابع من وعى عقلانى وحس وطنى إنما يجسد المعنى الذى قصده فهمى هويدى فى كتابه " مواطنون لا ذميون " وجعلنا نضعه فى مكانة متميزة عن غالبية المتحدثين عن الاسلام السياسى والمتاجرين به.

وكان الأجدربه أن يضع هذه المذبحة وما جرى من انتهاكات لحقوق الأقباط فى الثلاثين عاما الماضية نصب عينيه، وهو يناقش الذين يعارضون بقاء المادة الثانية فى الدستور. لكن مقاله " لما هزم شعار الشريعة هو المشكلة " (الأهرام 13 مارس 2007) فإنه خرج على كل المواصفات التى عهدناها فى خطابه، إذ انبرى يهجو المعارضين بروح قبلية عنيفة وصلت الى حد السب والتجريح فتارة يصفهم بالانتهازية وتارة بالسفاهة"حيث يقول " ربنا لاتؤاخذنا بما كتب السفهاء منا "

هذه ليست هفوة من كاتب كبير نحترم قلمه وانما هى جنوح عن أسلوب الحوار الموضوعى وخروج على أداب الاسلام الذى يقول "وجادلهم بالتى هى أحسن" فالمائة والسبعون الذين وقعوا على بيان المثقفين ليس هم كل المعارضين لهذه المادة، بل إن معظم المقالات التى نشرت والأحاديث التى أذيعت كانت كلها ضد

هذه المادة ليس لأنهم ضد الاسلام كما يزعم فهمى هويدى بل لأن هذه المادة تؤسس أوضاعا طائفية وتميزبين المواطنين على أساس الدين.
وأنا واحد من الذين وقعوا على البيان ونشرت مقالين فى وطنى (3/4) وفى الأهالى
(3/7 تحدثت فيهما عن خطورة "هذه المادة التى تشبه حائط الفصل العنصرى بين

***جريدة الأهالى 10 أغسطس2007**

المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى بل وبين المسلمين أنفسهم، لأن حا ئط الفصل العنصرى الذى أقامته اسرائيل هو حاجز مادى يمكن ازالته فى أى وقت دون أن يترك

المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى بل وبين المسلمين أنفسهم، لأن حا ئط الفصل العنصرى الذى أقامته اسرائيل هو حاجز مادى يمكن ازالته فى أى وقت دون أن يترك أثرا، أما المادة الثانية فتأثيرها نفسى واجتماعي يمتد الى أجيال وأجيال، وقد يؤدى الى مآسى تصيب حياة الوطن فى الصميم. وهذه الخطورة ليست فقط فى اعتبارها العشرة ملايين مسيحى فى مصر مواطنين من الدرجة الثانية، بل فى تكريس الطائفية الدينية والمذهبية. ففى مصر ذات الغالبية السنية، يمكن وضع التشريعات التى تميز بين السنى والشيعى فتعامل الشيعى كمواطن من الدرجة الثانية شأنه شأن القبطى أو المسيحى. أما البهائى وأصحاب المذاهب الأخرى فهم مرتدون أو كفرة ويطبق عليهم حد الردة. ولعل مايحدث في العراق وفى فلسطين وفى السودان والصومال بدرجات متفاوتة يعطى عبرةعلى النتائج المحزنة لربط السياسة بالدين.
وقد أدى وجود هذه المادة الى تناقضات فى التشريعات وفى أحكام المحاكم والهيئات القضائية كما حدث فى تطليق الدكتور نصر حامد أبو زيد من زوجته الأستاذة الجامعية الدكتورة ابتهال يونس على الرغم من أحدا من الزوجين لم يطلب ذلك ولم يذهب الى المحكمة ولم يكن أمام القاضى أى نص يجيز التفريق بينهما سوى الادعاء بأن نصر حامد أبوزيد خرج عن حدود المعلوم من الدين فى أبحاثه الجامعية، فحكم القاضى استنادا لتفسيره الشخصى لهذه المادة التى تقول أن الشريعة الاسلامية هى المصدرالرئيسى للتشريع. لقد تحول القاضى إلى مشرع ولم يعترض أحد.

***جريدة الأهالى 10 أغسطس2007**

وكان المثل الثانى الذى تحدث عنه الاستذ فهمى هويدى (الاهرام 23 يناير 2007) حول تقريرهيئة المفوضين الذى كتبه المستشار طارق البشرى والذى أجازفيه إقامة حزب دينى اسلامى باسم الصحوة استنادا الى هذه المادة. وهنا يكمن السر وراء حماس فهمى هويدى لهذه المادة التي يعقدون عليها الأمل فى قيام حزب اسلامى للأخوان المسلمين تمهيدا لقيام دولة الخلافة على أرض مصر. لكن الحماس لهذه المادة لايوجب أبدا سب الخصوم وارهابهم والتحريض عليهم.

فالمادة الثانية ليست الاسلام والاسلام مكانه فى قلوب المؤمنين به وهوموجود منذ اكثر من أربعة عشر قرنا ولايحتاج لهذه المادة لاثبات حضوره. كما أن بيان المثقفين الذى تم التركيز عليه لم يتنكر للآسلام بل دعا الى تعديل المادة بحيث تقرأ كالآتى "ان الاسلام دين غالبية المصريين، وأن مبادىء الشريعة الإسلامية والمسيحية والمواثيق الدولية لحقوق الانسان هي المصادر الرئسية للتشريع" وأن الأخذ بهذ الاقتراح يستبعد التمييز الدينى تماما ويؤكد دور المسيحية في الحضارة المصرية كما أن الاشارة الى المواثيق الدولية لحقوق الإنسان تضمن عدم وجود انتهاك للحقوق والحريات العامة وعلى رأسها الحق فى المساواة أمام القانون.

فالبيان يدعو الى بناء مجتمع مدنى وإقامة ديمقراطية حقيقية تضمن حرية التفكير والابداع وحرية التعبير وتحمى حرية العقيدة وممارسة الشعائر الدينية بعيدا عن ضغط وإكراه جماعة" الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر " وفيها يكون الدين لله والوطن للجميع. أما الدولة الدينية التى يسعى إليها الاسلاميون فهى دولة شمولية سلطوية معادية للحرية الفردية وحرية التفكيروالابداع. وهى دولة عقيمة ومدمرة لروح الانسان وحقوقه وقد جربها النميرى فى السودان وجربتها طالبان ومازال الخوف منها يشعل المعارك والفتن فى بلادعربية واسلامية عديدة.

ومن ثم كانت الديموقراطية هي أفضل النظم لمواجهة الفساد والتغلب عليه. وأذكر أن الاستاذ فهمى هويدى حاول مرة أن يتصدى للفساد المستشرى فى الصحافة المصرية ونشر مقالا بالاهرام قال فيه إن هناك أربعة عشر من كبار الصحفيين والقيادات فى الصحف القومية تتلقى رشاوى من جهات داخلية وخارجية، وأنهم يسخرون الصحف لخدمة أغراض هذه الجهات المشبوهة التى تدفع. ووصل الأمر بأحد هذه القيادات الى حد تغيير عناوين الصفحة الأولى بناء على تعليمات أحد الذين يدفعون الرشاوى وطالب فهمى هويدى بالتحقيق وهدد بنشر هذه الأسماء. لكنه تعرض للهجوم واضطر الى التراجع دون سبب معلوم.

والسؤال هو: هل لوكان الأستاذ فهمى هويدى يعمل فى مجتمع ديموقراطى حقيقى يحكمه القانون، أكان يمكن أن يفرض عليه السكوت والتراجع على هذا النحو المهين؟ ولماذا رضى بالسكوت والاسلام يقول "الساكت عن الحق شيطان أخرس؟" لقد حدث هذا فى ظل وجود هذه المادة ومرجعيتها التى يقول الأستاذ هويدى "أنها حفظت لغير المسلمن قدارهم بل وأمنت وجودهم على مدى التاريخ" ونسى الذين أبادوا المسيحيين من شبه الجزيرة العربية وشمال أفريقيا. وإذا كان

إيمانه بهذه المرجعية حقبقى كمايزعم، فلماذا لم يتمسك بها ويتقوى بروح الاسلام ويستميت فى كشف الفاسدين وجرائمهم الخطيرة فى حق الوطن وأبنائه.

الا يتذكر الاستاذ هويدى ذلك الصحفى الشاب فى جريدة الواشنطن بوست الذى استطاع بصدقه وشجاعته أن يزلزل إدارة نيكسون ويسقطه من عرش السلطة فى أكبر دولة في العالم.؟

إن المقارنة بين الموقفين؛ موقف كاتب كبيرفى قامة فهمى هويدى، وموقف صحفى شاب تحت التمرين فى الواشنطن بوست، إنما توضح بجلاء الفارق الكبير بين المجتمع الديموقراطى؛ ومجتمع المادة الثانية، بين المجتمع الذى يحمى الفرد وينتصر للحق وبين المجتمع الذى يسحقه لصالح فئة الانتهازيين ولصوص المال العام. وتفسير هذه المفارقة يكمن فى الدموقراطية. لكن الديموقراطية الحقيقية لاتقوم إلا على العلمانية أى الفصل بين الدين والدولة. والعلمانية ليست كفرا كما يروج فهمى هويدى وأصحابه. وإنما هي تحريرللدين وللضمير الفردى من سلطة الأجهزة القمعية.

وفى سبيل توضيح هذه العلاقة نقتطف فقرة من خطاب الرئيس الأمريكى (جون تيلر) بتلريخ 10 يونية 1843 م، الذى عبرفيه تعبيرا بليغا عن مبدأ الحرية الدينية فقال:

"أقدمت الولايات المتحدة على تجربة عظيمة ونبيلة يعتقد البعض أنها مخاطرة غير مسبوقة في التاريخ، هي تجربة الفصل التاريخي بين الكنيسة والدولة، فلا تقوم بيننا مؤسسة دينية بحكم القانون، لقد تحرر الضمير من كل القيود والكوابح، وأصبح مباحا لكل إنسان أن يعبد خالقه وفقا لما تمليه عليه حكمته الخاصة، فلا تفرض ضريبة لإقامة نظام سلطوي، ولا يبنى على حكم الإنسان غير المعصوم قانون صحيح للإيمان، فأتباع محمد لو قدر لأحد منهم أن يأتي إلينا فسوف يتمتع بكل ما يكفله له الدستور من حق ممارسة العبادة وفقًا لتعاليم القرآن، أما الهندي الشرقي فيمكنه أن يبني معبدًا لبراهما إذا ارتضى ذلك.

هذه هي روح التسامح التي تقوم بغرسها مؤسساتنا السياسية، فالعبري المضطهد والمهان في مناطق أخرى من العالم له أن يحتل مسكنه بيننا دون خوف من أحد، تحت رعاية الحكومة التي سوف تقوم بالدفاع عنه وحمايته. وهذه هي التجربة العظيمة التي شرعنا فيها وها هي تأتي ثمارها الحلوة، وبدونها سوف يكون نظامنا ناقصا".

"إن جسم الإنسان قد يتعرض للقهر والتهديد، ومع ذلك فقد ينجو، أما عقل الإنسان إذا كبلته القيود فإن طاقاته تتحلل وملكاته تتلاشى، ولا يتبقى منه إلا ما هو أرضي، فلا بد أن يظل العقل طليقا كالنور والهواء"

ومن هذا يتبين أن أمريكا كانت هي البادئة بفصل الكنيسة عن الدولة فصلا تاما، بتقرير الحرية الدينية لجميع من تظلهم هذه الدولة من البشر. وبعد قليل أخذ

هذا المبدأ طريقه إلى كثير من دول أوروبا. وكان تقرير هذا الأمر هو بداية الانطلاق والتقدم في مجالات العلوم والفنون والسياسة والاقتصاد، ومبدأ الحرية الدينية يفسر سر تقدم الغرب، كما يفسرسر تخلف العرب وتقهقر الحضارة العربية الاسلامية بعد أن بلغت ذروة من ذرى التقدم العلمى والانفتاح الفكرى والانسانى.

16 - شاعر يبكي الغربه والنفي

هـذه اطلالــه سـريعه علـى عـالم عـذاب الركـابي؛ مـن خـلال ديـوانين: الاول تسـاؤلات عـن خارطـة لا تسـقط فيهاالأمطـار" . والثـاني مـن طموحـات عنتـره العبسـي" وفـي الـديوانين مـن القصـائد مـا يكفـي لاعطـاء فكـره ولـو عامـة عـن همـوم هـذا الشـاعر واهتماماتـة الخاصـه والعامـه كمـا تتكشـف مـن خلال رؤيته الشعريه للحياه والاحياء.

واول مـا يطالعنـا فـي هـذه الاشـعار انهـا تفـيض بتلقائيـه وثابـة وعاطفـه مشـبوبه بسـهوله فـي تـداعي الافكـار والصـور بحيـث لا تكـاد تبـدا فـي قـراءه السـطور الاولـى للقصـيده حتـى تجـد نفسـك مشـدودا لمتابعتهـا حتـى النهايـه ولعـل فـي هـذا النسـيج المتماسـك الشـفاف ايـه مـن روح الشـعر ودليـل علـى شاعرية هذا الشاعر العراقي الشاب.

لكن هذه التلقائية لم تلق به الى الغموض والابهام مثل كثير ممن يكتبون الشعر الحديث الان كذلك لم تدفع به الى المباشره والسطحيه التي تخرج بالشعر والفن عموما عن مجاله. لقد خلا شعره من تلك العيوب الخطيره ربما لانه شاعر يملك موهبه قول الشعر كما يملك الاحساس الواعي بواقع الحياه وبواقعها المليء بمسببات الياس والاحباط في عالمنا العربي بالاضافه الى ثقافته والمامه بتراث الشعر العربي قديما وحديثا الذي يقوم بتدريسه لطلاب المرحله الثانويه ببنغازي.

وتبدو مشاعر النفي والغربه سمه عامه من سمات الشعر العراقي الحديث كما هي عند السياب والبياتي وهذة السمة تكتسب لونا جديدا في شعر عذاب يضفى عليها نوعا من الخصوصيه التي تميزه في داخل هذا التيار العام الذي مازال يترك أثره واضحا في شعره وما حققه عذاب حتى الان في اشعاره يعطي الثقه في قدرته على الخروج من جو الرومانسيه الغالبه كي يتحقق له عمق الرؤية وشموله والتميز الحقيقي الذي يجعله يعرف بشعره. انه يعاني الغربه والنفي ويحس بهما احساسا قويا ولا يجد وسيله للرفض والاحتجاج سوى البكاء يبكي في شعر جميل

يجعلنا نبكي معه ومن امثله ذلك قصيده الحب أبكى البعد إذ يقول:

الليلة مجنونا أبكي

أبكي من وجعي

من هذا البعد؛ السيف؛ الممتد بخاصرتي

من شوقي المنزوع كالنيران باوردتي

من عمق الوحشيه ابكي

من طول الليل؛ واصوات العجلات

من تعب المتغربين

من وجهي الشاحب ابكي

من كل الآتين.

وتدعى الصور بهذا الايقاع السريع مع تكرار كلمه "من " فيها مطلع كل سطر يجسد جو الحيره والحزن الذي يحيط بالشاعر من كل ناحيه ويعطي الانطباع المتوقع لعالم معتم موحش وفي سبيل مزيد من المعرفه عن عالمه وهمومه لابد ان نمضي معه في رحله الشعر والمعاناه ولنبدأ بالتعرف عليه يقول في قصيده " الشهادات الخمسة:

لي بيت في اخر افريقيا

لكنني نشأت على تربة آسيا

وتعلمت هناك فنون الكلمة

وعن ابي توارثت الخوف من الكراهية والحرب

وعن امي اخذت الصدق

واضحاك الرب.

وحين نقرا هذا الكلام نعرف فورا أن عذاب الركابي واحد من هذه الطيور المهاجره التي تركت أوطانها واستقر بها المقام في وطن اخر لسبب أو لآخر ولا نعرف عن هذا شيئا سوى كلمات قليله في قصيده "انتظر انها لحظة قتال" التي

يتحدث فيها الى صديقه الشاعر الفلسطيني علي الخليلي حيث يقول:

انا مثلك

في قائمه المغضوب عليهم

ما دمت ارى ان الحق هو الدرب المشروع

في غابات الله.

وربما كان ذلك سببا لحزن الشاعر والمه وخوفه الذي وصل به الى الحد الذي بات يخاف معه الوردة " انا اخشي في هذا الزمان المر الوردة ... وظل حبيبي

فهو يعيش في حاله غربه سواء كانت مفروضة عليه او جاءت اختيارا فان هذا ماثل في شعره بدرجه قوية وملموسة ولعل عتابه الرقيق لوطنه يكشف عن حالة العجز والاحباط التي يعانيها الشاعر حين يقول:

"فلماذا لا تمنحني فرصه عشقي

واخرى اخلو فيها بنفسي

اعاكس عالم

وابدع عالم

اقتلع بكل قواي صداعا أتعب راسي" .

فالعشق ممارسه للحرية والاختلاء بالنفس للتامل والتفلسف والتفكير هو ممارسة للحرية ينتج عنها الحركة والابداع وراحه النفس وراحه العقل وانعدام الحرية هو سبب صداع النفس وصداع الرأس ولا يولد سوى الاحباط الذي نعانيه على كل الجبهات ولان الواقع لا يعطي سببا للشفاء من الصداع نجده يتجه الى عالم الحلم حيث يخلق لنفسه شيئا يلهيه عن الواقع المحزن وهذا واضح في قوله يخاطب مدينته الجميله"الديوانيه" .

وابكي اذ تتجمع في رأسي ضحكاتك

واسمع قرب سريري خطواتك

فتسكب ـ مثل الامطار ـ الفرح بقلبي

خطواتك

أراك جميلة كصباح المدن البحرية

أقرب وجهي منك

اجاورك

اضاحكك

اصنع من ضحكاتك نهرا من فجر ريفي وخبزا

وابكي - من شده شوقي لوجهك - حد النزف.

انه يصنع على البعد لنفسه زادا يعيش عليه فيتخيل مدينتـه ويراهـا كمـا فـي حلم رؤيه تسكب في قلبه الظـامئ الفـرح الـذي يـروي عطشـه ... ولكنـه يبكـي حـد النزف اذ يجده وهما يعيشه لحظات ثم تصدمه الحقيقه المرة وهنا يقول:

احلم كل الليل بوجهك.

منفي يحلم في وطنه.

وهنا يباغتنا الشاعر بمعنى جديد وجميل ... نفهم منه ان هذه الرؤيـة التـي تراوده في الحلم لا تنسيه وحشة الليل ليل النفي والغربة المتصل في عالمنا العربي وفيه مدننا المقهورة حيث النفي حاله دائمة تمسك بتلابيبنا جميعا .

ورغم بكائه المتصل؛ الا ان حزنه حزن شفاف يخلـو مـن القتامـة والمـرارة؛ وينأى بصاحبه عن الحقد والكراهية لدرجه اننا لا نكاد نجد له أثرا في شعره؛ حتـى بالنسبه لهؤلاء الاوغاد والجلادين الذين تسببوا على مدى العصور في قهر الانسان العربي كذلك لا يطيل الوصف ولا يقف طويلا لكشف الحكام المتخاذلين والمتـامرين ويكتفي بأن يصفهم بالإعيـاء والـدوار فـي قصـيدة "الانتظـار" التـي يخاطـب فيهـا الرئيس الراحل جمال عبد الناصر.

ربما لان هذا الشاعر الممتلئ حبا للحياة والناس؛ ما زال يـرى الـدنيا بعين الحالمين؛.فهو لا يستمطر اللعنة عليهم ولا يحرض النـاس للثـأر مـنهم؛ بـل يكتفـي بوصف حالهم كذلك يرى الناس؛ وبالاخص ابناء وطنه؛ ولا يلـومهم علـى تخـاذلهم او تخبطهم بل يراهم بسطاء فـى قصـيدة ، "تسـاؤلات علـى خارطـة لا تسـقط فيهـا الامطار" اذ يقول:

احببتك يا وطن البسطاء

قاتلت لأجلك اوغادا

سقت اليك مواسم يملاها الدفء

وغيوما تحبل - طول العام -بماء الله

فلماذا لا تمنحني فرصه عشقي

واخرى اخلو فيها بنفسي

لا شيء اكثر من عتاب رقيق؛ لان هذا الشاعر ما زال يرى الواقع من السطح دون ان يتعمقه؛ ليكشف عن سلبيات الجماهير وجهلها وتخاذلها وينقدهم بقسوه كما فعل "صلاح عبد الصبور" في قصيده الناس في بلادي اذ يقول:

الناس في بلادي جارحون كالصقور

غناؤهم كرجفة الشتاء في زوابة المطر

وضحكهم يئز كاللهيب في الحطب

خطاهمو تريد ان تسوخ في التراب

ويقتلون يسرقون يشربون يجثأون

لكنهم بشر

وطيبون حين يملكون قبضتي نقود

ويؤمنون بالقدر.

ولا يزال عذاب بعيدا عن هذه الواقعية الصادقة واللاذعة عند "صلاح عبد الصبور" لان عذاب الركابي لا يزال رومانسيا؛ انه عاشق يحلم ويحزن؛ حزنه مشوب بالعطف والرجاء في لحظه سعد تأتي بها الايام فتمسح دموع الباكين وتمحو شكوة الشاكين ولذلك تراه يتعلق بخيط الحب على الدوام في قصيدة للفرات أغني يقول عذاب

وقت التقينا تناسلت اشياء

وقت افترقنا تغيرت اشياء

تلك هي المحبة

وردة في القرب

وفي البعد ضياء.

انه انسان يؤمن بقوةة الحب وسحره بل بقدرته على حل كل المعضلات والازمات يقول: في قصيده "حصار "يخاطب حبيبته:

اهمس - والناس نيام - بأذنك

" انت حياتي "

بستانا اسمع ينضج في كفك

يشبع كل جياع الارض.

فليس بالخبز وحده يحيا الانسان؛ بل بالحب ايضا الذي يمكنه اشباع الملايين؛ بل كل جياع الارض - انه جوع روحي لا يرويه سوى الحب.

ونحن اذ نمضي مع هذه القصيده الجميلة؛ تتكشف امامنا غابة كثيفه من الصور الفياضة بعظيم المعاني؛ كاقتران الحب بالفهم او بالمعرفة وارتباط المعرفة بالالم واذا اردنا ترتيبا هرميا لهذه الافكار كما نجدها في شعره فهي كالاتي: الالم؛ فالمعرفة؛ ثم الحب.

سيدتي من لا يتعذب؛

من لا يفهم لغة الاعصار

من لا تغزوه النار

تصدعه ضحكات الشيطان

وتخفي معالمه اول ريح.

فالانسان الذي لا ينصهر في تجربه الحب بنار العذاب والالم حتى يجوز المعرفه الواثقه الحقة لا يمكنه حمل تبعة الحب برسوخ وثبات؛ ولا يقوى على الصمود امام المغريات؛ ويسقط عند اول امتحان ويضيع فلا تعرف ملامحه. فتجربة الالم والعذاب هي اولى المراتب في الوصول الى درجة المعرفة التي تؤدي الى الحب؛ الحب المخصب الذي يحيل حياتنا المقفرة الى ازدهار ونماء. فبالحب

نستطيع ان نولد ميلادا جديدا. في قصيده "حبيبتي.. انني احتج" يتحدث عن ماساه لبنان ويقول:

لبنان

تعلمنا من عينيك الشعر

وان نعشق حد العظم؛

فهل نتعلم ان نولد ثانية

او نرجع صبياناً.

وكيف لنا ان نستعيد حالة البراءة او نولد من جديد قبل ان نتطهر بالالم؛ ونصل الى المعرفة الحقة والحب الحقيقي وادراك الشاعر لهذه الحقيقة يجعله يصرخ في الكتاب والشعراء ورجال الفكر والادب ورجال السياسه والحكم.. على الاقل ممن عرفوا لبنان واحبوا الحياة في بيروت ايام عزها.. وكان اكثرهم من الفارين والمطاردين.. الذين اوتهم بيروت ومنحتهم الامن والحياة: انه يناشدهم جميعا ان يتحركوا لانقاذها من المحنة؛ وهو يلوح لهم برايات الحب واكليل الغار؛ ليضعها على راس كل من يعلن عن حبه الحقيقي. ويعده بأن يفوز بالجائزة:

يا قاده مركبة الوطن العربي

يا أمراء الشعر

ويا أصحاب التيجان

من يعلن - في هذه الساعة – الحب

يفوز باجمل كل نساء الارض

امرأة – طفلة

صنعها الله من الليمون؛

من نتف الثلج؛

واوراق الريحان

من يعرفها؟

من يتذكر اسم - ملامح تلك الطفلة؟

لم يفز احد بجائزه الحب على الجانب العربي؛ لان أحدا ممن خاطبهم الشاعر لم يسمع ولم يتحرك في الوقت المناسب؛ وقبل وقوع كارثة الاجتياح الإسرائيلي لجنوب لبنان؛ وحصار بيروت؛ ووقوع المذابح واستشهاد الالاف من لبنانيين وفلسطينيين. لم يتحرك العرب في الوقت المناسب. لماذا؟ لان العرب ما زالوا بعيدين عن المعرفة الحقة التي تخلصهم من نزاعات الانانية القبلية والعصبية الجاهلية التي تمزق وحدتهم. وهذا ما يؤكده الشاعر في قصيدة "من طموحات عنتره العبسي" حين يشير الى القصة المعروفة؛ عنترة وعبلة؛ زبيدة وشداد؛ كرموز للقبيلة وما زالت متمكنة في حياتنا تبعدنا عن الحرية والعدل والمساواة كذلك يتكلم عذاب عن الوطن العربي في قصيدة "خطا في التقسيم المناخي".

رجل هو الوطن العربي

تحتل دواخله امرأة

لا تفهم من هذا العالم شيئا غير النوم

امرأة تأكل وتحارب في النوم.

ولا شك في هذا النوم بعد الان. فهو نوم الجهل والجاهلية؛ ولا يقول الشاعر هذا الكلام المحزن القاسي من باب الشماتة؛ بل من رغبة عارمة في أن نفتح عيوننا وعقولنا ونعرف كيف نتخلص من سلبيات التخلف وميراث العصور؛ لانه ما زال يحلم و"ينتظر نهارا" يحكم فيه الفقراء. "ولكن انتظاره يطول ولا يلوح في الأفق ان الأمل قريب فتثور ثائرته في آخر القصيدة فيدعو الى ثوره كاسحة تغير كل شيء قائلا:

فلماذا لا ياتي الطوفان؟

يغسل احشاء الوطن من الشوك

ويطرد كل الغربان

وقد تكون هذه الثوره الاخيرة؛ طريق الشاعر الى مزيد من الواقعية والعمق والنضوج الفكري والفنى في أشعار "عذاب الركابي" القادمة.

17- الكتابة عمل انقلابى

نزار قبانى

منشورات نزار قبانى : بيروت : ١٩٧٥

هذا عنوان مثير لكتاب يضم أكثر من خمسين مقالا نشرها الشاعر نزار قباني على مدى سنتين بمجلة الاسبوع العربي» بين يونية ١٩٧٣ حتى ابريل سنة ١٩٧٥. وهي تتناول آراءه في الشعر والنقد وفي حرب أكتوبر بل في كل ما طرأ على الأمة من أحداث فى هذه الفترة. وهي في مجموعها تعبر عن انطباعات شاعر يعيش بأعصابه فترة ملتهبة من حياة أمته، تزيد من حدتها مأساة فقده لولده توفيق. ولهذا جاءت عباراته شاعرية مليئة بالحدة والحرارة.

(١) مجلة الكاتب ـ ديسمبر ١٩٧٥

ومع انه شاعر يكتب11 في السياسة بلغة الشعر ذلك فان هذه الانطباعات تحوى قدرا كبيرا من عمق التفكير وصدق البصيرة يتلخص ذلك في كلامه عن الحرية والتجديد والتراث وعن التجزئة الجغرافية والقبلية والطبقية التي تجعل من الأمة العربية شتاتا ممزقا بين اربع عشرة دولة.

ولعلها محاولة لربط الشعر والأدب عموما بالسياسة.

تشكل موقفا خاصا التزم به نزار قباني منذ نكسة يونية حين نشر قصيدته" هوامش على دفتر النكسة"، التي انتقد فيها العرب وجرحهم جميعا بقسوة، وكانت لها ردود فعل فى كل مكان من الارض العربية. ولهذا جاء هذا الكتاب النثرى تسجيلا لخواطره وانطباعاته على أحداث حياته الخاصة وحياة أمة العرب لا يكاد يترك خبرا هاما الا ويعلق عليه.

فهو يتابع انتظار الأمة لجهود كسينجر قبل معركة اكتوبر ويرسم صورة قلمية لكسينجر في مقالة «كسينجر قيصرا، وحين اجتمع بوزراء خارجية العرب في أول أكتوبر ٧٣ وقال لهم «لا تنتظروا من الولايات المتحدة معجزة، جاء تعليق نزار في مقال «شوربة الوزير: بأن التاريخ قد أثبت ان الذى لا يطبخ في بيته:

يبقى طول عمره جائعا والبيت العربي لحسن الحظ فيه كل المواد الرئيسية من حنطة وسمن ودقيق، ولحوم بيضاء وحمراء. وحطب وفحم وبترول.

ولكن طباخينا ليست لديهم الهمة ولا الطموح وينتظرون شوربة بيضة. فهم ينامون حتى الظهيرة البحص الأمريكية التي مازالت تغلى على النار منذ ست سنوات ولا زالت بحصا .. بحصا .. بحصا ..

وهذه الكلمات تعبر بصدق عن حال الأمة العربية قبل معركة أكتوبر، وترد على مزايدات الجاحدين والناكرين لفضل مصر ولا نتصار أكتوبر المجيد. صور نزار تأثير معركة اكتوبر على معنويات الانسان العربي وعلى نظرة العالم لنا فى أكثر من مقال . تحت عنوان " وجهي .. وجواز سفرى" يقول نزار:

قبل السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣. كانت صورتي مشوشة، وغائمة وقبيحة، كانت عيناي مغارتين تعشش فيهما الوطاويط والعناكب، وكان فمي خليجا مليئا بحطام المراكب الغارقة. وكانت علامتي الفارقة المسجلة في جواز السفر هى انني أحمل على جبيني ندبة عميقة اسمها حزيران.

أما عمري في جواز سفرى القديم. قد كان مشطوباً. لان العالم يعتبرني بلا عمر.. واليوم (٦ أكتوبر ١٩٧٣) يبدأ عمرى. لا تستغربوا كلامى، فأنا ولدت تحت الطوافات، والجسور العائمة التي علقها مهندسو الجيش المصرى على كتف الضفة الشرقية، وخرجت من أسنان المجنزرات السورية التي كانت تقرقش الصخور في مرتفعات الجولان.

وكما كانت حرب اكتوبر ميلادا جديدا للأمة العربية، فقد كانت بداية لاحترام العالم لهذه الأمة يعبر عن ذلك ما قاله ميشيل جوبير وزير خارجية فرنسا. انتهى عصر ألف ليلة وليلة. وعلينا أن نتعامل مع العرب بعد اليوم على أساس جديد.

وفي مقالة "الخروج من ألف ليلة وليلة"، علق نزار على ذلك قائلا :

يضع ميشال جوبير، رئيس الدبلوماسيه الفرنسية، في هذه الكلمات القليلة، أصابعه على مشكلة العرب المعاصرين، ويشخص بذكاء السياسي والمثقف، وجعنا التاريخي والوجودي. إنه يختصر المأساة، ويدين شرق الخرافة والحلم ويعتبر ألف ليلة وليلة مسئولة ، مسئولية كاملة عن كساحنا الحضارى والعقلى وشللنا النصفى الذي استوطن عظامنا خمسمائة عام، ولو ان كاتبا عربيا قال مثل هذا الكلام، لسحبوه من قدميه، وجرجروه في الشوارع. واتهموه بالتجسس والعمالة والاعتداء على ضريح التاريخ وعظام الأجداد.

وهذه الكلمات الأخيرة تصور أزمة الثقافة العربية وانعدام حرية الفكر وارتباطها برؤيتنا وتوضح رأيه في هذا التراث وسوف أشير اليه. فيما بعد.

وترتيب المقالات في الكتاب لا يسير على أساس ظهورها تاريخيا، بل حسب الموضوع. فهو يبدأ بمقالاته عن الكتابة والشعر والنقاد ثم ما كتبه عن مأساته بفقد ولده وبعدها تأتي الأمور العامة.

ولكن ، ماذا يعنى نزار بعنوان الكتاب؟ هل يعني الثورة على القديم، ما هى حدود هذه الثورة وغايتها؟ وهل ما يقوله فى هذه المقالات يشكل موقفا فكريا بالنسبة له كشاعر؟ . ان الاجابة عن هذه الأسئلة توضح شروط الثورة وحدود الإلتزام من وجهة نظر نزار قباني.

ولنتأمل ما يعنيه بالعمل الانقلابى :

بالشرط الانقلابى نعنى خروج الكتابة والكاتب على سلطة الماضي بكل أنواعها الأبوية والعائلية والقبلية واعلان العصيان على كل الصيغ والأشكال الأدبية التي أخذت بحكم مرور الزمن، شكل القدر أو شكل الوثن.

ان علة الشعر العربي الكبرى هي أن ذاكرته قوية. والذاكرة بصورة عامة خطر على الشعر لانها سنهم متجه الى الوراء لا سهم ذاهب الى المستقبل فالشعر العربي ظل لالف عام يصدر عن ملكة التذكر. انه يدعو بوضوح الى الثورة على تقاليد الشعر العربي القديم التي ظلت راسخة عشرة قرون زادتها عصور الانحطاط والتدهور رسوخا.

وقد يبدو هذا الكلام متناقضا مع ما يقوله نزار في هجومه على بعض الشعراء الذين أطلقوا على أنفسهم شعراء السبعينات، وهو يسميهم هيبي الشعر الذين يحاولون القاء القاذورات في شوارع القاهرة وبغداد وبيروت ودمشق ويطالب البلديات بضربهم بخراطيم المياه .. ذلك لانهم يحتقرون الشعر القديم ويرون ان كل العصور التي سبقتهم هى عصور انحطاط، وان كل ما كتبه العرب من شعر منذ الشنفرى حتى اليوم شعر ردى ومنحط ولهذا يدعون الى ثورة ثقافية و نزار يدفعهم بتهمة الجهل والتخريب. ولعله يوضح مفهومه للثورة على القديم في الكلمات الآتية:

ان ولاءنا للشعر العربي القديم ليس ولاء مطلقا. فنحن نعرف مواطن جماله ومواطن قبحه .. لكننا لا نسمح لانفسنا ولا للآخرين باعدام ديوان الشعر العربي كله بحجة التقدمية والثورية.

ان أول شرط من شروط الثورة هو أن يكون وراءها قضية. واهم ما يميز الثائر هو أن يحمل تصورا واضحا للمستقبل. وفي غياب مثل هذا التصور يصبح الانقضاض على التراث بصورة فجائية وغوغائية عملا من. اعمال التخريب. . اذن فهي ثورة محسوبة بشروط الوعى بالماضي والحاضر والتخطيط للمستقبل وعلى هذا الأساس كان هجومه على كتاب « ألف ليلة وليلة.

الخطورة فى (ألف ليلة وليلة) أنها تحولت من نص مكتوب الى (سلوك) اجتماعى ، وثقافى و سياسى ومن صورة ذهنية الى واقع يومى ومن نكتة الى شهادة عار معلقة على صدورنا .

اذن، فنحن لسنا ضد الفولكلور، ولا ضد الأساطير والرموز الجميلة التي يعبر بها الشعب عن نفسه، وعن أحلامه وعواطفه، ولكننا ضد المستنقعات الفولكلورية التي تجعل من (على بابا والأربعين حرامى) ومن (لص بغداد) ومن قرصان محترف (كالسندباد البحرى) ومن ملك مصاب بالشيزوفرانيا (كشهريا) نماذج أدبية وسياحية نصدرها الى العالم.

اذن فهي دعوة لدراسة التراث على أساس منهج علمى حديث يبرز ما فيه من قيم انسانية وحضارية نحرص عليها، ويسقط كل قيم التخلف والانحطاط.

لكن هذا الكلام لا يبدوا واضحا تماما في مقالات نزار: لأنه يتهم النقاد بأنهم يعملون بناء على مخطط لاغتيال كل ما هو نبيل وجميل فى حياتنا الثقافية ويعتبر نقدهم هجمة شعوبية لاقتلاع التاريخ العربي كله فكيف يتفق هذا مع ما يقوله عن الكاتب الانقلابي؟ ان المكان الطبيعي للكاتب العربي المعاصر - هو في صفوف الانقلابيين ومهما اختلفت المواقف الوجودية بين كاتب وكاتب. فان القاسم المشترك بين كل من يكتبون هو الثورة والرغبة المشتركة في تغيير جلد العالم العربي وتغيير دمه. فكيف يمكن تغيير جلد العالم العربي وتغيير دمه؟ ما هي الوسائل وما هى المناهج الفكرية والفنية التي يمكن للكتاب أن يؤدوا هذه المهمة بواسطتها؟

ان كلمات نزار تضع القارىء في حيرة حقا لأنها تتضارب في كثير من الأحيان وربما كان عذره ان كلماته جاءت كانطباعات عابرة لا تستند الى تقييم صحيح لما يكتب من نقد أو ما يقال من شعر. وهي تثير سؤالا هاما: ألم يجد نزار ناقدا واحدا أو شاعرا آخرا غيره من المعاصرين يستحق الاشارة أو الاهتمام حتى رمى الجميع بنهم الشعوبية والتخريب ؟

انه يستنكر مهاجمة الشعراء بعضهم لبعض ويقول ان الشعر عمل من أعمال الطهارة ومن لا يستطيع الاستحمام كل يوم يجب عليه أن ينسحب الى الغابة فكيف يرضى اذن لنفسه أن يستنكر كل حركات التجديد في الشعر ويرمى الشعراء والنقاد جميعا بتهمة الخيانة لقد كانت هذه مشكلة الاستاذ العقاد رحمه الله اذ كان يعتبر كل شعراء المدرسة الحديثة أعضاء في الجيش الأحمر. وهو موقف ذاتى لا يخدم قضية الشعر أو الثقافة ولا يجب ان يتكرر.

ان أبشع شيء ان يتحول الناقد أو الكاتب أو الشاعر الى قاضي يوزع التهم ذات اليمين وذات اليسار: خصوصا ونزار يدعو الى الموضوعية والى الفكر العلمي لتحقيق التقدم الحضارى وتخليص الثقافة العربية من الخرافة والشعوذة. فأين مكان نزار بعد كل هذا من التيارات السياسية والايديولوجية التي تتلاطم في العالم العربي الي أين؟ .

لعل في مقاله « عن الحرية» محاولة للاجابة على هذا السؤال فهو يدعو الى تعريف الحرية: ويرى انها حركة فردية داخل دائرة الجماعة وليست حركة في الفراغ المطلق. واستعمال الحرية لا يمكن ان يكون بغير ضوابط والا كانت الحرية قاتلة وقد عرفت الأنظمة الاشتراكية، كيف تصقل حرية الفرد وكيف تمنع تجاوزاته، وكيف تسيطر على غريزة الطمع المركبة فيه. بحيث تأتى حرية المجموع أولا: وحرية الفرد ثانيا.

أما في الأنظمة الليبرالية: فان الفرد يتصرف كوحش لا يتورع عن كل ما يصادفه من أرض ومصانع وبشر وهو يعتقد أن الحرية التي يتيحها له النظام الليبرالي: تمنحه الحق في أن يمد ساقيه على رقبة البشرية ويسحق برأسماله الخرافى واحتكاراته عظام المعذبين في الأرض ونحن بالطبع ترفض الحرية التي ينادى بها سمك القرش، لأنها تقوم أساسا على الجريمة والنشل والمتاجرة بلحوم الآخرين.

وبعد تجريم النظام الليبرالى والرأسمالي يتضح لنا انه يفضل النظام الاشتراكى الذى يعطى الأولوية لحرية المجموع ولمصلحة المجموع ثم للفرد ...اننا نرحب بخروج نزار من دائرة الاهتمام بالمرأة الى الاهتمام بقضايا الأمة العربية المصيرية ونشكر له حبه لمصر وتقديره لتضحياتها وتعتبر كتابة النثرى هذا مساهمة قيمة فى عملية التنويرالفكرية والثقافية ولكن موقفه من الشعراء والنقاد بل من قضية الكتابة عموما يحتاج الى تحديد واضح ، لأن ما قاله حتى الآن لا يصلح اساسا لتشكيل نظرة فلسفية أو فكرية محددة .